الشذرات الذهبية
في السيرة النبوية

تأليف
الشيخ أبي أويس
محمد بن الأمين بوخبزة الحسني

اعتنى به
بدر العمراني

طبع على نفقة سيدة محسنة
وجعلته وقفا لله تعالى

بسم اللّه الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد للّه

تبدلت الأديان وحرفت كتبها بسبب عادة المتلاعبين بها، حتى فقدت الروح والشكل الصحيح بحيث لو بعث أنبياؤها لأنكروها جزما. فالديانة اليهودية علاوة على أنها شريعة خاصة وسلالية (قاصرة على بني إسرائيل، شعب اللّه المختار فيما يزعمون) أسندت في جوهرها وسر عظمتها وسبب ثناء اللّه عليها وتفضيلها على العالمين، وهو التوحيد، فتسربت إليها الوثنية واقتبس أحبارها كثيرا من عقائد وتقاليد الوثنيين كما اعترف بذلك مؤرخوهم، والتلموذ خير دليل على ما انحطت إليه من وثنية وشرك وهمجية وخرافة، وسخف وحماقة، وهو مع هذا أفضل عندهم من التوراة كما قررت ذلك دائرة المعارف اليهودية، وقد عدد القرآن من مخازيهم كثيرا، وعلى رأسها قتلهم الأنبياء بغير حق.

والمسيحية هي الأخرى تناولتها أقلام المحرفين، وشهوات الغالين، وأغراض الجاهلين منذ العصر الأول، وما مرت عليه قرون ثلاثة، حتى أصبحت ركاما من الخرافات الوثنية، وسيطرت عليها تقاليد الرومان، واختفت منها تعاليم التوحيد إلى الأبد، واستأثرت بها فضائح بولس اليهودي الذي ما آلى جهدا في إفسادها وتحريفها، في القرن السادس المسيحي كانت الحرب حامية الوطيس بين النصارى في الشام والعراق ومصر، حول حقيقة المسيح وطبيعته، وتحولت الكنائس والمدارس إلى مراكز للتكفير والقتال.

والمجوسية التي تعبد العناصر الطبيعية وأقواها النار، راحت تُبْنَى لها الهياكل عاكفة على طقوس فارغة وتقاليد معينة يؤدونها في الهيكل، وهم بعد أحرار يفعلون ما يشاؤون في حرية تامة كمن لا دين له ولا عقل، وقد دانوا من قديم الزمان بالوثنية، فلهم إلاهان: النور وهو إله الخير، والظلام وهو إله الشر، والصراع بينهما دائم، والحرب قائمة.

والبوذية أعرق في الوثنية من كل ما سبق، وهي ديانة الهند وآسيا الوسطى فأينما حلت وارتحلت نصبت لها تمثال بوذا، ولازال الشك يحوم حول اعتقادهم بالرب الخالق، فهي ديانة إلحاد

وتضليل.

وديانات الهند، أولعت باختراع الآلهة حتى أله بعضهم نفسه لبعض، حتى بلغ عددها 330 مليون إله، ومن أسخفها عبادة العضو ا لتناسلي للجنسين.

كانت تقتسم النفوذ في العالم على عهد البعثة المحمدية دولتان عظيمتان ذاتا حضارة كبرى: الإمبراطورية الرومانية البيزنطية التي يسميه العرب الروم، كانت عاصمتها القسطنطينية، وتحت حكمها دول اليونان، والبلقان، وحوض البحر الأبيض المتوسط، وآسيا الوسطى، ودول إفريقيا الشمالية، وكان ابتداؤها سنة 395 م وانتهاؤها بفتح العثمانيين للقسطنطينية سنة 1453 م وعاشت أيامها في حروب وثورات ومظالم لا يعرف لها مثيل، وقد هلك في ثورة واحدة للقسطنطينية وحدها ثلاثون ألف شخص، ولا هم لرؤسائها وكبرائها إلا التمتع والتسلية على حساب الغير، حتى بلغوا حد الوحشية والهمجية، والمصريون بلغوا تحت حكمهم من البؤس والشقاء والاستبداد السياسي والديني حدا لا مزيد عليه، والسوريون سحقوا تحت مطارق الظلم ونير الطمع حتى كانوا يبيعون أولادهم لأداء الإتاوات والضرائب.

أما الإمبراطورية الإيرانية فكانت أعظم من سابقتها، اكتسحت ما يسمى الآن بجمهوريات الاتحاد السوفياتي والأفغان وإيران والعراق واليمن إلى الجزيرة العربية وبعض دول الهند وعاصمتها (طيسيفون) وهي المدائن بالعراق، وكانت ديانتها الزرادشتية خليفة المزدكية. وقد ظهر زرادشت في القرن ا لسابع الميلادي ومبناها على إلاهي الخير والشر، والحرب قائمة بين النور والظلام، وظهر ماني أول القرن الثالث المسيحي داعيا إلى العزوبة لينقطع المسيح وينتصر النور على الظلام، وقتل بعدما نفي، ولكن أفكاره لم تمت، وبعده بنحو قرنين ظهر مازدك الشيوعي الأول، فدعا إلى إباحة الأموال والنساء، واشتراك الناس فيهما، فتكالب الناس على الشهوات والفساد، وسلب الأموال، وانتهاك الأعراض. وظل لهذا المذهب النفوذ والسيطرة، إضافة إلى فساد الحكم واستبداد الملوك الذين يحكمون بالوراثة ويعتقدون أنهم من نسل الآلهة، وأن لهم الحق كله في رقاب الناس وأموالهم، فغرقوا في البذخ والترف لدرجة السفه. بينما الناس يرسفون في قيود الذل والشقاء والفقر والمرض، ولتصور ما بلغ إليه الترف والغنى في ملوكهم أن يزدجرد آخر ملوكهم لما فر بنفسه عند فتح المسلمين للمدائن، أخذ معه ألف طاه وألف مغن وألف قيم للنمور، وألف قيم للبُزاة، وكان مع هذا يندب حظه، ويعتبر نفسه فقيرا فاقدا لأسلوب المتعة واللهو، ومعظم الشعب لا يجد ما يسد به الرمق، يخلدون إلى بيوت العبادة لارغبة فيها ولكن فرارا من الضرائب والتجنيد العسكري للزج بهم

في حروب لاهية عابثة لا فائدة فيها لأحد، وكانوا وقودا لها سنين طويلة بين الساسانيين والبيزنطيين، وكانت الحال في شبه القارة الهندية ذات الحضارة الرائعة والتقدم العلمي في العصر القديم في القرن السادس الميلادي، لا تقل انحطاطا وظلاما عما سبق، بل زادت بشيوع الدعارة والفجور فيها، وزاد الطين بلة أن اعتبرت عبادة يتقرب بها إلى الآلهة، وظهرت عادة إحراق الأيامى أنفسهن وفاء لأزواجهن، ولم يختف إلا بعد الاحتلال الإنجليزي، وكان مما زادهم شقاءا النظام الطبقي المدعوم بالدين والعقيدة، والذي شرعه البراهمة والساسة لمصلحتهم، وسنوا له قانونا في منتهى القسوة، لا هوادة فيه، يقسم الناس إلى أربع طبقات: (1)رجال الدين (2)رجال الحرب (3)رجال الفلاحة والتجارة (4)رجال الخدمة وهم أحط الطبقات، يسمون: (المنبوذين) يعتقدون أن خالق الكون خلقهم من أرجلهم (وكانت له أرجل) وسخرهم لخدمة الطبقات الثلاث. ويترتب على هذا التقسيم، من الأحكام الجائرة والظلم الصارخ، ما يتمنى معه المخلوق الموت ليستريح، والهند مع هذا كله تعيش فوضى لا حد لها في ظل حكومات تعد بالمئات، لا هم لها إلا الحروب والقتال، معزولة عن العالم غارقة في الجهل والتعصب والجمود، فلا غرو أن ينطمس الفكر وتخبو جذوة العقل في هذا الجو الموبوء.

أما أوربا فكانت أسوء حالا وأشد جهلا وأمية، وأغرق في القذارة والهمجية وأبعد عن الحضارة والعلم، وأعطش لسفك الدماء والحروب، ظل كبراؤهم وعقلاؤهم زمانا يبحثون في طبيعة المرأة هل هي حيوان أو إنسان، وهل لها روح خالدة أو لا، وهل لها حق التصرف أو لا، استمر هذا من القرن الخامس إلى العاشر للميلاد، والمقصود أن الثابت تاريخيا أن القرن السادس الميلادي الذي بعث فيها محمد صلى اللّه عليه وسلم كان أشد عصور التاريخ ظلاما وجهلا وأحطها دينا وخلقا، كان الإنسان فريسة حرب دامية ضروس بين الفرس والروم، انتهت بانتصار الروم كما أشار إليه القرآن في أول سورة الروم، وطبيعي أن ينسى المرء في هذا الوضع المزري بالإنسانية ربه وخالقه، ونفسه ومصيره، ويفقد صوابه ورشده، ولا أصدق في وصف هذا الحال من قوله تعالى «(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون)» ﴿الروم: 41﴾.

من أجل هذا اقتضت عناية اللّه ورحمته بخلقه، أن يخرجهم من هذه الظلمات إلى نور الهدى والرشد، وينقذهم من هذا البلاء اللاحق إلى حياة يذوقون فيها طعم الراحة والحرية، فاختار رسوله الخاتم صلى اللّه عليه وسلم من الأمة الأمية والجزيرة العربية، فلماذا اختير من أولئك ومن ثَمَّ؟

إذا تأمل القارئ ما سبق وتفهم ما تنطوي عليه فصوله، وليس عشر معاشر ما دون من تاريخ تلك الحقبة، وأحوال دولها، علم أن طبيعة الجزيرة العربية، وما فطر عليه أهلها من ابتعاد عن التصنع والتكلف، وتشبث بالانطلاق والحرية، ونفور من الذل والاستعباد، وصفاء في الفكر، وسلامة المنطق، الذي كان فسد عند الأمم المجاورة من الفرس والروم، ومن تحت نفوذهم من اليونان والهند، بفلسفات فارغة أفضت بهم إلى عبادة البشر والأوثان والحيوان، ومنطق مريض وفكر عليل، حبب إليهم العكوف والتوغل في جدل عقيم، ضرب به المثل في الخواء والسخف الثقيل: (جدل بيزنطي) هذا إلى ما امتاز به العرب من فروسية، واعتداد بالنفس، وإباء للضيم، ودفاع عن الحرمات، وإكرام للضيف، وإيثار على النفس وصبر وتحمل وإقدام، ومما لا شك فيه أن لبيئتهم الواسعة، وأرضهم القاحلة، ومناخهم الجاف، أثرا لا ينكر في تكييف هذه الشمائل وصقل هذه السجايا، ولأمر ما اختار الله تعالى وادي مكة ليرفع فيه بناء أول بيت يعبد فيه في الأرض، وقد عميت أبصار الأحبار والرهبان برمد التعصب والجمود، فلم يهتدوا بنبوءة داود عليه السلام التي جاءت في المزامير (الكتاب المقدس 84-5-6-7) ونصها: طوبى لأناس عزهم بك طرق بيتك في قلوبهم عابرين في (وادي البكاء، يصيرونه ينبوعا) هكذا جاءت الترجمة، والحق أنه وادي بكة كما نطق القرآن. وقد فسرته دائرة المعارف اليهودية بأنه واد مخصوص لا ماء فيه، وأحسن مترجموه للإنجليزية فكتبوه بالباء (بكة). ومن المدهش أن علماء جغرافيين اكتشفوا مؤخرا أن مكة تقع وسط الأرض وأنها مركز العالم، كما لم ينتفعوا ببشرى التوراة -على ما أصابها من تحريف- الواردة في سفر التثنية (15/18) والتي جاء فيها على لسان موسى عليه السلام: (يقيم لها الرب إلاهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلي، له تسمعون) ففي عبارة (إخوتك) دليل على أن المراد بهم بنو إسماعيل، وببشرى الله لإبراهيم عليه السلام الواردة في سفر التكوين من التوراة. ونصها: (على إسماعيل استجبت لك، هو ذا أباركه أكبره وأكثره جدا. وسيرد اثني عشر رئيسا وأجعله كشعب كبير) وهذه إشارة إلى استجابة الله تعالى دعوة إبراهيم التي جاءت في القرآن: «ربنا وابعث فيهم رسولا منهم... الحكيم)» ﴿البقرة: 129﴾ كما أنه معنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى). والبشريات به صلى الله عليه وسلم في الكتب السابقة أكثر من أن تحصى. ورغم ما تعرض له ما بقي منها في أسفار التوراة والإنجيل والمزامير من تحريف وتغيير وتحوير، فقد سلم منها الكثير، لتقوم بها حجة الله على خلقه.

ولعل من أسباب اختيار الله العرب بجعل الرسالة الخاتمة

فيهم و(اللّه أعلم حيث يجعل رسالاته) ﴿الأنعام 124﴾ أنهم كانوا يوحدون اللّه توحيد الربوبية، وإن أشركوا به في العبادة، فلازمهم إسم (المشركون) لذلك. يقول المقريزي في السلوك (11/1): (يعتقد المشركون مع ذلك (يعني عبادة الطواغيت) أن اللّه سبحانه هو الذي خلقهم، وهو الذي أوجدهم ثم يميتهم، وهو الذي يرزقهم، وأن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى اللّه سبحانه، وكانوا إذا مسهم الضر في البحر من شدة هبوب رياحه وعظم أمواجه وأشرفوا على الهلاك، نسوا عند ذلك الأصنام التي كانوا يعبدونها، ودعوا اللّه يسألونه النجاة. وقد محا اللّه وله الحمد لنبينا محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم الشرك من العرب، حتى دخلوا في دين اللّه أفواجا، وجاهدوا في اللّه حق جهاده. إلى أن ظهر دين الإسلام بهم على سائر الأديان، وملكوا مشارق الأرض ومغاربها مما تطأه الدواب وتمر فيه السفن). وكلام المقريزي هذا مدعوم بآيات القرآن المعلومة في هذا الموضوع فإذا قارن الباحث أحوال العرب هذه بأحوال الأمم زمان البعثة المحمدية، وجدهم أقرب إلى الفطرة والتوحيد، رغم شركهم الساذج، وإن أرضهم وبيئتهم أخصب أرض لزرع التوحيد التام وإقامة دينه وشريعته.

والملم بما ألمعنا إليه من تاريخ الإنسانية ووضع الأديان السماوية وقت ظهور الإسلام، ونظم الحكم والأخلاق السائدة يومئذ، يدرك تمام الإدراك وأوفاه، صدق قوله تعالى بعد بسم اللّه الرحمن الرحيم: «(الر كتاب أنزلناه إليه لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)» ﴿إبراهيم: 1﴾ وقوله تعالى: «(يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا... صراط مستقيم)» ﴿المائدة: 16﴾ وقوله تعالى: «(هو الذي ينزل على عبده آيات بينات... لرؤوف رحيم)» ﴿الحديد: 9﴾.

والإسلام مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى مَدِّ يَد الغوث والإنقاذ للإنسانية الغارقة إلى أذقانها في أوحال المادة، وَظلمات الإلحاد والكفر، والتي هي الآن على حافة الهلاك والدمار والاضمحلال، وقد دق ناقوس الخطر لذلك فلاسفتها وعقلاؤها، (وربك يفعل ما يشاء ويختار)، والمستقبل للإسلام ولابد، كما نطقت بذلك الشواهد الإلهية والكلمات النبوية ومأثورات أرباب الأقلام والمفكرين، وللّه الأمر من قبل ومن بعد.

تطوان في أواخر رمضان 1420هـ
أبو أويس محمد بوخبزة

بسم اللّه الرحمن الرحيم
وصلى اللّه وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه
وسلم تسليما كثيرا

الشذرات الذهبية، في السيرة النبوية

إن الحمد للّه نحمده، و نستعينه ونستغفره، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده اللّه فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى اللّه عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين.

أما بعد، فهذه دروس مباركة - إن شاء اللّه - في السيرة النبوية الصحيحة، جمعتها لطلبة الفصل الثاني من مدرسة مؤسسة الإمام أبي القاسم الشاطبي لتحفيظ القرآن، وتدريس علومه بمدينة تطوان، متوخيا فيها الصحة والوضوح والاختصار غير المخل، مشيرا بالهامش إلى مصادر الأخبار ومخرجيها، واللّه سبحانه أسأل أن ينفع بها جامعها ومن جمعت لهم، ويجعلها من العمل الصالح المقبول، آمين.

نسب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم

هو سيدنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن مَعَد بن عدنان[1]. هذا هو النسب الثابت له صلى اللّه عليه وآله وسلم، وعدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام اتفاقا. أمه آمنة بنت وهب تلتقي مع أبيه في كلاب بن مرة. وكنيته أبو القاسم، وأمر أن نسمي باسمه، ولا نكني بكنيته فقال: (سموا باسمي، ولا تكنوا بكنيتي)[2]. سماه جده عبد المطلب: محمدا رغبة أن يحمد في السماء والأرض[3]، وهو أعز وأعلى وأطهر أهل الأرض نسبا. قال صلى اللّه عليه وآله وسلم (إن اللّه يوم خلق الخلق جعلني في خيرهم، ثم حين فرقهم جعلني في خير الفريقين، ثم حين جعل القبائل جعلني في خير قبيلة، ثم حين جعل البيوت[4] جعلني في خير بيوتهم، فأنا خيرهم نسبا

---

(1): رواه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي صلى اللّه عليه وسلم. والبيهقي في الدلائل (1 /161).
(2) : رواه مسلم في صحيحه رقم : 2133
(3) : رواه البيهقي في الدلائل (1/ 13) في خبر طويل أورده ابن كثير في البداية والنهاية (3 / 389)، ط. دار هجر. ولم يتعقبه بشيء، وفيه إعضال ونكارة.
(4) : أي الأسر و العائلات.

وخيرهم بيتا)[1].

وقد اعترف أعداؤه بهذا فقال أبو سفيان قبل إسلامه -وهو زعيم قريش- لهرقل قيصر الروم: هو فينا ذو نسب[2]، واختيار اللّه إياه شريف النسب، لاحتفال العرب بالأنساب الشريفة الصحيحة، وحتى لا يجدوا مطعنا فيه من هذه الناحية،ويقولوا: إنه بدعوته يسعى لشرف موهوم، واختياره من العرب دليل على فضل الجنس العربي في الجملة و(اللّه يعلم حيث يجعل رسالته) ﴿الأنعام: 124﴾ فيتجنب المسلم كره العرب جنسا لا أفرادا.

ميلاده «صلى الله عليه وسلم»

ولد صلى اللّه عليه وسلم مختونا كما قال: (من كرامتي على ربي أني ولدت مختونا، ولم ير أحد سوءتي)[3]. ولم يصح أن جده ختنه وصنع له مأدبة. وتوفي والده وهو في بطن أمه كما رجحه العلماء[4]. وإليه الإشارة بقوله تعالى: «(ألم يجدك يتيما فآوى)» ﴿الضحى: 6﴾ وكان ميلاده بمكة يوم الإثنين 12 ربيع الأول عام الفيل[5]. وحقق بعض علماء الفلك أنه كان يوم 9 ربيع الأول الموافق ل20 من فبراير 571 م وكفله جده عبد المطلب تحت رعاية أمه آمنة إلى أن بلغ ست سنين، فتوفيت أمه بالأبواء (قرية تقرب من الجحفة) وهي راجعة به إلى مكة بعدما زارت أخوال أبيه بني عدي بن النجار بالمِدينة[6]. وحملته أم أيمن (اسمها بركة) مولاته وحاضنته إلى جَده بمكة فعني به إلى أن توفي وله صلى اللّه عليه وسلم ثمان سنوات بعدما أوصى به إلى عمه أبي طالب، وكان جده يحبه ويحنو عليه جدا، حتى إنه أرسله مرة في أثر إبل ضلت فاحتبس عليه حتى حزن حزنا شديدا وعندما عاد بالإبل أقسم ألا يبعثه في حاجة له أبدا، ولا يفارقه بعد هذا أبدا[7]، كما كان يقربه ولا يدع أحدا يدخل عليه وهو نائم غيره، وكان يفرش له في ظل الكعبة فيجلس معه محمدا وبنوه حوله[8]، وكذلك كان عمه أبو طالب لا ينام إلا ومُحمَّدٌ إلى جنبه، ولا يأكل إلا معه ولا يفارقه إلا

---

(1) : رواه أحمد في المسند (1/ 210) وإسناده صحيح رواه الترمذي (5/ 353) وصححه.

(2) : رواه البخاري من حديث طويل (12/ 70) مع الفتح.

(3) : رواه الطبراني في الأوسط والصغير رقم : 936 والحاكم في المستدرك (2/ 602) وصححه متواترا وتعقبه الذهبي بقوله : ما أعلم صحة ذلك فكيف متواترا. وللحديث طرق صححه بها الضياء في المختارة.

(4) : هذا قول ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (1/ 158) قال ابن سعد في (الطبقات 1/ 99) وهو الأثبت ونص عليه البلاذري في أنساب الأشراف (1 / 92).

(5) : رواه ابن أبي شيبة في المصنف. وإسناده صحيح. وفي صحيح مسلم رقم 1162 قوله عليه السلام عن يوم الاثنين في حديث : ذلك يوم ولدت فيه وأنزل علي فيه.

(6) : مصنف بن أبي شيبة (5 / 318).

(7) رواه أبو يعلى بسند حسن كما في (مجمع الزوائد) للهيثمي (8/ 244).

(8) : رواه الأزرقي في أخبار مكة بسند حسن.

لماما حتى توفي قبل الهجرة بنحو ثلاث سنوات.

والحكمة في هذه النشأة اليتيمة التي لم يحظ فيها صلى اللّه عليه وسلم بتربية ولا توجيه ولا تعليم: أن لا يجد المشركون سبيلا لدعوى تطلعه إلى الجاه بدعوى النبوة وقد كانت لجده الرفادة والسقاية، وهي إطعام الحجيج وسقياهم. ولتكون لليتامى دائما إسوة حسنة فيه صلى اللّه عليه وآله وسلم فيعلم أن اليتم ليس منقصة ولا عيبا يحول بين صاحبه وبين بلوغ أسمى الغايات.

إرهاصات النبوة

وحدث قبل ولادته ومعها بعض أحداث دلت على نبوته، تسمى : إرهاصات، منها : قوله صلى اللّه عليه وسلم: (أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، رأت أمي حين حملت: كأن نورا خرج منها أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام)[1]. وما يقال من ارتجاج إيوان كسرى، وسقوط 14 شرفة منه، وخمود نار فارس، وغيض بحيرة ساوة إلخ، وخبر بعض الكهان كشق، وسطيح، فكله لا يصح.

رضاعه صلى اللّه عليه وسلم

واسترضع صلى اللّه عليه وسلم في بادية بني سعد، حيث شق صدره الشريف ثمة. وما اشتهر من أن مرضعته حليمة من بني سعد ورد في رواية عبد اللّه بن جعفر الطويلة. رواها كثير من العلماء وجَوّدَ الذهبي إسنادها وقد صح أن ثوبية مولاة أبي لهب أرضعته مع أمه بمكة

كما أرضعت عمه حمزة وغيره[2]. وما يروى من آيات عن وجوده مع حليمة من البركة في الرزق، و درور لبن الراحلة وقوتها، ونموه صلى اللّه عليه و آله و سلم السريع. ورد من حديث حليمة في حكايتها من رواية عن عبد اللّه بن جعفر كما تقدم، ومنها حديث شق الصدر.

حادثة شق الصدر

وهو ما رواه أنس أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة فقال : هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (أي مرضعته) فقالوا لها إن محمدا قد قتل،

---

(1) : رواه أحمد في المسند (4 / 127) وحسنه الهيثمي في (مجمع الزوائد) (222/8).
(2) : رواه البخاري في النكاح. ومسلم رقم 1449

فاستقبلوه وهو منتقع اللون)[1]، وهذه المرة الأولى، وكان عمره فيها أربع سنوات، وتكررت هذه الحادثة كما سيأتي وقد تجاوز الخمسين، حين أسري به.

وشق الصدر من الخوارق التي تقابل بالتسليم والإيمان و لا تؤوَّل، لصلاحية قدرة اللّه لها. وحكمة استرضاعه صلى اللّه عليه وآله وسلم في البادية : أن ينشأ بعيدا عن وخامة المدن، قوي الجسم، معتمدا على النفس، قويم اللسان، سليم اللغة والبيان، مما يفتقد غالبا في الحاضرة، وحكمة شق صدره صلى اللّه عليه وآله وسلم تطهيره من حظ الشيطان، وإعداده لتلقي الوحي، ولقاء الملائكة، ووقوع ذلك بهذا المظهر الحسي، ليكون أدعى للإيمان والتصديق.

حديث بَحِيرَا الراهب

ثم خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو يافع، ابن تسع سنين، مع عمه أبي طالب إلى الشام في رحلة تجارية وجرت له فيها غرائب (قال أبو موسى الأشعري: خرج أبو طالب إلى الشام، ومعه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب - يعني بَحيرَا - هبطوا فحلوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج ولا يلتفت إليهم، قال: فنزل وهم يحلون رحالهم. فجعل يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: هذا سيد العالمين، بعثه اللّه رحمة بالعالمين، فقال له أشياخ من قريش: وما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خر ساجدا، ولا يسجدون إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه، ثم رجع فصنع لهم طعاما، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل وغمامة تظله، فلما دنا من القوم قال: انظروا إليه عليه غمامة. فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء - ظل - شجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، قال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليه وهو ينشدهم ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فقتلوه، فالتفت فإذا هو بسبعة من الروم قد أقبلوا، قال: فاستقبلهم فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا لأن هذا النبي خارج في هذا الشهر فلم يبق طريق إلا بعث إليه ناس، وإنا أخبرنا خبره إلى طريقك هذه. قال: فهل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: لا إنما أخبرنا خبره إلى طريق هذه، قال: أفرأيتم أمرا أراد اللّه أن يقضيه، هل يستطيع أحد من الناس رده؟ فقالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه عنده، قال: فقال الراهب: أنشدكم اللّه أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب،

---

(1) : رواه مسلم رقم: 261 وفي الحادثة روايات مفصلة بعضها كما في دلائل النبوة للبيهقي (1/ 136).

فلم يزل يناشدهم حتى رده، وبعث معه أبو بكر بلالا، وزودهما الراهب من الكعك والزيت)[1]. فدلت هذه القصة على أن أهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بوصفه، وأعلام نبوته، وأن زمانه أظل كما قال اللّه تعالى: «(ولما جاءهم كتاب من عند اللّه مصدق لما معه وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة اللّه على الكافرين)» ﴿البقرة: 69﴾. وبشارات كتب أهل الكتاب به صلى اللّه عليه وآله وسلم كثيرة أفردت بالتأليف. وفي إنجيل (برنابا) أصول عجيبة منها، وهو أصيل وإن أنكرته الكنيسة، ومنها في سفر دانيال 31/2 - 45. من المعلوم أن سلمان الفارسي أسلم بسبب تتبع أخباره صلى اللّه عليه وآله وسلم ونعوته، وتعيين تاريخ ظهوره من أفواه الأحبار والرهبان كما حكى هو ذلك في خبر إسلامه الصحيح. وقد حاول أهل الكتاب قديما وحديثا طمس هذه الحقائق وإنكارها فلم يفلحوا، كما استغل بعض المستشرقين قصة بَحيرا السابقة، فصححوها ليبنوا عليها تعلم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم من أهل الكتاب القرآن والمعارف الدينية فيما زعموا، وهي محاولة مكشوفة وفرية مفضوحة.

رعيه صلى الله عليه وآله وسلم الغنم

ورعى صلى اللّه عليه وآله وسلم الغنم في صباه كما قال: (ما من نبي إلا وقد رعا الغنم، قالوا: وأنت يا رسول اللّه؟ قال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[2]. والحكمة في ذلك تربوية، وهي التدريب على الصبر في سياسة الناس، والحلم عنهم والشفقة لهم، ودفع ما يؤذيهم.

وفي ذكره ذلك بعد نبوته صلى اللّه عليه وآله وسلم تواضع وعبودية للّه، مع ما في ذلك من الاعتماد على النفس في كسب ما يعيل على المعيشة، خصوصا وهو على مائدة عمه أبي طالب الفقير المعيل[3]، واللّه تعالى لا يعجزه أن يكفيه أمر المعاش، بل ويغنيه بوسائل الرغد والرفاهية، ولكنه آثر لنبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم عيش المحترف الصابر، ليكون قدوة لغيره، ولأنه تعالى يحب العبد المحترف الذي يأكل من كد يده كما ورد[4]. ومن رعاية ربه له حفظه من عوائد الجاهلية، كقلة الاهتمام بالتعدي، فقد شارك صلى اللّه عليه وآله وسلم قومه في إعادة بناء الكعبة لما تهدمت

(1) : رواه الترمذي في الجامع (250/5) وغيره. وصححه الحافظ ابن حجر والألباني وغيرهما. إلا قوله فيه (وبعث معه أبو بكر بلالا) فإنه مدرج ومنكر لا يصح.
(2) : رواه البخاري في كتاب الإجارة رقم : 2262. و(قراريط) آسم مكان. أو فلوس.
(3) : المعيل : كثير العيال.
(4) : عند الطبراني في الكبير رقم: 13022 عن ابن عمر دون قوله : الذي يأكل... وسنده ضعيف. ومعناه صحيح في أحاديث.

بالسيل، فكان ينقل الحجارة معهم على عاتقه وعليه إزاره، فأمره عمه العباس أن يجعل إزاره على عاتقه ليقيه الحجارة، فلما فعل تعرى شيئا فسقط مغشيا عليه فما رئي بعد ذلك عريانا[1]، وخالف قومه من أهل الحرم المسلمين الحمس، الذين ابتدعوا الوقوف بالمزدلفة والإفاضة منها، فألهمه اللّه الوقوف بعرفات والإفاضة منها، وأنزل اللّه بعد ذلك: «(ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس)» ﴿سورة البقرة: 199﴾، وما استلم صلى اللّه عليه وآله وسلم صنما بيده، وكان ينهى عن ذلك في الجاهلية حيث كانوا يستلمون: إساف، ونائلة في طوافهم[2]. كما قيض اللّه له ملكين منعاه من حضور مشاهد المشركين[3]. وهذا من مظاهر عناية اللّه به، وحفظه وصيانته عن الوقوع فيما يستهجن، وتهيئته بالنبوة والرسالة.

حلف المطيبين وهو حلف الفضول

وشهد صلى اللّه عليه وآله وسلم حلف المطيبين: (بني هاشم وزهرة ومخزوم) غمسوا أيديهم في جفنة طيب فتعاهدوا وتعاقدوا، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تأكيدا على أنفسهم، فسموا المطيبين وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: (شهدت حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام وما أحب أن لي حمر النعم وأني أنكثه)[4]، وهو الحلف الذي تجدد باسم حلف الفضول. وكان شهوده له صلى اللّه عليه وآله وسلم لما تضمنه من مكارم الأخلاق، والتناصر على الحق كما قال: (شهدت في دار عبد اللّه بن جُدعان حلفا لو دعيت به في الإسلام لأجبته، تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها، وأن لا يحز ظالم مظلوما)[5] كان هذا قبل المبعث بعشرين سنة. وعند تجديد بناء الكعبة اختلفت قريش فيمن يضع الحجر الأسود مكانه حتى هموا بالمكروه، ثم اتفقوا على تحكيم أول داخل من باب بني شيبة، فدخل صلى اللّه عليه وآله وسلم. قال عبد اللّه بن السائب المخزومي - وكان حاضرا - لما رأت قريش النبي داخلا قالوا: أتاكم الأمين، ثم أمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بثوب فبسط، فأخذ الحجر ووضعه في وسطه، ثم أمرهم برفعه جميعا، ثم أخذه فوضعه مكانه[6].

---

(1) : رواه البخاري مع فتح الباري (3 / 24) ومسلم رقم : 340.
(2) : رواه البيهقي في دلائل النبوة (2 / 34).
(3) : رواه البزار كما في كشف الأستار رقم 2403 وابن حبان كما في الإحسان رقم : 6239 وغيرهما وحسنه البوصيري وابن حجر.
(4) : رواه أحمد في المسند (3 / 121) ط شاكر.
(5) : رواه أحمد في المسند (1 / 190) باسم حلف المطيبين. والبيهقي في السنن الكبرى (6 / 367) وابن حبان كما في الموارد رقم: 2062. وليس فيه قوله: تحالفوا أن ترد الفضول... فكأنه مدرج.
(6) : رواه أحمد في المسند (3 / 425) ورواه الطبراني في الأوسط قال الهيثمي في المجمع (8 / 229) رجاله رجال الصحيح غير رجلين... وكلاهما ثقة. ورواه الحاكم في المستدرك رقم: 1637 وصححه على شرط مسلم وسكت عنه الذهبي.

زواجه بخديجة

كانت السيدة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب امرأة كاملة عقلا ونسبا وحسبا ومالا، مرغوبا فيها، وبلغها عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من الصدق والأمانة ما جعلها ترغب في الزواج منه، وكانت هي أول زوج له، وكانت قد تزوجت قبله عتيق بن عائد المخزومي، وأنجبت منه بنتا، وبعده تزوجت أبا هالة هند بن النباش التميمي وأنجبت منه ابنها هندا وبنتا. ومات أبو هالة في الجاهلية[1]، وكان سنه صلى اللّه عليه وآله وسلم عند ذلك خمسا وعشرين سنة. وتولى عقد الزواج أبوها خويلد وهو سكران[2]، وماتت رضي اللّه عنها عن خمس وستين سنة وسكن صلى اللّه عليه وآله وسلم بيتها الذي تزوجها فيه، وفيه ولدت جميع أولادها منه، وفيه توفيت ولم يزل صلى اللّه عليه وآله وسلم بهذا البيت إلى أن غادره في الهجرة، فأخذه ابن عمه عقيل بن أبي طالب فيما أخذ، كما يشير إليه حديث: (وهل ترك لنا عقيل من دار؟)[3] وأولاده صلى اللّه عليه وآله وسلم كلهم منها ما عدا إبراهيم فأمه مارية القطبية.

وأصح ما قيل في أولاده صلى اللّه عليه وآله وسلم: أنهم: القاسم -وبه كان يكنى-، وبناته زينب، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم ولده عبد اللّه، وقد ولد بعد المبعث، وكان يلقب: الطاهر والطيب، والأبناء ماتوا كلهم صغارا، أما البنات: فأدركن البعثة وأسلمن وهاجرن معه صلى اللّه عليه وآله وسلم[4]، ويستفاد من قصة زواجه صلى اللّه عليه وآله وسلم بخديجة: أن لا عيب في رغبة المرأة الصالحة في الزواج من رجل صالح بما ترجوه من وراءه من خير، كما يستفاد منها أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم لم يكن يتوق من زواجه منها إلى المتعة الجسدية، بل إنما ذلك لشرفها ونبلها، وكانت تلقب الحبيبة الطاهرة ويتجلى هذا في اقتصارة صلى اللّه عليه وآله وسلم عليها إلى أن توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات وقبل حدوث الإسراء والمعراج، وكان عمره صلى اللّه عليه وآله وسلم يناهز الخمسين سنة وقد تخطى فترة الشباب والرغبة في النساء.

بناء الكعبة

وبناء الكعبة كان بوحي من اللّه تعالى إلى إبراهيم عليه السلام:

---

(1) : صحيح السيرة النبوية لابن طرهوني (1 /215) وفتح الباري لابن حجر (14/ 287)
(2) : رواه أحمد في المسند (1 /312) والطبراني في الكبير رقم 12838 قال الهيثمي في المجمع (9 /220) : رجالهما رجال الصحيح.
(3) : رواه مسلم رقم 984. والبخاري 4 /86 وغيرهما.
(4) : زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم (1 / 103) ط. مؤسسة الرسالة، والفاكهي في أخبار مكة.

أن ابني لي بيتا في الأرض، فلم يدر أين، فأرشده الله بريح شديدة لها رأس تسمى السكينة، اتبعها إلى أن تطوفت تطوف الحية بموضع البناء، فبني به إبراهيم، إلى أن بلغ مكان الحجر، فقال لابنه إسماعيل: أبغني حجرا فأتاه به، فوجد الحجر الأسود قد ركب، فقال له ابنه: من أين لنا هذا؟ قال: جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتمه[1].

وقد انهدم البيت أولا فبنته العمالقة، وثانيا فبنته جرهم، وثالثا فبنته قريش ورسول الله شاب، ولما أرادوا البناء، روعتهم حية على بقية سوره، فلم يقدروا عليها، فتدرعوا إلى الله أن يرفع عنهم هذا البلاء، فأرسل الله طائرا فغرز مخالبه في قفا الحية، وانطلق بها يجرها حتى انتهى بها نحو أجياد (حي بمكة مازال يسمى كذلك) فتمكنت قريش من الهدم والبناء، ولما أرادوا وضع الحجر مكانه، اختلفوا فألهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الحل الحكيم الذي تقدم ذكره، ولولاه لسفكت الدماء وتفاقم الشر. وعند تمام البناء انكسرت سفينة رومية قرب (جُدة)، فعلمت بذلك قريش وخرجوا لأخذ خشبها، فوجدوا روميا نجارا ثمة، فأخذوا الخشب بإذنه فجاءوا به وبالرومي فبنى به عرش الكعبة[2]، وكان عمره صلى الله عليه وآله وسلم خمسا وثلاثين سنة، ومشاركته صلى الله عليه وآله وسلم في مثل هذه الأمور، أكسبته خبرة في التعامل، وثقة من الناس بعقله وحكمته.

من إرهاصات النبوة

وكان من إرهاصات النبوة عند أهل الكتاب وكهنة العرب قبيل زمن البعثة زيادة على ما سبق : أن حرصت السماء عن استراق السمع من الجن ليخبروا الكهان بالغيب كما قال تعالى: «(وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا)» ﴿الجن 8﴾، وقال سواد بن قارب - وكان كاهنا فأسلم بسبب هذا - إن الشياطين قد سكتت ذليلة مغلوبة قبيل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم[3]، وأخبر يهود بقرب مبعثه في أخبار وقصص كثيرة وآمن بعضهم وقد وقد مر بعض ذلك[4] وفي قصة سلمان الفارسي وما تضمنته من أخبار الرهبان وإسلام الحبر اليهودي زيد بن سَعِنة وقوله: (إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفتها في وجه محمد حين

---

(1) : دلائل النبوة للبيهقي 385، والطبري في التفسير 70/3 والحاكم في المستدرك 3110 وصححه وسكت عنه الذهبي.
(2) : رواه عبد الرزاق في المصنف (5 /102).
(3) : رواه البخاري في صحيحه (15 /22) مع الفتح
(4) : مرويات يهود المدينة لأكرم السندي بواسطة السيرة النبوية لمهد رزق الله ص142.

نظرت إليه إلا اثنين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلما) فخالط الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى تأكد من هاتين الخصلتين وأسلم[1].

بدء الوحي

ولما كان عمره صلى اللّه عليه وآله وسلم أربعين سنة، حببت إليه الخلوة للتحنث (وهو التعبد) وكانت قريش تتحنث في الجاهلية شهرا في كل سنة[2]، فانزوى صلى اللّه عليه وآله وسلم بنفسه في غار حراء بجبل النور بمكة يتعبد متأملا ذاكرا على سنن إبراهيم عليه السلام. قالت عائشة رضي اللّه عنها: إن أول ما بدأ به رسول اللّه من الوحي: الرؤية الصادقة في النوم، فكان ما يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء يتحنث - يتعبد - فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود بذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود بمثلها، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء[3]، فشق صدره صلى اللّه عليه وآله وسلم للمرة الثانية ببطحاء مكة، وأخرج منه حظ الشيطان وملئ إيمانا وسكينة وخيط وكأنه يعاين الأمر معاينة، ولما أخبر زوجه خديجة بذلك قالت له: هذا واللّه خير فأبشر[4]، وقال لها مرة: إني أرى ضوءا وأسمع صوتا وإني أخشى أن يكون بي جَنَن، قالت: لم يكن اللّه ليفعل ذلك بك يا ابن عبد اللّه.

وفي يوم الإثنين في رمضان في سن الأربعين لميلاده، فجأه أمين الوحي جبريل عليه السلام لأول مرة فقال له: إقرأ فأجابه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما أنا بقارئ، قال فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني الثانية فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: إقرأ، فقلت ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: «(إقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم)» ﴿العلق: 1﴾ قالت عائشة فرجع بها ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني، حتى ذهب عنه الروع فقال: ياخديجة ما لي، وأخبرها الخبر، وقال: قد خشيت على نفسي، فقالت له: كلا فواللّه لا يخزيك، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتعين على نوائب الحق، ثم انطلقت به خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل

---

(1) : رواه ابن حبان، موارد الظمآن ص 516 والطبراني في الكبير، قال في المجمع (8/ 220) رجاله ثقات.

(2) : رواه ابن إسحاق بسند حسن 37.

(3) : رواه البخاري - باب بدء الوحي - ومسلم رقم 160.

(4) : رواه البزار في المسند والبيهقي في الدلائل دقم: 450 وابن عساكر. وهو حسن.

بن أسد بن عبد العزى، وكان امرؤ تنصر في الجاهلية،وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت: اسمع من ابن أخيك. فقال: يا ابن أخي ما ترى؟ فأخبره فقال ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى، يا ليتني فيها جذعا أكون حيا حتى يخرجك قومك، قال: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت أحد بما جئت به إلا عودي وأوذي وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ثم لم يلبث ورقة أن توفي[1]. وسبق هذا رؤيا منام لمجيء جبريل إليه بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ إلخ. وكانت الرؤيا (وهي جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة) توطئة وتيسيرا ورفقا به، وتهيئة لاستقبال الملك يقظة. وأمر النبوة عظيم وعبؤها ثقيل، والبشر ضعيف. وتقدم الإرهاصات والآيات يشير إلى اختيار اللّهِ لرسوله لها. وتقديمه على الحنفيين الذين كانوا منهم من يَتَطلّع إليها وموقف خديجة رضي اللّه عنها يدل على فضلها، وكمال عقلها، وثباتها، وتصرفها، كما دل كلام ورقة على علمه وإيمانه بالحق لما رأى تباشيره، حتى تمنى أن يدرك ظهوره، فينصره نصرا مؤزرا. والقصة تدل على أن ظاهرة الوحي شيء واقعي خارجي ملموس الأثر، محقق الحدوث، ولم يكن أمرا ذاتيا نفسيا، يرجع إلى الفكر والتأمل المفضي إلى العقيدة، كما يزعم المستشرقون، وخوفه صلى اللّه عليه وآله وسلم مما رأى يدل على عدم التوقع وصدمة الفجأة لا على استمرار تصور سابق وتطلع لتحقيق أمل دفين. وقد خفف من وطأة الصدمة موقف خديجة الرائع وبشرى ورقة العالم له بأنه الرسول المنتظر وأن ما رآه هو الوحي الإلهي و(اللّه أعلم حيث يجعل رسالته) ﴿الأنعام: 124﴾. ثم انقطع الوحي بعد هذا فترة غير محددة، لم يصح في تحديدها شيء إلا أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم استوحش من انقطاعه، حتى قيل: إنه كان يحاول الانتحار بالتردي من الجبال، وهو قول ضعيف وإن رواه البخاري، لأنه من بلاغات الزهري[2]، وبعد فترة الانقطاع، عاودة الوحي، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني حراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه فرجعت فقلت: زملوني زملوني، فأنزل اللّه عز وجل: «(يا أيها المدثر قم فأنذر)» إلى قوله «(والرجز فاهجر)» ﴿المدثر 1... 5﴾ فحمي الوحي وتتابع[3]. ولعل الحكمة في هذا الانقطاع تشويق النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الوحي بعد

---

(1) : رواه البخاري في باب بدء الوحي رقم: 1، ومسلم في كتاب الإيمان رقم 160 وغيرهما عن عائشة.
(2) : دفاع عن الحديث النبوي. للألباني 41
(3) : رواه البخاري، باب بدء الوحي رقم: 3

أن عرف أنه الحق، وأنه بدء النبوة، ولتتأكد حقيقة أن الوحي شيء منفصل غير ذاتي وأنه اتصال خارجي.

مراتب الوحي

وله مراتب سبعة. أولها: الرؤية الصادقة كما تقدم، وثانيها: الإلقاء في الرّوع وهو النفس كما قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: (إن روح القدس نفث في روعي: إنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها، فاتقوا اللّه وأجملوا في الطلب)[1]، وثالثهما: تمثل الملك له رجلا يكلمه حتى يعي ما يقول كما سبق، وكما في حديث (هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم)[2]، وعلى هذه الصورة كان الصحابة يرونه أحيانا، رابعها: أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، فيشتد عليه حتى يتفصد جبينه عرقا في البرد القارس[3]، ويثقل وزنه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى تبرك راحلته إلى الأرض، خامسها: رؤية الملك على صورته التي خلق عليها فيوحي إليه ما شاء اللّه، وقع له هذا مرتين كما في سورة النجم. سادسها: ما أوحاه اللّه إليه ليلة المعراج وهو فوق السماوات من فرض الصلاة والمراجعة فيه. وسابعها: وهي كسابقتها في تكليمه مباشرة بلا واسطة كما وقع لموسى عليه السلام في الطور، وهي ثابتة له صلى اللّه عليه وآله وسلم في المعراج[4].

مراتب الدعوة وأطوارها

وبعد هذا أخذ صلى اللّه عليه وآله وسلم يدعو إلى اللّه كما أمره اللّه، وللدعوة مراتب خمس: النبوة، وإنذار العشيرة الأقربين، وإنذار العرب الذين ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة، وإنذار جميع من بلغته الدعوة من الإنس والجن إلي آخر الدهر[5].

كما مرت الدعوة خلال حياته صلى اللّه عليه وآله وسلم بأطوار أربعة: الأول: الدعوة سرا دامت ثلاث سنوات[6]. الثاني: الجهر بالدعوة دون قتال، ودام هذا الطور إلى الهجرة. ثم الجهر بالدعوة مع رد عدوان المبتدئين له ودام هذا الوضع إلى صلح الحديبية. والطور الأخير: الجهر بالدعوة مع الجهاد في سبيل اللّه، وهذا ماض إلى يوم القيامة. وليس على الدعاة المسلمين مراعاة هذه الأطوار، لاختلاف الأحوال، وإنما عليهم فقه الواقع، ومراعاة الظروف، فيجهرون حيث

---

(1) : رواه القضاعي في مسند الشهاب رقم 1151 - 1152 وبنحوه الحاكم في المستدرك (2/ 4) والبيهقي (5/ 264) وغيرهم من طرق عدة يقوي بعضها بعضا، ولذلك صححه ابن القيم في الزاد (1/ 79).

(2) : رواه البخاري في العتق وغيره رقم: 48، ومسلم في الإيمان رقم: 10 وغيرهما، وهو حديث شهير.

(3) : رواه البخاري في بدء الوحي رقم: 2. ومسلم في الفضائل رقم: 4303.

(4) : انظر لهذه المراتب وأدلتها: زاد المعاد (1/ 79) ط. الرسالة

(5) : زاد المعاد (1/ 86)

(6) : صحيح مسلم رقم: 832 وسيرة ابن هشام (1/ 325)

يجب الجهر، ويأمنون على سير الدعوة ويسرون حيث يجب السر خوفا على النفس، وحفاظا على كرامة الحق والدعوة إليه.
امتثل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أمر ربه بالقيام بالدعوة، ومجافاة الدثار والراحة «(يا أيها المدثر قم فأنذر، وربك فكبر، وثيابك فطهر، والرجز فاهجر، ولا تمنن تستكثر، ولربك فاصبر)» ﴿المدثر: 1 - 6﴾ فأشار في هذه الآيات إلى أن الأمر جد كله، لأنه دعوة إلى توحيد اللّه الكبير المتعالي، وأنه يجب أن يكون القدوة في البدء بالتطهر والتزكية الظاهرة والباطنة، وأن يعلن هجر الشرك والبراءة منه ومن أهله، لأن هذا مقتضى التوحيد الحق، وأن يكون متحليا بالأخلاق الكريمة، والتعفف، والزهد فيما في أيدي الناس، ولتكون الدعوة خالصة للّه وحده. وأن يتحلى بالصبر الجميل، لتوقف هذا كله عليه.

السابقون إلى الإسلام

وفي الطور السري تم إسلام خديجة رضي اللّه عنها، وهي أول من آمن باللّه ورسوله بعد البعثة، وقد سبقها ورقة الذي ورد ما يدل على اعتبار إيمانه، فقد قال[1] صلى اللّه عليه وآله وسلم عنه: (يبعث يوم القيامة أمة واحدة) وقال[2] صلى اللّه عليه وآله وسلم: (لا تسبوا ورقة، فإني رأيت له جنة أو جنتين) والحديثان جيدان، وتقدمت الإشارة إلى بعض مواقف السيدة خديجة في تشجيع الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وتأييده، فلهذا كانت أول مبشر بالجنة في الإسلام. قال[3] صلى اللّه عليه وآله وسلم: (أمرت أن أبشر خديجة ببيت من قصب، لا صخب فيه ولا نصب) وفضائلها رضي اللّه عنها جمة. ثم أسلم من الصبيان علي بن أبي طالب، وكان ابن عشر سنين في حجره صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم مولاه زيد بن حارثة الذي جاء أبوه أو أخوه جبلة يطلبه، فخيره النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بين الذهاب إلى قومه أو الإقامة معه، فقال: بل أقيم عندك[4] وكان يدعى زيد بن محمد، حتى أبطل اللّه عادة التبني الجاهلي بقوله تعالى: «(ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند اللّه)» ﴿الأحزاب. آية: 5﴾ ثم أبو بكر الصديق واسمه عتيق، وقد قال[5] صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمر: (إن اللّه بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق إلخ) وقال[6] رضي اللّه عنه

---

(1) : رواه أحمد في المسند (باب 189 - 190) والطبراني في الكبير قال الهيثمي في المجمع (9 /692) ط. دار الفكر: رجاله رجال الصحيح.
(2) : رواه الحاكم في المستدرك (2 /609) وصححه على شرط الشيخين وسكت عنه الذهبي، وجود إسناده ابن كثير في السيرة. وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم 405.
(3) : رواه البخاري (الفتح 14 /286) ومسلم رقم 2433.
(4) : رواه الترمذي في الجامع رقم: 4085.
(5) : رواه االبخاري رقم: 3661 وغيره.
(6) : رواه الترمذي (3 /201).

عندما اختير للخلافة: ألست أحق الناس بها، ألست أول من أسلم. وقد قام الصديق رضي الله عنه بنشاط كثيف في الدعوة، كان من ثماره إسلام كثير من أصدقائه وأقاربه ومواليه كعثمان، والزبير، وطلحة، وابن عوف، وابن مظعون، وأبي عبيدة. وبفضل هؤلاء جميعا بدأ الإسلام في الانتشار بمكة وخارجها رغم التكتم. وفي فترة قصيرة بلغ عدد السابقين إلى الإسلام أكثر من خمسين[1]: ثلاثة وستون منهم كانوا من خيرة قومهم، بل إن ثلاثة عشر منهم كانوا فقط كِانوا من الموالي والخدم والمستضعفين[2]. وفي هذا الطور اشتد كَلَب المشركين، ووثبت كل قبيلة على من أسلم من أهلها يعذبونهم ويفتنوهم عن دينهم. وتواترت الأخبار والقصص في ذلك، ولم يكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يملك لهم حينئذ إلا الدعاء، ومما يستفاد من إلهام اللّه رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم اتباع أسلوب السر والكتمان في أول مراحل الدعوة: إرشاد الدعاة إلى اتخاذ الحيطة والحذر، وتحري الأسباب المشروعة لتحقيق الهدف، مع التوكل على اللّه تعالى والاعتماد عليه في ذلك.

الجهر بالدعوة

ثم جاء طور الجهر بالدعوة، فقد أنزل اللّه تعالى: على رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: «(وأنذر عشيرتك الأقربين)» ﴿الشعراء.آية 214﴾ فامتثل صلى اللّه عليه وآله وسلم أمر ربه، ودعا قومه ورغبهم وأنذرهم، فخصص وعمم، وناداهم بفروعهم: يا بني كعب بن لؤي، يا بني مرة بن كعب، يا بني عبد مناف... يا فاطمة بنت محمد، أنقذوا أنفسكم من النار، لا أغني عنكم من اللّه شيئا. وصعد مرة على الصفا فهتف: يا صباحاه، فقالوا : من هذا؟ فاجتمعوا إليه فقال: أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الوادي أكنتم مصدقين؟ فقالوا: ما جربنا عليك كذبا، فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم، قال أبو لهب: تبا لك، ما جمعتنا إلا لهذا، ثم قام، فنزلت «(تبت يدا أبي لهب وتب)»[3].

وموقف أبي لهب هذا يعكس موقف قريش خاصة، والعرب عامة من الدعوة يومئذ، ويرد على من زعم أن دعوة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كانت تهدف إلى إحياء القومية، وبالتالي تحقيق آمال العرب وطموحهم إلى السيادة والمجد. كما يستفاد من هذا الموقف المتلكئ بل والمعادي: شدة تأثير التقاليد والعادات الموروثة في الحيلولة دون الدخول في الإسلام، وسلامة التفكير الصحيح في دعوته. وفي تكليف الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم البدء بعشيرته

---

(1) : عيون الأثر لابن سيد الناس 91/1، وجوامع السيرة لابن حزم 45.
(2) : معين السيرة للشامي
(3) : رواه البخاري رقم: 3527 وسلم رقم: 206 وغيرهما

الأقربين في الدعوة، إشارة إلى حتمية البداءة بالأهل والعشيرة قبل الأجانب، لما في ذلك من الأثر العظيم في إنجاح الدعوة وسرعة انتشارها والإيمان بها.

ولما أنزل اللّه على رسوله بعد ذلك قوله تعالى «(فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين)» ﴿سورة الحجر آية: 94﴾ شمر عن ساعده الجد في الدعوة. معلنا بعيب آلهة المشركين، وتسفيهه عقول من يعبدهم، وعيب أحلامهم ومبينا حقائق الإسلام، وداحضا أباطيل الشرك،فرأى قومه أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم لم يبق كسلفه من الحنفاء كورقة وزيد بن عمرو بن نفيل وابن صيفي في الاقتصار على نبذ الأصنام والتفكير في المعاد، بل تعداهم إلى الهجوم العلني، والهجاء الفاضح، وأنفوا واستكبروا عن قبول الحق، ولم يرضوا أن تحط أقدارهم وتسفه أحلامهم، وتهدد مصالحهم، وهم السادة المتبعون.

أساليب مقاومة الدعوة

اتخذ المشركون أساليب في مقاومة الدعوة والصد عنها، منها: أنهم شكوه إلى عمه أبي طالب، فأرسل له ابنه عقيلا، فلما حضر قال له: إن بني عمك هؤلاء، زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم، فانته عن أذاهم، فحلق صلى اللّه عليه وآله وسلم ببصره في السماء وقال: أترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم، قال: فما أنا بأقدر على أن أدع ذلك منكم على أن تستشعلوا منها شعلة، فقال أبو طالب: واللّه ما كذبنا يا ابن أخي فارجعوا[1]. وهناك روايات في اتصال المشركين بأبي طالب، وتهديدهم له ومراجعته النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وفي إحداها ما اشتهر من قوله: (يا عم واللّه لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره اللّه أو أهلك فيه ما تركته)، وهي روايات ضعيفة، والرواية المذكورة آنفا تشهد لهذه الأخيرة شهادة قاصرة، وصلابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في موقفه هذا نابعة من إخلاصه في امتثال أمر ربه بالصدع بالدعوة، وعدم المبالاة بمن يقف في طريقها. وهي من عجيب صنع اللّه في أمر عمه أبي طالب: أنه أمال قلبه إليه ميلا طبيعيا دون الإيمان به، حتى يحول بينه وبين أذى قومه، ويحميه منهم ما استطاع، ولو أن أبا طالب أسلم سقطت هيبته وتجرأوا عليه، واشتد الأذى عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولذلك جوزي أبو طالب بتخفيف العذاب عنه في النار، فسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم هل نفعت أبا طالب بشيء، فإنه كان يحوطك ويغضب

---

(1) : رواه ابن إسحاق في السيرة 51 والبخاري في التاريخ الكبير (4 /5141) وأبو يعلى في المسند (12/ 176) بإسناد صحيح والطبراني في الكبير وقم: 13946 والأوسط رقم: 8791 والحاكم في المستدرك (3/ 577).

لك؟ قال[1]: (نعم، هو في ضحضاح من النار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل منها) بينما صلي النار عمه الآخر أبو لهب، وامرأته حمالة الحطب، وأنزل اللّه فيهما سورة تتلى إلى يوم القيامة[2]. ومن أساليب التنفير التي سلكها المشركون: رميه صلى اللّه عليه وآله وسلم بالجنون، والسحر، والكذب، ورواية الأساطير، كما قال اللّه تعالى: «(ويقولون إنه مجنون)» ﴿القلم آية: 51﴾، «(وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا)» ﴿الفرقان آية: 8﴾، «(وقال الكافرون هذا ساحر كذاب)» ﴿ص آية: 4﴾، «(وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا)» ﴿الفرقان آية: 5﴾ وقالوا عن القرآن «(إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون)» ﴿الفرقان آية: 4﴾ وبذلوا جهدهم في السخرية، والغمز، واللمز، والاستهزاء، والضحك على المؤمنين، ورميهم بالضلال، كما قال تعالى:«(وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون)» ﴿المطففين آية: 32﴾ ويقولون «(أهؤلاء من اللّه عليهم من بيننا)» ﴿الأنعام آية: 53﴾ وقال أبو جهل لعنه اللّه عند سماعه القرآن مستهزئا: (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء وائتنا بعذاب أليم) فأنزل اللّه فيه «(وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم، وما كان اللّه ليعذبهم وأنت فيهم، وما كان اللّه معذبهم وهم يستغفرون، وما لهم أن لا يعذبهم اللّه وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ولكن أكثرهم لا يعلمون)» ﴿الأنفال آية: 32﴾ وقال تعالى عن غمزهم ولمزهم المؤمنين «(إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين)» ﴿المطففين آية: 29﴾. وطلع صلى اللّه عليه وآله وسلم ذات يوم على أشراف قريش وهم مجتمعون في الحجر يتذاكرون أمره وما جاءهم به، فلما مر بهم ليطوف بالبيتَ غمزوه بالقول ثلاث مرات، فقال لهم[3] (يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح) ففزعوا منه بما يعلمون من صدقه، ثم عادوا إلى الهمز واللمز والاستهزاء بعد ذلك فكان ذلك يغيضه صلى اللّه عليه وآله وسلم فسلاه ربه تعالى بقوله: «(ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون)» ﴿الأنعام آية: 10﴾. ومن مظاهر استعلائهم وسخريتهم بالمؤمنين المستضعفين كصهيب، وبلال، وخباب: أنهم لم يكونوا يرضون مجالستهم لأن

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3883 ومسلم رقم: 210.
(2) : هي سورة المسد.
(3) : رواه أحمد في المسند رقم: 7036 ط. شاكر وصحح إسناده، ورواه ابن إسحاق بسند حسن (ابن هشام 1 /358) وابن أبي شيبة في المصنف (14 / 297).

ذلك يجرئهم عليهم، وطلبوا منه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يطردهم، فهم بذلك طمعا في إسلامهم وإسلام قومهم، فأنزل اللّه تعالى: «(ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين)» ﴿الأنعام آية: 52﴾.

ومنها تعمدهم: الصخب، واللغو، والصياح، عند قراءة القرآن، حتى لا يسمعه أحد فيتأثر به، وفي ذلك أنزل اللّه تعالى: «(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)» ﴿فصلت آية: 26﴾.

ومنها: اقتراحهم المعجزات حسب هواهم، ودعواهم أنه يجب أن لا يكون الرسول بشرا، وطلبهم مشاهدة اللّه والملائكة، وتبديل القرآن على سبيل التعجيز، كما قال تعالى: «(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي باللّه والملائكة قبيلا أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نومن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا)» ﴿الإسراء آية: 90﴾ وقال تعالى: «(وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنزٌ أو تكون له جنة يأكل منها)» ﴿الفرقان آية: 7﴾، وقال تعالى: «(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله، قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلي، إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم)» ﴿يونس آية: 15﴾ وأخيرا أخبره اللّه تعالى أنهم لن يؤمنوا ولو أجابهم إلى اقتراحهم، وحقق مطالبهم، وتلك سنة أهل العناد والجحود قبلهم إلا من شاء اللّه فقال تعالى : «(وأقسموا باللّه جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليومننُ بها قل إنما الآيات عند اللّه وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يومنون)» ﴿الأنعام آية: 109﴾، وقال تعالى: «(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون)» ﴿الإسراء آية: 59﴾، وقال ابن عباس: سأل أهل مكة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزدرعوا، فأوحى إليه اللّه إن شئت أن تستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا هلكوا كما أهلكت من قبلهم من الأمم، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم لا، بل أستأني بهم فنزلت: «(وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون)» ﴿الإسراء آية: 59﴾.[1]

ومنها: أسلوب المساومة بأن يتنازل الرسول صلى اللّه عليه وسلم

---

(1) : رواه أحمد بسندين جيدين كما في فتح الرباني (20 /223).

عن بعض ما يدعو إليه، ويتركوا له بعض ما هم عليه، كما أشار إليه قوله تعالى: «(ودوا لو تدهن فيدهنون)» ﴿القلم آية: 8﴾ وفي هذا الأسلوب نزلت سورة (الكافرون): «(قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون)» الخ. وبعدما أسلم حمزة وعمر رضي اللّه عنهما، وفشا أمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في القبائل، ومرض أبو طالب، قالوا لبعضهم: انطلقوا إلي أبي طالب، ليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منا، فإنا واللّه ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، وجاء وفدهم إليه فدعاه وقال له: يا ابن أخي هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا إليك يعطوك ويأخذوا منك، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: نعم كلمة واحدة يعطونيها، يملكون بها العرب، وتدين لهم بها العجم، ويؤدون إليهم بها الجزية، ففزعوا لكلمته ولقوله، وقالوا: كلمة واحدة؟ قال: نعم، فقال أبو جهل: نعم وأبيك، عشر كلمات، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: تقولون: لا إله إلا اللّه، و تخلعون ما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم، ثم قالوا: يا محمد تريد أن تجعل الآلهة إلاها واحدا، إن أمرك لعجب، ثم قالوا: ما هذا الرجل بمعطيكم شيئا مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دينكم حتى يحكم اللّه بينكم وبينه، ثم تفرقوا، فأنزل اللّه فيهم أول سورة ص.[1]

ومنها سب اللّه تعالى والقرآن والرسول إذا سمعوا قراءته في الصلاة وهو بمكة مختف، وفيها أنزل اللّه تعالى: «(ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا)».﴿الإسراء آية: 10﴾ ولما كان المسلمون يسبون الأصنام، أخذ المشركون يسبون اللّه تعالى: جهلاٍ، فأنزل اللّه «(ولا تسبوا الذين يدعون من دون اللّه فيسبوا اللّه عَدوا بغير علم)» ﴿الأنعام آية: 108﴾ فإن مصلحة سب آلهتكم تترتب عليها مفسدة أكبر منها، وهي سب اللّه تعالى.

ومن ذلك لجوءهم إلى اليهود ليعطوهم أسئلة تعجيزية للرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم كسؤالهم عن أهل الكهف، وذي القرنين، والروح، فأنزل اللّه تعالى جواب أسئلتهم، وأبطل كيدهم.

ومنها الترغيب والترهيب، فقد أرسلوا مرة عتبة بن ربيعة إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال له: يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب، وقد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورا لعلك تقبل بعضها: إن كنت إنما تريد بهذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، و إن كنت تريد شرفا سودناك علينا، فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيا تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ، وإن كان بك الباءة، زوجناك عشر نسوة

(1) : رواه أحمد في المسند (3 /314) ط. شاكر، وصححه.

تختار من أي أبيات قريش شئت، فلما فرغ تلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم صدر سورة (فصلت) إلى قوله تعالى: «(فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود)» ﴿فصلت آية: 13﴾ وعندها وضع عتبة يده على جنبه وقام، كأن الصواعق ستلاحقه، وعاد إلى قريش مخبرا إياهم بأن ما سمع ليس بشعر، ولا سحر، ولا كهانة، واقترح على قريش أن تدع محمدا وشأنه[1].

ومما يدخل في هذا الأسلوب: مجيء الوليد بن المغيرة إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم؟ قال: ليعطوك فإنك أتيت محمدا لتعرض لما قبله، ثم قال عن القرآن الذي سمعه من محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم: وواللّه إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته[2].

ومنها: الاعتداء بالضرب والقتل والأذى لما لم تفد جميع الأساليب في صد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأصحابه عن دينهم أخذت قريش في الإيذاء الجسدي، فقال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم - يعني يسجد ويصلي -؟ فقيل له: نعم فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، فما فجأه منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقا من النار، وهولا وأجنحة، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا، قال: فأنزل اللّه تعالى «(كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى، إنا إلى ربك الرجعى، أرايت الذي ينهى عبدا إذا صلى، أرايت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى، أرايت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن اللّه يرى، كلا لئن لم ينته لتسفعن بالناصية، ناصية كاذبة خاطئة فيلدع ناديه سندع الزبانية، كلا لا تطعه واسجد واقترب)»﴿العلق آية: 6 - 9﴾[3].

وقال عبد اللّه بن عمرو: رأيت عقبة بن أبي مُعيط جاء إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقا شديدا، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: (أتقتلون رجلا أن يقولوا ربي اللّه وقد جاءكم بالبينات من ربكم)[4]. وقال ابن مسعود: بينما رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم

(1) : رواه عبد بن حميد في المسند (منتخبه رقم: 1123) ورواه ابن إسحاق وابن أبي شيبة (440/8) والبيهقي (رقم: 508) وأبو نعيم (رقم: 177) كلاهما في الدلائل وحسنه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي ص 113.
(2) : رواه الحاكم في يالمستدرك (2/ 507) وصححه وسكت عنه الذهبي، ورواه البيهقي في الدلائل بأطول مما هنا، وصححه السيوطي في اللباب ص 338.
(3) : رواه مسلم رقم : 2797. ورواه البخاري مختصرا رقم: 4958.
(4) : رواه البخاري رقم: 3678 و 3856.

يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، وقد نحرت جَزور بالأمس، فقال أبو جهل: أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان، فيأخذه ويضعه في كتفي محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم: (عقبة بن أبي معيط) فأخذه، فلما سجد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وضعه بين كتفيه، قال: فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كان لي منعة طرحته عن ظهر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو ساجد ما رفع رأسه حتى انطلق إنسان، فأخبر فاطمة فجاءت - وهي جويرية - فطرحته عنه، ثم أقبلت عليهم تشتمهم، فلما قضى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم صلاته، رفع صوته ثم دعا عليهم، فواللّه الذي بعث محمدا بالحق، لقد رأيت الذين سمى صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب (قليب بدر)[1]. ولقي رسول صلى اللّه عليه وآله وسلم من قومه أنواعا من الأذى، وخصوصا بعد وفاة عمه أبي طالب. كما نال أصحابه نصيبهم من العدوان، حتى فكر أبو بكر رضي اللّه عنه في الهجرة إلى الحبشة فرارا بدينه[2]. وحاولوا قتل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه لولا أنقذه اللّه بالعاص بن وائل[3]. وجهر عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه بالقرآن - وكان أول من جهر به بمكة بعد الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم فضربه المشركون على وجهه حتى أثروا فيه، وكان الصحابة حذروه من ذلك فقالوا: هذا الذي خشينا عليك قال: ما كان أعداء اللّه أهون علي منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غدا، فقالوا: لا حسبك، قد أسمعتهم ما يكرهون[4]. ولم يقتصر المشركون على اضطهاد من بين أظهرهم من المسلمين، بل امتدت أيديهم إلى البعيدين، فهذا أبو ذر الغفاري لما سمع بخبر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قدم مكة، وأخذ يسأل عن رسول اللّه فضربه أهل مكة حتى غشي عليه وكاد يموت، فخلصه العباس رضي اللّه عنه منهم[5]، ولاحظوا من هاجر من المسلمين إلى الحبشة يريدون الحيلولة دون هجرتهم، ولما استقروا بالحبشة، أرسلوا في طلبهم وفدا للوقيعة بينهم وبين النجاشي، ولكنهم فشلوا رغم الرشى والحيل[6]، ثم التفتوا إلى الموالي الذين لا حامي لهم، فأنزلوا بهم أشد وأقسى أنواع العذاب في قصص تثير الأسى والألم. قال[7] ابن مسعود: أول من أظهر الإسلام سبعة: رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأبو بكر، وعمار، وأمه سمية،

---

(1) : رواه البخاري رقم: 2934 و مسلم رقم: 1794
(2) : رواه االبخاري رقم: 2297.
(3) : رواه ابن إسحاق بسند حسن
(4) : رواه ابن إسحاق عن مرسل عروة بن هشام بسند حسن (ابن هشام 1 /388).
(5) : رواه البخاري رقم: 3522.
(6) : القصة بتمامها في مغازي ابن إسحاق ص 213 (ابن هشام 1 /413).
(7) : رواه أحمد في المسند رقم: 3832 ط. شاكر وصححه كما صححه الذهبي في السيرة وغيره.

وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فمنعه الله بعمه، وأبو بكر منعه الله بقومه، وأما سائرهم، فأخذهم المشركون فألبسوهم أذرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم من أحد إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالا، فإنه هانت عليه نفسه في الله تعالى وهان على قومه، فأخذوه فأعطوه الولدان، فجعلوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أَحَد أحد، ومر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] بآل ياسر عمار وأبيه ياسر وأخيه عبد الله وأمه سمية بنت خباط ذات مرة وهم يعذبون على يد بني مخزوم برمضاء مكة، فقال لهم: أبشروا آل عمار، وآل ياسر، فإن موعدكم الجنة، واستشهدت سمية أول شهيد في الإسلام، طعنها أبو جعل بحربة في قُبُلها، ومات ياسر بالعذاب، وأجبروا عمار على التلفظَ بكلمة الكفَر، وفيه نزل قول الله تعالى «(من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)» ﴿النحل آية: 106﴾ وبلال بن رباح، وأمه حمامة، كان مولى لأمية بن خلف، وهو حبشي الجنس، كان مولاه يبالغ في تعذيبه، فلقي من ذلك ما لا يحتمل، ورءاه أبو بكر رضي الله عنه وهو في معاناته، فساوم سادته فاشتراه بخمس أوراق، وهو مدفون بالحجارة في الرمضاء، وأعتقه، فقال له بلال: إن كنت إنما اشتريتني لنفسك فامسكني، وإن كنت اشتريتني لله فدعني وعمل الله[2]، وخَبَّاب بن الأرتّ سبي في الجاهلية فبيع بمكة، وكان حدادا يصنع السيوف والأسنة، أسلم قديما، وعندما عرف مواليه ذلك أذاقوه ألوانا من العذاب، ذكر رضي الله عنه أنهم أوقدوا له نارا ووضعوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَك (شحم) ظهره، وكشف عن ظهره فرأى عمر بن الخطاب أثر ذلك[3]، وذكر أيضا أنهم كانوا يضجعونه على الرضف (الحجارة المحماة) ولم ينالوا منه ما أرادوا، وعمل مرة سيفا للعاصي بن وائل السهمي، فجاءه يتقاضاه، فقال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد فأجابه: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم يحييك، فقال: إذا أماتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فسأقضيك، فأنزل الله فيه[4] (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا) ﴿مريم آية: 77﴾.

ولما تمادى البلاء بهؤلاء المستضعفين، واشتد العذاب، شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقالوا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدع لنا؟ فقال صلى الله عليه وآله

---

(1) : رواه الحاكم في المستدرك (3 /388) وصححه وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني في تخريج فقه السيرة للغزالي: 1070.
(2) : رواه البخاري رقم: 5537.
(3) : رواه ابن ماجة، مقدمة السنن رقم 153.
(4) : القصة رواها البخاري: 4733ومسلم رقم: 2395

وسلم: (كان الرجل فيمن قبلكم، يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار، فيوضع على رأسه فيشق باثنتين، وما يصده ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد مادون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون)[1]، وكان أبو بكر يشتري المسلمين من الموالي المعذبين فيعتقهم، منهم بلال، وأمه حمامة، وعامر بن فهيرة وأم عبيس، وزنيرة والنهدية وابنتها، وجارية بني عدي مولاة عمر، وكان يعذبها قبل أن يسلم. قال أبو قحافة لابنه أبي بكر: إني أراك تعتق رقابا ضعافا، فلو أعتقت رجالا جُلداً يمنعونك ويقومون دونك؟ فقال أبو بكر: يا أبت إنما أريد ما أريد بالله عز وجل، فأنزل الله تعالى فيه «(فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى، وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى، وما يغني عنه ماله إذا تردى، إن علينا للهدى، وإنا لنا للآخرة والأولى، فأنذرتك نارا تلظى، لا يصلاها إلا الأشقى، الذي كذب وتولى، وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى، وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ولسوف يرضى)» ﴿الليل آيات: 5 - 21﴾[2]. وأصيبت زنيرة ببصرها بعد عتقها فقالت قريش: ما أذهب بصرها إلا اللات والعزى، فقالت: كذبوا وبيت الله، ما تضران اللات والعزى ولا ينفعان، فرد الله بصرها[3].

هذا قليل من كثير مما ورد في السيرة من مواقف هؤلاء الأبرار، وصمودهم وصبرهم على البلاء في سبيل الله الذي هو سبيل النصر والظفر، والله تعالى قادر على نصرهم وحفظهم والدفاع عنهم، وهم حزبه المفلحون، وأنصار دينه السابقون، ولكنه اقتضت حكمته أن يسن في عباده قانون الامتحان والابتلاء والتكليف، ليتجلى للعيان من خلصت عبوديته، وصح إيمانه، فصمد في وجه الزعازع، لا تنال من عزيمته الفتن، ولا تخرق سياج صدره المحن، ممن ضعف يقينه وعزمه ونال منه اليأس، وقد قال تعالى «(أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله، ألا إن نصر الله قريب)» ﴿البقرة آية: 214﴾، وقد أباح الله ورسوله النطق بكلمة الكفر، واستعمال التقية عند الإكراه، فقال: «(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان، ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله، ولهم عذاب

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3612.

(2) : الأثر رواه الحاكم في المستدرك (2 /525) وصححه وسكت عنه الذهبي، ورواه ابن إسحاق وابن جرير والواحدي وغيرهم.

(3) : رواه ابن إسحاق موقوفا على عروة بسند حسن (ابن هشام 1/ 392) واعتمده الذهبي في السيرة.

عظيم)» ﴿النحل آية: 106﴾ وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمار: (إن عادوا فعد)[1] دفعا لعدوانهم، وإبقاءا لمهجته، ولكن الأفضل الثبات والصبر، كما حصل من بلال، وياسر، وسمية وغيرهم، كحبيب بن زيد الأنصاري الذي قال له مسيلمة الكذاب: أتشهد أن محمدا رسول اللّه؟ قال: نعم، قال: أتشهد أني رسول اللّه؟ قال: لا أسمع، فقطعه إربا إربا، وهو ثابت صامد رضي اللّه عنه[2].

هذه المواقف والأحداث الكثيرة المتلاحقة، كانت تقوم دلائل وشواهد على أن الدعوة الإسلامية لم تقم لتحقيق أهداف ذاتية، وأطماع دنيوية، أو رئاسة شخصية، وهي قد أبت هذه العروض والمساومات كلها، وإنما جاءت لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولهداية البشر إلى اللّه، وتخليصهم من عبودية غيره، ونير الأطماع، وعدوان الأتباع، وأرجاس الوثنية والكفر، وقد تحقق هذا كله بفضل اللّه تعالى.

المركز الأول للدعوة دار الأرقم بن أبي الأرقم

وفي السنة الخامسة من عمر الدعوة، أراد صلى اللّه عليه وآله وسلم اختيار مكان يجتمع فيه سرا لمن يسلم ليعلمهم دينهم وليبلغهم ما ينزل عليه من الوحي، فاختيرت دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي قرب الصفا، لصرف أنظار المشركين عن عامة من يرتادها سرا، لأن الأرقم كان صغير السن ومخزوميا، وهؤلاء كانوا أعداء بني هاشم، فيستبعد عادة أن يختفي فيها الرسول وأصحابه، وتتخذ مركزا للدعوة، لاسيما وهي قرب الحرم حيث يكثر الزحام والحركة، مع تحري السرية والكتمان في مثل هذه الأعمال يومئذ.

الهجرة الأولى إلى الحبشة

ولما تواصل اضطهاد المسلمين، الذي بدأ في السنة الرابعة، واشتد في السنة الخامسة، فكروا في الهجرة الأولى إلى الحبشة فرارا بدينهم، وتفاديا للفتنة فيه إلى حيث يأمنون، قالت أم سلمة رضي اللّه عنها : لما ضاقت علينا مكة،وأوذي أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم، وأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم في منعة من قومه وعمه لا يصل إليه كبير شيء مما يكره مما ينال الصحابة، فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إن لأرض الحبشة ملكا لا يظلم

---

(1) : رواه ابن جرير في التفسير (122/14) وغيره، واعتمده ابن كثير في تفسير الآية (605/4).
(2) : أورد قصته ابن عبد البر في الاستيعاب (95/1). وابن الأثير في أسد الغابة (235/1) وابن حجر في الإصابة (114/2) ونحوها.

عنده، فالحقوا ببلاده حتى يجعل اللّه لكم فرجا ومخرجا مما أنتم فيه، فخرجنا إليه، حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أمنا على ديننا، ولم نخش منه ظلما[1]. وفي تلك الأثناء نزلت سورتان على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم تتضمنان إشارات تبشر بالنجاح فيما عزم عليه المسلمون من الهجرة، بعد إرشاد النبي إياهم إليها، ففي سورة الزُّمَر يقول تعالى: «(للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة وأرض اللّه واسعة، إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب)» ﴿الزمر آية: 10﴾، وفي سورة الكهف يتحدث تعالى عن فتية المؤمنين الذين هاجروا من مواقع الكفر والفتنة فيقول: «(وإذِ اعزلتموهم وما يعبدون إلا اللّه فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكمَ من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا)» ﴿الكهف آية: 16﴾ وفي أواخر هذه السورة يقص تعالى قصة موسى والخضر عليهما السلام، وفي طواياها ما يطمئن عباده المؤمنين على مصيرهم، لأن الحق ينتصر في النهاية، والباطل لابد أن يندحر. وبعدها تأتي قصة ذي القرنين التي تتضمن: أن الأرض للّه يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين، وأنه سبحانه يقيض لعباده المستضعفين من يحميهم من أعدائهم، ويخلق لهم من الأسباب ما يكفل استعلاء الإيمان والحق، وانهزام الظلم والكفر.

وهكذا خرج المسلمون في رجب من السنة الخامسة للبعثة، متسللين إلى الشاطئ، منهم الراكب، والماشي، وكانوا بضعة عشر رجلا، وأربع نسوة أو خمس، وفي أسمائهم روايات ضعيفة. وهذه هي الهجرة الأولى، ولم يمكث المسلمون بالحبشة إلا أياما معدودة، حتى رجعوا لإشاعات بلغتهم عن إسلام قريش، وزعم تقرُّب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المشركين، بمدح أصنامهم عندما قرأ قوله تعالى: «(أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى)» ﴿النجم آية: 18 - 19﴾ فألقى الشيطان في هذا للمشركين: تلك هي الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لترجى والروايات الواردة في هذا كلها باطلة لا يصح منها شيء وخصوصا هذه الأخيرة المشهورة بقضية الغرانيق[2].

الهجرة الثانية إلى الحبشة

ولما وجد المسلمون الوضع مخالفا لما بلغهم، وان العدوان أشد مما مضى،أذن لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بالهجرة مرة ثانية،وكانوا هذه المرة نيفا وثمانين رجلا، وتسع عشرة

(1) : سيرة ابن هشام (1/ 413) وإسناده حسن.
(2) : ألف العلماء في نقد قصة الغرانيق تآليف أجلها: نصب المجانيق، لنسف قصة الغرانيق، لشيخنا الألباني، وأجمعها «دلائل التحقيق، لإبطال قصة الغرانيق» لتلميذه علي حسن الحلبي، وكلاهما مطبوع.

امرأة[1]. وقد أشرنا قبل إلى أن قريشا سعت سعيها لإعادتهم، وبعثت إلى النجاشي: عبد اللّه بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص ومعهما عمارة بن الوليد، ومعهم هدايا كثيرة إلى النجاشي وبطارقته، ومن أعجبها إليهم الأدم (الجلود) فكلموهم في تسليمهم إليهم، فأحضرهم النجاشي، وأطلعهم على الأمر، فتكلم جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وشرح للنجاشي الدعوة الإسلامية، وموقف قريش منها، فطلب منه هذا أن يملي عليه شيئا من تعاليم الدين، فقرأ عليه جعفر صدر سورة مريم «(كهيعص)» فبكى النجاشي وبطارقته حتى ابتلّت لحاهم، وكتبهم التي يحملونها، وقال للوفد: إن هذا والذي جاء به عيسى، يخرج من مشكاة واحدة، ثم قال لسفيري قريش: انطلقا، واللّه لا أسلمهم إليكم أبدا[2]. وكان النجاشي يعرف العربية لقضائه زمنا مملوكا بأرض العرب. إلى أن مرج أمر الحبشة فطلبوه، ورد اللّه عليه ملكه، وكذلك بطارقته بحكم مخالطتهم للعرب في التجارة وغير ذلك[3]، وراجع الوفد النجاشي محاولا إيقاع العداوة بينه وبين المسلمين بما ظنوه نافعا لهم، من اعتقاد المسلمين في عبودية المسيح للّه تعالى، فرد النجاشي بأن قولهم هو الحق، فسقط في يد الوفد وعاد أدراجه يجر أذيال الخيبة والفشل، ومكث المسلمون في ظل النجاشي ينعمون بالحرية والأمان، إلى أن عاد بعضهم إلى المدينة بعد الهجرة، وكانوا ثلاثة وثلاثين رجلا وثمان عشرة امرأة، والباقي مع جعفر بعد فتح خيبر في العام السابع للهجرة.

ويؤخذ من أحداث هاتين الهجرتين وما تم فيهما: مشروعية الهجرة من بلد الكفر إذا لم يستطع المؤمن فيه القيام بعبادة اللّه إلى حيث يأمن الفتنة. لأن الدين هو الأساس، وفي سبيل تحقيقه يهون كل شيء، كما يؤخذ منها: جواز الاحتماء بالكافر والمشرك إذا دعت الضرورة إلى ذلك، كما وقع لهؤلاء مع النجاشي النصراني قبل أن يسلم، وكما حصل للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مع عمه أبي طالب، والمطعم بن عدي الذي حماه عند عودته من الطائف، وقد صح إسلام النجاشي، واسمه (أَصْحَمة) ولما أعلن إسلامه ثار عليه قومه، فهيأ سفنا للمسلمين ليرجعوا فيها إذا حاربه قومه وهزموه، وكتب كتابا يشهد فيه بإسلامه، ولما مات نعاه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في اليوم الذي مات فيه، وصلى عليه صلاة الغائب، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لقد توفي اليوم رجل صالح من الحبش، فهلم فصلوا عليه[4]. وكان

---

(1) : مغازي ابن إسحاق ص 228 .

(2) : رواه أحمد بنحوه في المسند (6 /185) بسند حسن.

(3) : انظر ما كتب الدكتور المهدي رزق اللّه أحمد في كتابه (السيرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية) ص: 208 - 209 بالهامش.

(4) : رواه البخاري رقم: 32 ومسلم رقم: 952.

الناس يتحدثون أنه لازال يرى على قبره نور[1]، وهو النجاشي الذي كتب إليه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يدعوه إلى الإسلام، كما كتب إلى غيره، لأن المصادر الصحيحة لا تذكر سواه.

وفي خضم هذه الآلام، شاء اللّه تعالى أن يشد من عضد المسلمين ويعز دينه، بشرح صدر علمين من صناديد قريش للإسلام، وهما: حمزة بن عبد المطلب عم رسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وعمر بن الخطاب، فكان سبب إسلام الأول (حمزة)، أنه بلغه عند رجوعه من الصيد، أن أبا جهل تناول النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بسوء، وأقذع في ذلك، فلم يعرج على بيته حتى دخل على المشركين مجلسهم وضرب أبا جهل بالقوس على رأسه فشجه، وقال: أتشتمه وأنا على دينه؟[2] ديني ودين محمد واحد، قال ذلك حمية، ولكن اللّه أرادها بذرة إيمان سرعان ما أتت أكلها، وعلمت قريش عند ذلك أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عز بذلك وامتنع، فكفوا بعد ذلك عن بعض الأذى. كان ذلك في السنة السادسة للبعثة، وتمت النعمة بإسلام عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه استجابة لدعاء النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل، أو بعمر بن الخطاب[3]. وقد كان من ألد خصوم الإسلام، ولقي المسلمون منه شدة وعنتا لقوته وحدة طبعه، قال سعيد بن زيد زوج أخته: واللّه لقد رأيتُني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام قبل أن يسلم[4]، وعندما أراد مقلب القلوب سبحانه أن يجلو فطرته، ويزيل غشاوته، ويطهر قلبه، قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، فجاءه عمر وأخبره بإسلامه، فأسرع جميل إلى الكعبة ونادى بأعلا صوته: ألا إن عمر صَبَأ، وعمر خلفه يقول: كذب ولكني قد أسلمت، ودخل مع المشركين وحده في معركة حامية، حتى قيض اللّه له العاص بن وائل، فأنقذه وأجاره[5]. والقصة المشهورة في كتب السيرة عن اقتحامه بيت أخته وزوجها، فوجدهما يقرآن من سورة طه، فضربها فأدماها، ثم أراد رؤية الصحيفة فمنعته أخته حتى يغتسل، ثم أسلم، ورد جوار العاص السهمي إلخ لا تصح رغم شهرتها. وقال ابن مسعود: مازلنا أعزة منذ أسلم عمر بن الخطاب[6]، إن إسلامه كان فتحا، وإن هجرته كانت نصرا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشا حتى صلى

---

(1) : ابن إسحاق في المغازي بسند حسن.

(2) : رواه الطبراني في الكبير قال الهيثمي في المجمع (9 / 267) بإسنادين مرسلين رجال أحدهما رجال الصحيح، ورجال الآخر ثقات.

(3) : رواه أحمد في المسند (2 /95) والترمذي والحاكم وغيرهم، وصححه ابن حبان والذهبي.

(4) : رواه أحمد في فضائل الصحابة (1 / 278) وصحح المحقق إسناده.

(5) : فضائل الصحابة لأحمد (1 /278).

(6) : رواه البخاري رقم: 3684.

عند الكعبة وصلينا معه.

المقاطعة

إن قريشا ما لبثت بعد هذا أن أعلنت أسلوب المقاطعة العامة عندما لم تفد أساليب القمع والعذاب، فاجتمعوا وقرروا قتل الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب فأدخلوه صلى اللّه عليه وآله وسلم شعبهم (وهو الطريق في الجبل) والمراد حيهم ليمنعوه ممن أراده بسوء، فلما رأت قريش ذلك ائتمروا وكتبوا كتاب مقاطعة بني هاشم والمطلب: أن لا يعاملوهم، ولا يناكحوهم حتى يسلموا إليهم الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وعلقوه في جوف الكعبة، ودامت المقاطعة نحو ثلاث سنوات، حتى جهدوا ولم يكن يأتيهم شيء من الأقوات إلا سرا. ورغم هذا العنت والظلم الشديد كان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقوم بالدعوة إلى اللّه، يخرج في المواسم للقاء القادمين على مكة، وعرض الإسلام عليهم، واستمر الأمر إلى أن قام بعض المشركين في نقض الصحيفة، حمية وضيقا بها، لما تربطهم بالمسلمين من روابط الدم والرحم، وتفاصيل هذه المقاطعة، وما جرى خلالها، وأكل الأرضة للصحيفة ماعدا اسم اللّه، لا يصح منها شيء رغم الشهرة. وأصل الحديث صحيح[1]، ومعلوم أنه كان ابتلاء للرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمين فخرجوا منها أقوى إيمانا، وأصلب عودا، وأربط جأشا.

وفاة أبي طالب

وبعد الخروج من الشعب بقليل، سنة عشر من البعثة توفي أبو طالب، وبعده بأيام توفيت خديجة رضي اللّه عنها وكان لذلك وقع أليم في نفس رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بما كان يلقاه من الأول من حماية ونصرة ودفاع، ومن الثانية من رعاية وعطف وحنان وتشجيع، وقد تقدم بعض ذلك، وقد سمي هذا العام عام الحزن، ولم يثبت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم سماه بذلك، ومن عجائب المقدور: أن يموت أبو طالب مشركا تسليما لمقتضى قوله تعالى: «(إنك لا تهدي من أحببت ولكن اللّه يهدي من يشاء)» ﴿القصاص آية: 56﴾ وفي شأنه نزلت هذه الآية، فقد قال له صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو محتضر: قل: لا إله إلا اللّه، أشهد لك بها يوم القيامة، قال: لولا أن تعيرني قريش، يقولون: إنما حمله على ذلك الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل اللّه إنك لا تهدي...[2] وما ورد من أنه نطق بها عند موته لا يصح.

---

(1) : رواه البخاري رقم: 6764 ومسلم رقم: 1614.
(2) : رواه مسلم رقم: 25.

زواجه صلى اللّه عليه وآله وسلم بسودة

وفي شوال من السنة العاشرة للمبعث تزوج صلى اللّه عليه وآله وسلم سودة بنت زمعة رضي اللّه عنها بعد أن مات عنها زوجها السكران بن عمرو مسلما بمكة. وكانت من السابقات إلى الإسلام، فهاجرت وزوجها إلى الحبشة الهجرة الثانية، وقد فقدت عائلها وتعرضت لأذى قومها الذين أغضبتهم بإسلامها وهجرتها فرأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يأسو جراحها، ويلم شَعَثها بالزواج، فكانت ثانية أزواجه، وكانت امرأة جسيمة ثقيلة الحركة، قالت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مرة: صليت خلفك البارحة، فركعت بي حتى أمسكت بأنفي خشية أن يقطر الدم، فضحك صلى اللّه عليه وآله وسلم من قولها[1]، ولبدانتها أذن لها ولمن في حالها أن يدفعوا ليلة المزدلفة قبل الناس[2]، ولما كبرت وخافت أن يطلقها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وحرصت أن تحشر مع أزواجه سألته إمساكها ووهبت نوبتها لعائشة رضي اللّه عنهما وفي شأنها أنزل اللّه تعالى «(وإن امرأة خافت من بَعْلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصالحا بينهما صلحا والصلح خير)» ﴿النساءآية: 128﴾[3].

خروجه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الطائف

ولمواصلة الدعوة، وفي تلك الأيام الصعبة باشتداد أذى قريش له صلى اللّه عليه وآله وسلم وكثرة تعرضهم له خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الطائف (وهي تبعد عن مكة بأكثر من سبعين كيلا) لعرض الإسلام عليهم، والتماس النصرة من قبيلة ثقيف على قومه، فالتقى سادة ثقيف: عبد ياليل، ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير، وعرض عليهم الإسلام فلم يقبلوا، وسخروا منه، فطلب منهم كتمان الأمر خوف أذى سفهائهم فلم يفعلوا، وأغْرَوْهم به مع عبيدهم، فتبعوه يسبون ويصيحون، حتى اجتمع الناس، وألجاوه إلي حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة ينظران إليه، وقد رأيا ما لقي من الأذي، فلما اطمأن صلى اللّه عليه وآله وسلم دعا ربه قائلا:[4] (اللّهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي إلى من تكلني،؟ إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي

---

(1) : رواه ابن سعد في الطبقات (ترجمتها) (54/8) من مرسل صحيح.
(2) : رواه البخاري في كتاب الحج (رقم: 1568).
(3) : قصة سودة مستوفاة في ترجمتها من (الإصابة 4 /338).
(4) : ابن هشام في السيرة (2 /70) من مرسل حسن. والطبراني في الكبير مختصرا مع الدعاء بسند ضعيف لعنعنة ابن إسحاق، وسائر رجالهم ثقات كما في المجمع (6 /35).

غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك). ولما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، رثيا له فأرسل إليه عنبا مع غلام لهما نصراني يدعى: عدّاسا، فلما أراد أن يأكل منه قال: بسم اللّه، فعجب عداس لقوله وسأله، فأخبره بأنه نبي، فأكب يقبل رأسه، وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عنه قائلين: لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه. ورجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى مكة مهموما مغموما في حالة أفصح عنها عندما سألته عائشة رضي اللّه عنها يوما عن أشد يوم مر به كان أشد من يوم أحد، فأجابها صلى اللّه عليه وآله وسلم: لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل ابن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا بجبريل، فناداني فقال: إن اللّه قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمر بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال، يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين (هما جبلا مكة: أبو قبيس، وقعيقعان)، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: بل أرجوا أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه وحده، ولا يشرك به شيئا[1]، وقبل أن يصل إلى مكة، وفي وادي نخلة، أقام صلى اللّه عليه وآله وسلم أياما في أثنائها أتاه نفر من الجن فاستمعوا إلى القرآن وأسلموا، فأنزل اللّه في هذه الحادثة: «(وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا، فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين، قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعي اللّه وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم)» ﴿الأحقاف آية: 29 - 31﴾ وقوله: «(قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا)» ﴿الجن آية: 1 - 15﴾ الآيات. وكان في هذين الحدثين: عرض ملك الجبال عليه إهلاك قومه، وإسلام وفد من الجن على يديه عند رجوعه من الطائف: ما ربط جأشه، وشد عضده، وزاده قوة ونشاطا في الدعوة إلى اللّه، والاستماتة في سبيلها. ودخل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مكة في جوار المطعم بن عدي وهو مشرك، علي عادة العرب في الجوار، عناية من اللّه به، فحفظ صلى اللّه عليه وآله وسلم هذه اليد للمطعم، مع ما تقدم

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3231 ومسلم رقم: 1795.

له من قيامه مع غيره في نقض صحيفة المقاطعة، فقال لما كلم في إطلاق أسرى بدر: (لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هذه النَّتنَى لتركتهم له)[1]، وقال حسان بن ثابت يرثي المطعم ويشير إلى هذا الجوار: (الطويل)

أجرت رسول اللّه منهم فأصبحوا
عبيدك ما لَبَّى مُهِل وأَحرما
فلو سُئلت عنه مَعَدٌّ بأسرها
وقَحطانُ، أو باقي بقيةِ جُرهُما
لقالوا: هو الموفي بخَفرة جاره
وذمته يوما إذا ما تذمما[2]

ولم يحُل هذا الجوار دون قيام الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بواجبه، وكذلك أصحابه، فهذا أبو بكر رضي اللّه عنه لما أراد الهجرة إلى الحبشة وخرج، لقيه ابن الدَّغنة سيد القارّضة ببرك الغماد، فرده إلى مكة في جواره قائلا: مثلك يا أبا بكر لا يخرُج ولاَ يُخرج، فاشترطت عليه قريش أن يعبد اللّه داخل بيته، فقبل أبوبكر، واتخذ مسجدا في فناء داره، فكان إذا صلى وقرأ القرآن، وقف نساء المشركين وأبناَؤهم يستمعون معجبين، لأنه كان يقرأ ويبكي، فخافت قريش إيمانَ الناس بالقرآن، فطلبوا إلى ابن الدغنة أن يأمر أبا بكر أن يصلي في كسر داره، حيث لا يسمعه أحد، فكلمه ابن الدغنة فأبى أبو بكر فقَال: إما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد ذمتي .. فقال أبو بكر: فإني أرد عليك جِوارَك، وأرضى بجوار اللّه ورسوله[3].

وما أشبه موقف أبي بكر هذا بموقف صديقه وخليفته من بعده عمر رضي اللّه عنه عندما رد جوار خاله العاص السهمي، رغبة عنه إلى جوار اللّه ورسوله. وفيما جرى لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في خُروجه إلى الطائف، ودخوله مكة، وما تخلل ذلك من أحداث: عبر وأحكام وعظات، منها: الرغبة في إسلام كبراء القوم وزعمائهم، لأن في اهتداء هؤلاء هداية لقومهم وأتباعهم، ومنها: صبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وتحمله الأذى والمشاق، وامتناعه من الدعاء على قومه، ودعاؤه لهم، ورجاؤه أن يخرج اللّه من أصلابهم من يعبد اللّه. وقد استجاب اللّه دعاءه، فقدم عليه وفد ثقيف مسلماً بعد حصار الطائف ورجوعه إلى المدينة، ومنها: استفادة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأصحابه من عادة الجوار، التي تشبه ما يسمى الآن حق اللجوء السياسي، في حرية الحركة والاتصال بالناس، ومنها: وجود الجن وإن منهم المؤمنين والكافرين،

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3139
(2) : نقلها ابن حجر في الفتح (15/ 194) عن الفاكهي في أخبار مكة بسند حسن.
(3) : رواه البخاري رقم: 3905.

ونزول القرآن بذلك، ومنها: أن يجد الدعاة في كل وقت عزاء وتأسياً وتسلية فيما وقع لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من الأذى، وما تحمله من المشاق وهو أفضل خلق اللّه، فكيف بهم. وقد جرت حكمة اللّه تعالى: أن لا يتم انتصار دعوة كبرى تُحدث انقلابا في مفاهيم الناس وعقائدهم كدعوات الأنبياء والرسل، وخصوصا الدعوة الإسلامية، باعتبارها دعوَةَ الدين الخاتم، والرسالة الأخيرة إلى الناس، بدون عمل جاد، وجهد شاق، وصبر جميل.

الإسراء والمعراج

وشاء أن يتوج هذا الدعم المعنوي، والتثبيت الإلاهي لرسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم فأكرمه بمعجزة الإسراء والمعراج، وهي معجزة فريدة، خص بها نبينا صلى اللّه عليه وآله وسلم، وكانت تسلية وتأنيسا وتثبيتا له صلى اللّه عليه وآله وسلم على سيره في الدعوة إلى اللّه. وليريه من آياته الكبرى. وقد لقي في سبيلها ما لقي من آلام وأحزان، كان من أكبرها وفاة خديجة زوجه الوفية، وعمه أبي طالب، وفقده مواساتهما الطيبة وتأييدهما الحسي والمعنوي، فأكرمه اللّه تعالى بأن أسري به ليلا في ليلة واحدة، كانت ليلة الإثنين ثاني عشر ربيع الأول أو السابع عشر منه من المسجد الحرام بمكة، إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس والإسراء: السير ليلا كالسّرى، والمعراج سلم للعروج أي الصعود، وكان قبل هجرته صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة بسنة. وبعد العام العاشر من البعثة، بدأ الإسراء بقيادة جبريل عليه السلام، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم راكب على البُراق، وهو دابة أبيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه[1]، وبعد بلوغه المسجد الأقصى، عرج به دون البراق على المعراج، وهو السُّلَّم، إلى سدرة المنتهى والمستوى الذي سمع فيه صريف الأقلام، وكان بالروح والجسد، يقظة لا مناما، وما يُروى من إنكار عائشة ومعاوية رضي اللّه عنهما كونَه بالجسد، لا يصح عنهما، والقرآن يرده[2]، وقبل الشروع فيه شق صدره الشريف صلى اللّه عليه وآله وسلم المرة الثانية، والأولى كانت زمن رَضاعه ببني سعد كما مر. وحكمة شق الصدر هنا: الإعداد الروحي، والتهيئة لجواب الملأ الأعلى، ولقاء أرواح الملائكة والأنبياء، وسماع خطاب اللّه تعالى، ومشاهدة ما شاهد من آياته الكبرى وملء قلبه إيمانا وحكمة، وقد أنكر ابن حزم والقاضي عياض حادث شق الصدر هذا الثاني، وهما محجوجانِ بثبوته في الصحيحين من غير طريق شَريك الذي ادعيا شذوذه بانفراده به. وقد دل على الإسراء والمعراج: القرآن والسنة في قوله

---

(1) : كما في حديث ابن عباس، انظر السيرة النبوية من البداية والنهاية لابن كثير (95/2).
(2) : الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض، فصل الإسراء والمعراج.

تعالى «(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير)» ﴿الإسراء آية: 1﴾، وقوله تعالى: «(ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى، ما زاغ البصر وما طغى، لقد رأى من آيات ربه الكبرى)» ﴿النجم آية: 13 - 18﴾ ومرجع الضمير: جبريل، فيه إشارة واضحة إلى وقوع ذلك بالملإ الأعلى عند سدرة المنتهى وجنة المأوى، وكذلك في قوله تعالى: «(علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى، ثم دنا فتدلىَّ فكان قاب قوسين أو أدنى)» ﴿النجم آية: 5-10﴾ والضمير فيه راجع إلى جبريل أيضا، ولم يره صلى اللّه عليه وآله وسلم على صورته التي خلق عليها إلا مرتين: الأولى عقب فترة الوحي، وهو صلى اللّه عليه وآله وسلم نازل من حراء، فرآه قد سدت عظمته الأفق كما تقدم، الثانية: وهو بالأفق الأعلى كما في هذه الآية، ومجموع روايات الإسراء والمعراج عند البخاري في الصحيح: عشرون عن ستة من الصحابة، وعند مسلم في الصحيح نحو ثمان عشرة رواية عن سبعة من الصحابة، فهؤلاء ثلاثة عشر صحابيا في الصحيحين فقط، وقد صحت روايات أخرى خارجهم، ولم تستوعب رواية واحدة القصة كاملة، وإنما تؤخذ من مجموع الروايات، ويمكن تلخيص مقاصدها ومضمونها مع تحري الصحة فيما يلي:

1) إنه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد صلاة العشاء، من ليلة الإثنين كما سبق، نزل جبريل عليه السلام، وفرج سقف بيته بمكة، وشق صدره ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب مُمتلئ إيمانا وحكمة فأفرغه في صدره ثم أطبقه، ثم أخذ بيده فعَرَج به، وفي روايات أخرى في الصحيح: أن الحادث كان بالمسجد الحرام، أو بالحطيم، أو الحجر، ويجمع بينهَا: أن البدء كان بالبيت، ثم حمل صلى اللّه عليهِ وآله وسلم إلى المسجد بدليل غسل قلبه من زمزم وهو بالمسجد.

2) ثم أتي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالبُراق، وقد وُصف آنفاً، فرَكبه وسار به جبريل حتى أتي بيت المقدس، فربط الدابة (البراق) بالحلقة التي يَربط فيها الأنبياء، ثم دخل المسجد، وصلى فيه ركعتين إماما بالأنبياء: آدمَ فمن دونه، ثم خرج، فأتاه جبريل بإناء من خمر، وإناء من لِبن، فاختار صلى اللّه عليه وآله وسلم اللبن، فقال جبريل: أصبتَ الفطرة، ثم عَرَج به إلى السماوات العلى، يستفتح جبريلِ له في كل سماء، فيُسأل من معك؟ فيقول محمد، فيقال: أو قد أرسل إليه؟ فيقول: نعم، فيقال: مرحبا به، فلنعم المجيءُ جاء، فرأى صلى اللّه عليه وآله وسلم في السماء الأولى: آدم، وفي الثانية: عيسى ويحيى، وفي الثالثة: يوسف، وفي الرابعة: إدريس، وفي الخامسة: هارون، وفي السادسة: موسى، وفي

السابعة: إبراهيم مستندا إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف مَلَك، ثم لا يعودون، ثم عَرج بِه إلى سدرة المنتهى، فإذا نَبقُها مثل الجرار، وورقها مثل آذان الفيَلة، ورأى نهر الكوثر في الجنة، وإن حافَتيه قِبابُ اللؤلؤ مَجوف، وطينه مسك أذفر، كما شاهد أربعة أنهار تخرجَ من أصل سدرة المنتهى: نهران باطنان في الجنة، ونهران ظاهران: النيل والفرات، ووصف صلى اللّه عليه وآله وسلم جبريل لما دنا منه فتدلى: أن له ستمائةِ جناح.

3) ثم عَرَج إلى مستوى سمع فيه صريفَ الأقلام، وثمةَ سَمع خطابَ ربه سبحانه، وقد سئل صلى اللّه عليه وآله وسلم هل رأى اللّه بعينه؟ فقال نور أنَّى أراه؟ وفي رواية: رأيت نورا، وهو نور الحجاب الذي لو كشفه لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه. وهذا هو الحق: أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم رأى ربه بفؤاده لا ببصره. وفرض سبحانه عليه وعلى أمته: خمسين صلاة في اليوم والليلة. وعند مروره بموسى عليه السلام في الرجوع، سأله: ما فَرَض ربك على أمتك؟ فأخبره، فطلب منه موسى أن يرجع إلى ربه فيسأله التخفيف قائلا له: إن أمتك لا تُطيق ذلك، وإني قد خبَرتُ الناسَ قَبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، ففعل صلى اللّه عليه وآله وسلم وخففَ اللّه خمسا، ثم مازال يتردد بين موسى وربه تعالى طالبا التخفيفَ، حتى انتهى إلى خمس، فطلب منه موسى العود، فقال: قد سألتُ حتى استحييت، فنادى مناد: قد أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي هي خمس في الفعل وخمسون في الأجر، ولا يبدل القول لدي.

4) بعد نزوله صلى اللّه عليه وآله وسلم من الملإ الأعلى، وفي طريقه إلى مكة، وقد شاهد من آيات ربه الكبرى في رحلته المدهشة هذه، ومن مشاهد العصاة وعذابهم، والطائعين ونعيمهم، أمثالَ جُسمت له في مواعظ وعبَر، وترغيب وترهيب، ما شاهد، مر في طريقه إلى مكة بعير لقريش بمكان كذا، وقد أظلوا بعيرا لهم، وقد جمعه فلان، قالَ: فسلمت عليهم، فقال بعضهم: هذا صوت محمد، ثم وصل مكة قبل الصبح، فخشي أن يكذبه قومه، فأصبح مهموما، فجلس إليه أبو جهل وهو في هذه الحال، وسأله مستهزئا: هل كان من شيء؟ فأخبره صلى اللّه عليه وآله وسلم بالإسراء والمعراج، فلم يشأ أن يكذبه ساعتئذ خشية أن يكتم ذلك أمامَ الناس وهذا جهل منه به صلى اللّه عليه وآله وسلم إذ لم يكن مثل هذا من خُلقه قط، وقال له: أرأيتَ إن دعوت قومك إليك، أتحدثهم فحدثهم، فتعجبوا منه، وطلب منه من رأى المسجد الأقصى أن يصفه لهم، فرفعه اللّه له، فأخذ يصفه لهم وهو ينظر إليه، فقالوا: أما النعت فقد واللّه أصاب. وكانت هذه المعجزة فتنة لبعض ضعاف الإيمان، فارتد منهم ناس. أما أبو بكر، فبمجرد سماعه الخبر، صَدَّق دون

تردد قائلا: واللّه لئن كان قاله لقد صَدق، وما يُعَجّبكم من ذلك؟ إنه يخبرني أن الخبر يأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار، فهذا أبعد مما تعجبون منه. ثم أقبل على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يسأله عن وصفه، وكلما ذكر شيئا قال: صَدقت، أشهد أنك رسول اللّه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: وأنت يا أبا بكر: الصديق، فسماه يومئذ: الصديق. هذا ملخص أرجو أن يكون وافيا بالمهم الصحيح من هذه المعجزة المثيرة الفريدة[1]، ولا عبرة بمن ينكرها، أو يتشكك فيها، أو يؤولها من العقلانيين الماديين -وفيهم مع ا لأسف- كثير من المشايخ والدكاترة الجامعيين، والدعاة المزعومين، وذلك لثبوتها بالوحيين: القرآن والسنة، وأنهما من علم الغيب، وقد امتدح اللّه المؤمنين لإيمانهم بالغيب فقال: «(الم ذلك الكتاب لا ريب فيه، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب)» ﴿البقرة آية: 1﴾. وليس فيها ما يحيله العقل السليم، ومن آيات الخذلان لهم: ما انفرد به محمد حسنين هيكل، فزعم في كتابه (حياة محمد): أن الإسراء والمعراج كان بالروح، وأن روحه صلى اللّه عليه وآله وسلم كان ساعته، ووحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها، إلى آخر هَذيانه المغرق في الاستحالة والمسخ، ووحدة الوجود التي يرمي إليها: عقيدةَ وثنيةٌ خالصة، لا تمت إلى الإسلام بصلة.

ومما يستفاد من حوادث القصة وَجَوها العام، من الفوائد، والعبر، والعظات، ولطائف الإشارات:

1) أن إنجاز هذه الرحلة العجيبة، يشير إلى تفرد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالزعامة الدينية، والسيادة الإيمانية في الكون كله، لتخطيه فيها الأرضَ إلى السماوات العلى، فكأنه يومئ إلى عموم بعثته صلى اللّه عليه وآله وسلم للثقلين، وتفضيله على الملائكة وسائر المخلوقات.

2) وإمامته الأنبياء في الصلاة بالمسجد الأقصى، تشير إلى تقديمه وتفضيله عليهم، ونسخ دينه الإسلام لأديانهم، لسلامتهِ من التحريف، وتمامه وكماله، وحفظه وصيانته، المضمون كلُّ ذلك من ربه سبحانه الذي تولى ذلك بنفسه، بينما استحفظ الأمم الغابرة وأنبياءها، فلم يتمَّ الحفظ، وتلاعبت الأهواء والنَّزَعات بالأمانة فضيعت، كما يشير ائتمام الأنبياء به إلى اعترافهم بالتبعية ورضاهم بتقديمه، قياما بواجب تنفيذ العهد والميثاق الذي أخذه اللّه عليهم بالإيمان به، ونصرته عند مجيئه متى جاء «(وإذا أخذ اللّه ميثاق النبيئين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتُؤْمِنُنَّ به ولتنصرنه، قال: أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين)» ﴿آل

---

(1) : ينظر عنها: الصحيحان في الأغلب، ومسند أحمد، والسنن الأربعة في أبواب الإسراء والمعراج.

عمران، آية: 81﴾.

3) واختياره صلى اللّه عليه وآله وسلم اللبن على الخمر، وقول جبريل عليه السلام له: اخترتَ الفطرة، إيماء إلى أن مبنى دينه وشريعته على الفطرة النقية الطاهرة، وإلى عنايته بالعقل وغنائه، وحياطته وصونه مما يخدش صفاءَه، ويهدد سلامته، لأنه مناط التكليف، ومصدر الفهم، وروح البيان.

4) ومشاهدته صلى اللّه عليه وآله وسلم في الإسراء في الأرض، وفي المعراج في السماء، من آيات ربه الكبرى، في إيقافه على مظاهر الرضا عن الطائعين، والغضب الإلهي على العاصين من الخلق، وتجسيم الأمثال المضروبة لبعض المعاني في صور محسوسة لها من الأثر في نفسه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما ليس للإخبار، وقديما قيل[1]: ليس الخبر كالمعاينة، وقال الآخر: (الوافد)

ولكن للعيان لطيفُ معنى

لذا طَلَب المشاهدةَ الكليمُ

علاوة على ما لتلك المجالي من الترغيب والترهيب في الفعل والترك.

5) وفرض الصلاة من اللّه تعالى، وسماع خطابه بذلك كفاحا في ذلك المستوى الرفيع، الذي لم يصله مخلوق، دليل واضح على عظم قدر الصلاة، وشفوف منزلتها من الدين، وكونها أفضل العبادات وأعظمَها بعد الشهادتين، واعتبارها أقربَ سبب إلى اللّه، وأكبر صلة بين العبد وربه.

هذا بعض ما فتح اللّه به الساعة، ولَدَى من صفا تفكيره، وقوي إيمانه، وصح علمه مزيد وفير بإلهام اللّه ويمن توفيقه.

عرض النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم نفسه على العرب

ثم بعد عودته صلى اللّه عليه وآله وسلم من الإسراء والمعراج، استأنف عمله الدائب في الدعوة، منتهزا كل فرصة تسنح له، وكانت أسواق العرب، وغيرهم، ومواسم الحج أهم الظروف الزمنية والمكانية لعرض الدعوة، ولقاء رؤساء العرب وغيرهم، فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول لهم: هل من رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشا منعوني أن أبلغ كلام ربي[2]؟ وينادي عشائرهم: يا بني فلان إني رسول اللّه إليكم يأمركم أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئا، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه، وأن تؤمنوا بي وتصدقوني وتمنعوني حتى أبين عن اللّه ما بعثني به[3].

---

(1) : هو بعض حديث صحيح رواه أحمد والطبراني وغيرهما وصححه الألباني في تخريج المشكاة رقم: 5738.

(2) : الذهبي في سيرته ص 282 وصححه على شرط الشيخين.

(3) : رواه أحمد في المسند (3/ 492) وحسنه محققا زاد المعاد (3/ 44).

وفي هذه الأثناء كان عمه أبو لهب يسير خلفه، ويرميه بالحجارة حتى أدْمَى عقبه ويقول: هذا يدعوكم أن تفارقوا دين آبائكم، وأن تسلخوا اللاة والعزى وحلفاءكم من بني مالك بن أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلال[1]، ولم يثنه صلى اللّه عليه وآله وسلم ذلك ولا ردَّ غيره من رؤساء العرب مهما كان قبيحا، عن واجبه. فقد لقي كثيرا من رؤساء القبائل، وحاوَرَهم ودعاهم، وقرأ عليهم القرآن، فمنهم الصامت، ومنهم الواعد، ومنهم المتريث، ومنهم الخبيث، ومنهم المجيب. وقد لقي وفد بني عبد الأشهل، كان قَدِم مكةَ يطلب الحلف مع قريش ضد قومهم من الخزرج، رئيسهم أبو الحيسر، وفيهم إياس بن معاذ وهو أصغرهم، فجاءهم صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ قالوا: وما ذاك؟ قال: أنا رسول اللّه، بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا اللّه ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علي الكتاب، ثم شرح لهم الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، فقال الغلام إياس: أي قوم، هذا واللّه خير مما جئتم له، فزجره أبو الحيسر وحصبه فصمت، وسمعه قومه عند موته يهلل اللّه تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلما[2]، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما سمع.

بيعة العقبة الأولى

كما لقي صلى اللّه عليه وآله وسلم في السنة الحادية عشرة نفرا عددهم ستة من الخزرج عند العقبة، فدعاهم إلى الإسلام، وقرأ عليهم القرآن، وذكروا ساعتئذ ما كانوا يسمعونه من أحبار يهود المدينة، من إن نبيا مبعوثا قد أظل زمانُه، وأنهم سيتبعونه، ويقاتلونهم معه قِتل عاد وإرم، ونظر بعضهم إلى بعض قائلين: تعلمون واللّه أنه للنبي الذي تتوعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه، فأجابوه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا وبينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم اللّه بك، فسنقدم عليهم وندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم اللّه عليك، فلا رجل أعز منك. ثم انصرفوا ووعدوه الموسم المقبل. فلما قدموا على قومهم، ذكروا لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ودعوهم إلى الإسلام فقبلوه حتى فشا فيهم، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم[3]، وكان يوم بعاث (وهو اسم

---

(1) : رواه ابن إسحاق بسند حسن كما في سيرة ابن هشام 2/ 80).
(2) : المصدر السابق.
(3) : رواه ابن إسحاق كما في سيرة ابن هشام (2/81) بسند حسن.

مكان قريب من المدينة) وقعت فيه معركة بين الأوس والخزرج قبل الهجرة بسنوات، قتل فيه كثير من الطرفين، قالت عائشة رضي اللّه عنها: كان يوم بعاث يوما قدمه اللّه لرسوله فقدم صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينة وقد افترق ملؤهم وقتل سرواتهم وجرحوا فقدمه اللّه لرسوله في دخولهم في الإسلام[1].

ويستفاد مما ذكر: ما ينبغي أن يسلكه الدعاة إلى اللّه من الإعراض عن الجاهلين، وعدم التأثر بمواقف الصادين عن سبيل اللّه، وعدم الكلال والملل من تجريب جميع الطرق، وارتكاب كل ما يتيح لهم الاتصال بالناس، وعرض الدعوة عليهم مهما تكن النتائج، فإن المثابرة والإخلاص في العمل، كفيلان بإنجاحه، والعاقبة للمتقين.

وفي السنة المقبلة الثانية عشرة للبعثة، حضر موسم الحج اثنا عشر رجلا من مسلمي المدينة، منهم من لقي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في العام الماضي، فلقوا الرسول مع جماعة من أصحابه. قال عبادة بن الصامت -وكان حاضرا- قال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لهم: تعالوا بايعوني على أن لا تشركوا باللّه شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على اللّه، ومن أصاب شيئا فستره اللّه، فأمره إلى اللّه، إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه، فبايعوه على ذلك[2] وبعث معهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مصعب بن عمير عند عودتهم إلى بلدهم، ليقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى: مقرئ المدينة، وكان نازلا على أسعد بن زرارة، وهو أول من جمّع بهم بأمر رسول اللّه، وأسلم بدعوته خلق كثير من الأوس والخزرج، من أشرافهم: أسيد بن الحضير. وسعد بن معاذ، وأسلم بإسلامهما جميع بني عبد الأشهل إلا الأقل، ومنهم: عمرو بن ثابت بن أقيش، فقد أسلم يومَ أحد وقاتل فقُتل يومئذ ولم يسجد سجدة واحدة، فأخبر عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: (عَمل قليلا، وأجر كثيراً)[3].

بيعة العقبة الثانية

وفي موسم الحج عام ثلاث عشر للمبعث، قدم وفد المدينة لمكة فيهم كثير من المسلمين، ومشركون أكثر، يتقدمهم البراء بن معرور رضي اللّه عنه وتساءل المسلمون متحسرين: إلى متى يبقى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يطوف داعيا مطاردا خائفا؟

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3777.
(2) : رواه البخاري رقم: 3892 وسلم رقم: 1709، لكن قال ابن حجر في الفتح (15 /74) ان هذه البيعة كانت بعد فتح مكة، أما بيعة العقبة، فكانت على السمع والطاعة في العسر واليسر.
(3) : رواه ابن إسحاق في السير والمغازي كما في الفتح (11 /276) بإسناد صحيح .

فاتصلوا به صلى اللّه عليه وآله وسلم سراً، واتفقوا على موعد لقاء لإبرام بيعة كان لها أثر بالغ في سير الدعوة، ألا وهي بيعة العقبة الثانية. وكان من حديثها: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حضر الموعد المتفق عليه عند العقبة أوسط أيام التشريق، فاجتمع مسلمو المدينة إليه، بعد مِضي ثلث الليل، خرجوا كما قال كعب بن مالك: نتسلل تسلل القَطا مستخفين، وهم ثلاثة وسبعون رجلا، ومعنا امرأتين، وكان مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عمه العباس وهو مشرك، أحب أن يحضر متوثقا مستطلعا، فكان أول من تكلم فقال: يا معشر الخزرج، إن محمدا منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن رأيُهم مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه، ومَنَعة في بلده، وأنه قد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، فإنه من عز ومنعة من قومه وبلده. قال كعب: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلَّمْ يا رسول اللّه، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، فتكلم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وبلَّغ، وقرأ القرآن ورغب، وقال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال: والذي بعثك بالحق نبيا، لنمنعنَّك ما نمنع منه أزرنا، فبايعنا يا رسول اللّه، فنحن واللّه أبناء الحروب، وأهل الحلقة، ورثناها كابرا عن كابر، فاعترض القول - والبراء يكلم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم - أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول اللّه، إن بيننا وبين الرجال حبالا، وإنا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عَسيتَ إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك اللّه، أن ترجع إلى قومك وتدَعنا؟ فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم قال: بل الدمَ الدمَ، والهدمَ الهدمَ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم. ثم تكلم العباس بن عُبادة، وأسعد بن زُرارة، مبينين لقومهما حقيقة البيعة، ومعنى الالتزام بها، وليعرف مدى قوة استعدادهم للقيام بها. قال أسعد بن زُرارة عندما قام الناس للبيعة: رُوَيْدًا يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إليه أكباد الإبل، إلا ونحن نعلم أنه رسول اللّه، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على اللّه، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه، فهذا أعذر لكم عند اللّه، فقالوا له: يا أسعد: أمط عنا يدك، فواللّه لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها[1]. ولما تأكد أسعد من عزم قومه على الوفاء، صافح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مبايعا. وكان أول من ضرب على يد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مبايعا: البراء بن معرور،

---

(1) : رواه أحمد (الفتح الرباني 20 /270) بسند صحيح.

وتتابع القوم مبايعين، والرسول يبشر بالجنة من وفّى بها. ولما تمت البيعة صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سُمع قط: يا أهل الحباحب - المنازل - هل لكم في مذمم - محمد - والصبأة معه، قد اجتمعوا على حربكم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: هذا أزَب العقبة، هذا ابن أزيب، أستمع أي عدو اللّه؟ أما واللّه لأفرغن لك، ثم قال لهم صلى اللّه عليه وآله وسلم: ارفضوا إلى رحالكم، فقال العباس بن عبادة بن نَضلة: والذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لم نُؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم، قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا حتى أصبحنا، فلما أصبحنا، غدت علينا جلة قريش، حتى جاؤنا في منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه واللّه ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم. قال: فانبعث من هناك من مشركي قومنا، يحلفون باللّه: ما كان من هذا شيء وما علمناه، قال وقد صدقوا، لم يعلموه[1]، والمسلمون ينظرون إلى بعضهم. ثم رجع الأنصار إلى المدينةينتظرون قدوم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم بشوق عظيم، وتطلع بالغ.

الهجرة إلى المدينة

اختار اللّه لنبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم دار هجرته، فأراه إياها في منام، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إني أريتُ دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين[2]، وكان كثير من الصحابة هاجر إليها، أولهم: أبو سَلمة بن عبد الأسد، ثم مصعب بن عمير، وابن أم كلثوم، وبلال، وسعد بن أبي وقاص، وعمار، وعمر بن الخطاب، وغيرهم في عشرين من أصحابه، لما لاقوه من أذى قومهم، خصوصا بعد أن بلغهم خبر البيعة الأولى والثانية اللتين وقعتا في السر، وما تم فيها من المعاهدة على نصرة الحق، والدفاع المستميت عنه، وما أعقب ذلك من انتشار الإسلام في المدينة، وظهور عزته، فكانت البيعة المنطلق الأساس، لقيام دولة الإسلام بالمدينة، ومشروعية الجهاد الذي يتم به تنفيذ بنود البيعة، من نصرة النبي، وحمايته، ونشر الدين، والذب عنه، ولابد للدولة من أرض تقوم عليها، وأنصار يحمونها. لهذه الأسباب، وخوفا أن يفتن المرء على دينه، والتماسا لمناخ صالح لسير الدعوة في طريق سالم، هاجر المسلمون. قال خباب بن الأرتّ: هاجرنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم

---

(1) : رواه أحمد في المسند (3 /460) والحاكم في المستدرك (2 /624) وسكت عنه الذهبي.
(2) : رواه البخاري معلقا في كتاب الكفالة (رقم: 3582) ومسندا في المغازي ومناقب الأنصار (رقم: 3616)، ومسلم رقم: 2272.

نلتمس وجه اللّه[1].
ولما رأى المشركون تتابع خُروج المسلمين بمختلف الوسائل، ولم ينفعْ فيهم ترغيب ولا ترهيب، وَلا وضع العراقيل في طريقهم، ائتمروا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم للقضاء عليه، وفي ذلك - في زعمهم - حسم الصراع من أساسه، فأنزل اللّه على رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: «(وإذا يمكر بك الذين كفروا ليُثبتُوك أو يقتلوك أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر اللّه، واللّه خير الماكرين)» ﴿الأنفال، آية: 30﴾.
وبعد نحو شهرين ونصف من بيعة العقبة الثانية، تمت مؤامرة كفار قريش، وأذن اللّه لرسوله في الهجرة. قالت عائشة رضي اللّه عنها: بينما نحن يوما جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة، قال قائل لأبي بكر: هذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم متقنعا في ساعة لم يكن يأتينا فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي، واللّه ما جاء به هذه الساعة إلا أمر، قالت: فجاء رسول اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وسلم فاستأذن فأذن له، فدخل فقال لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك بأبي أنت يا رسول اللّه - وكان قد زوجه ابنته عائشة - قال: فإني أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يا رسول اللّه، قال رسول اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وسلم: بالثَّمن، قالت عائشة فجهزناهما أحثَّ الجهاز، وصنعنا لهم سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، وبذلك سميت ذات النطاق[2]، قالت: ثم لحق رسول اللّه وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليال، يبيت عندهما عبد اللّه بن أبي بكر، وهو غلامِ شاب ثقف لقن، فيدلج عندهما بسحَر، فيصبح من قريش بمكة كبائت، فلا يَسمع شيئا يُكتَادان به، إلا وعاه، حتى يأتيهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما عامر بن فُهَيرة - مولى أبي بكر - منحة من غنَم، فيريحها عليهما حتى تذهب ساعة من العشاء فيبيتان في رسل -وهو لبن منحتهما ورضيفهما-[3] حتى يلحق بهما عامر بن فهيرَة بغلس، يفعل ذلك كل ليلة من تلك الليالي الثلاث. وكان أبو بكرٍ أمر مولاه عامرا أن يصحبهما في هجرتهما، ليخدمهما ويعينهما في الطريق[4]، كما كان صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبو بكر، استأجرا دليلا ماهراً بطرق الصحراء ومسالكها، مشركا، ليدلهما على طريق للمدينة غير معروف واستكتماه الخبر، يسمى

---

(1) : رواه البخاري رقم: 1276.
(2) : رواه البخاري رقم: 3905 في قصة الهجرة عن عائشة. ورواية تلقيب أسماء بذات النطاقين، لإيكائها الجراب بقطعة وسدها فم القربة بقطعة: ضعيفة لأنها عن الواقدي.
(3) : الرضيف اللبن المرضوف أي المحمى بالحجارة الرضف لينعقد.
(4) : رواه البخاري رقم: 3905.

عبد اللّه بن أُرقُد الدَّيلي[1]، ووعداه اللقاء بغار ثور بعد ثلاثة أيام، ودفعا إليه الراحلتين المَعدتان للسفر. وهكذا غادر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مكة ليلا مع صاحبه إلى غار ثور في الجهة الجنوبية من مكة، بينما المدينة تقع إلى الشمال منها، وهي أحب بلاد إليه إلى اللّه وإليه. وبعد أن مكث بها ثلاث عشرة سنة يوحى إليه[2]، وأنزل اللّه عليه إيذانا بالهجرة «(وقال رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا)» ﴿الإسراء، آية: 80﴾، فتلاها صلى اللّه عليه وآله وسلم ممتثلا أمر ربه، واثقا بوعد اللّه فيها، مما يبعث على الاطمئنان؛ ولما علم المشركون بالأمر، سُقط في أيديهم، وجن جنونهم، وبعثوا الرصَد والعيون في كل الجهات، وأعلنوا منح دية محمد صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبي بكر -وهي مائتان من الإبل- لمن يأتيهم بهما، أو بأحداهما حياً أو ميتاً. وما اشتهر في كتب السير من مبيت علي مكانه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وترصد المشركين له، وخروجه من بينهم يتلو: «(وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون)» ﴿يس، آية: 8﴾. وجعله ترابا على رؤوسهم، وثورانهم في الصباح إليه، وذهابه صلى اللّه عليه وآله وسلم مع علي -وهذا يتناقض مع مبيته مكانَه - إلى الكعبة، وصعود علي على منكبه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى سطحها، واقتلاع صنم من نحاس ضخم وطرحه إلى الأرض وانكساره، وكذلك ما اشتُهر من نسج العنكبوت على باب الغار، ونبت شجرة في وجهه صلى اللّه عليه وآله وسلم لستره، ووقوع حمامتين وحشيتين بفم الغار، إلى غير ذلك من الخوارق، كل ذلك ضعيف وواه، لم يسلم شيء منه من نقد. نعم صح عن أبي بكر رضي اللّه عنه قال: قلت للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأنا في الغار: لو أن أحدَهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: ما ظنك -يا أبا بكر- باثنين اللّه ثالثهما، كما أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم لم يصب أيامَ الغار بأذى إلا أن حجراً أصاب يده صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: (رجز)

هل أنت إلا أصبع دميت ××× وفي سبيل اللّه ما لقيتِ[3]

وبعد انقطاع الطلب، وَمجيء الدليل: عبد اللّه بنَ أُرقُد، ومعه الراحلتان، استأنفوا السير ومعهم عامر بن فُهيرة عن طريق الساحل، ورسول اللّه لاهج بذكر اللّه، مطمئن القلب بوعد اللّه، بعد القيام بالأسباب، والأخذ بواجب الاحتياط. أما أبو بكر فكان يكثر الالتفات خلفه حرصا على نجدة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله

(1) : المشهور في السير: أُرَيقِط، ولكنه في أصول مخطوطة صحيحة: أُرقُط، وعند الطبري بسند حسن: أرقد.
(2) : رواه البخاري رقم 3902.
(3) : رواه البخاري رقم: 3653 ومسلم رقم: 2381 - 1796.

وسلم، قال أبو بكر: ارتحلنا من مكة فأحيينا أو سَرينا ليلتنا ويومَنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميتُ ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه، فإذا صخرة فأتيتها، فنظرت بقية ظل لها فسويته، ثم فرشت للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فيه، ثم قلت له: اضطجع يا نبي اللّه، فاضطجع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، ثم انطلقت أنظر ما حولي: هل أرى من الطلب أحدا، فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردنا، فسألتُه لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش سماه فعرفته، فقلت هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم، فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال هكذا: ضرب إحدى كفيه بالأخرى، فحلب لي كثبة من لبن، وقد جعلت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إداوة على فمها خرقة، فصببت على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقت به إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فوافقتُه قد استيقظ فقلت: اشرب يا رسول اللّه، فشرب حتى رضيت ثم قلت: قد آن الرحيل يا رسول اللّه، قال: بلى، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركنا أحد منهم غير سراقة بن مالك بن جُعشُم على فرس له، فقلت: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول اللّه، فقال: لا تحزن إن اللّه معنا[1]، وقال قيس بن النعمان رضي اللّه عنه: لما انطلق النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبو بكر مستخفين، مرا بعبد يرعى غنما، فاستقياه من اللبن فقال: ما عندي شاة تحلب، غَير أن هاهنا عَناقا حملت أول الشتاء وقد أَخْدَجت (أي ألقت بولدها ناقصا غير تام) وما بقي لها لبن، فقال ادع بها، فدعا بها، فاعتقلها النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ومسح ضرعها ودعا حتى أنزلت، قال: وجاء أبو بكر (رضي اللّه عنه) بمجَن فحلب، فسقى أبا بكر، ثم حلب فشرب فقال الراعي: باللّه من أنت؟ فواللّه ما رأيتُ مثلك قط! قال: أو تراك تكتم علي حتى أخبرك؟ قال: نعم، قال: فإني محمد رسول اللّه، فقال: أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ، قال: إنهم ليقولون ذلك، قال: فأشهد أنك نبي، وأشهد أن ما جئت به حق، وأنه لا يفعل ما فعلتَ إلا نبي، وأنا متّبعك، قال: إنك لا تستطيع ذلك يومَك، فإذا بلغك أني قد ظهرت فائتنا[2].

أما سراقة بن مالك المذكور، فقد تَحدَّث بقصته فقال: ولما خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من مكة مهاجرا إلى المدينة، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم، (وهي دية الواحد، وتقدم أنهم جعلوا دية اثنين للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3652.

(2) : رواه الحاكم في المستدرك (3/8-9) وصححه وسكت عنه الذهبي وقال الهيثمي في المجمع (6/58) رواه البزار ورجاله رجال الصحيح، وصححه ابن حجر في الإصابة (5/504).

وصاحبه)، قال: فبينَا أنا جالس في نادي قومي، إذ أقبل رجلٍ منا حتى وقف علينا فقال: واللّه لقد رأيتُ رَكَبة ثلاثة مروا عليَّ آنفا، إني لأراهم محمدا وأصحابه، قال: فأومأت إليه بعيني أن اسكت، ثم قلت: إنهم بنو فلان يبتغون ضالَّة لهم، قال: لعله، ثم سكت، قال: ثم مكثت قليلا، ثم قمت فدخلت بيتي، ثم أمرت بفرسي فَقيدَ لي إلى بطن الوادي، وأمرت بسلاحي فأخرج لي من دبر حُجرتي، ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لأمتي ثم أخرجت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت، فلبست لأمتي، ثم أخرجت قَداحي فاستقسمت بها فخرج السهم الذي أكره: لا يضره، قال: وقد كنت أرجو أن أرده على قريش، فآخذ المائة ناقة، قال: فركبت على أثره، فبينا فرسي يشتدُّ بي عثر بي فسقطت عنه، قال: فقلت: ما هذا؟ قال: ثم أخرجت قداحي فاستقسمتُ بها فخرج السهم الذي أكره: لا يضره، قال: فأبيت إلا أن أتبعه، فركبتُ في أثره، فلما بدا لي القوم ورأيتهم، عثر بي فرسي فذَهَبتْ يداه في الأرض وسقطت عنه، ثم انتزع يديه من الأرض، وتبعهما دخان كالإعصار، قال: فعرفتُ حين رأيت: أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر، قال: فناديتُ القوم فقلت: أنا سُراقة بن جعشم، انظروني أكلمْكم، فواللّه لا أريبكم، ولا يأتيكم مني شيء تكرهونه، قال، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأبي بكر: قل له: وما تبتغي منا؟ فقال لي ذلك أبو بكر، قال: فقلت: تكتبُ لي كتابا يكون آية بيني وبينك، قال: اكتب له يا أبا بكر، فكتب لي كتابا في عظم، أو في رقعة، أو في خَزَفة، ثم ألقاه إلي، فأخذته فجعلته في كنانتي، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان، ثم حَكى خبر لقائه برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد فتح مكة وإسلامه، وكان ذلك بعد فراغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من حنين والطائف حيث جاءه بالكتاب فوفى له النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: يوم وفاء وبر. ويومها أسلم سُراقة[1]. وذَكر سراقة في رواية أخرى صحيحة: أنه اقترب من الاثنين حتى سمع قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، كما ذَكر أنه عرض عليهما الزاد والمتاع، فلم يأخذا منه شيئاً، وأن وصيَّته كانت: أخف عنا. وفي رواية أخرى صحيحة: أن سُراقة عندَما رجع إلى قومه، جعل يقول لهم: قد اسْتَبْرأْتُ لكم الخبر، وقد كفيتم ما هاهنا، وهكذا صار آخر النهار مَسلحة[2] للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد كان جاهدا عليه أوَّلَه، وأن الرسول هو الذي دعا عليه فصرعه الفرس، وسبق: أن أبا بكر رآه فقال: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول اللّه فقال: لا تحزن إن اللّه معنا. وكان صلى اللّه عليه وآله

---

(1) : رواه البخاري (7 /230) مع الفتح، وابن هشام في السيرة (2 /154) بسند حسن
(2) : بدفع الأذى عنهما.

وسلم وصاحبه لا يكلمان أحدا في الطريق احتياطا، وإذا سئل أبو بكر عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: هذا الرجل يهديني السبيل[1]، فيحسب أنه يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير. وسبقت الإشارة إلى أن دليلهما عِبد اللّه بن أرقد أخذ بهم طريق السواحل. وفصّل ابن إسحاق وصف المنازل والطريق.

حديث أم مَعبَد

واشتهرت في كتب السيرة قصة أم مَعبَد وأن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مر على خيمتها في منازل خُزاعة، ونزل عندها واستراح، وشرب من لبن شاتها، في تفاصيل لا يصح منها شيء، إلا ما رُوي من طرق يرقى بها الأثر إلى رتبة الحسن عن أسماء بنت أبي بكر قالت: مكثنا ثلاث ليال ما ندري أين وَجْه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى أقبل رجل من أسفل مكة يتغنى بأبيات من الشعر، يقول: (الطويل)

جزاه اللّه ربُّ الناس خيرَ جَزائه
رفيقين حَلاَّ خَيمتيْ أم معبد
هما نَزَلَا بالبرَ، ثم تروّحا
فأفلح من أمْسَى رفيقَ محمد
ليهْن بني كعب مكانُ فَتَاتِهمْ
ومَقعدها للمؤمنين بمرصَــــد

قالت أسماء: فلما سمعنا قوله، عرفنا حيث توجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأن وجهه إلى المدينة[2]، ولقي صلى اللّه عليه وآله وسلم في الطريق ركبا من تجار المسلمين، راجعين بتجارتهم من الشام، فيهم ابن عمته: الزبير، فكسا رسول اللّه وأبا بكر ثيابا بيضاً[3]، وأبطأ عليهما بعضُ الظهر، فلقيهما رجل من أسلم يسمى أوس بن حُجر، على جمل له يسمى: ابن الرداء، فحمل الرسول عليه، وبعث معه غلامه مسعود بن هنيدة، حتى قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف لاثنتي عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول، يوم الإثنين، حين اشتد الضحى، وكادت الشمس تعتدل[4]، وعندما بلغ الأنصارَ مَخرجُ رسولِ اللّه من مكة مهاجرا إلى المدينة، كانوا يخرجون كل يوم إلى الحرّة ينتظرونه أول النهار، فإذا اشتد الحر رجعوا إلى منازلهم، فلما كان يوم الاثنين الثاني من ربيع الأول سنة أربع عشرة من المبعث (وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق 23 شتمبر (أيلول) سنة 622م) خرجوا على عادتهم، فلما حمي الحر

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3911

(2) : تخريج فقه السيرة للغزالي 168.

(3) : رواه البخاري رقم: 3906.

(4) : أورده ابن عبد البر في الاستيعاب (1 /82) وفي كتابه الدرر وحسنه. وهو مرسل.

رجعوا، وصعد رجل من اليهود على أُطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسول اللّه وأصحابَه فصرخ بأعلى صوته: يا معشر العرب (يا بني قيلة) هذا جَدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون إلى السلاح، فتلقَوا رسول اللّه بظهر الحرة، وسُمعت الرجة والتكبير في بني عمرو بن عوف، وكبر المسلمون فرحا بقدومه، وخرجوا للقائه، فتلقوه وحيوه بتحية النبوة. وكان من لم يَر الرسول من قبل، يُحَيي أبا بكر ظنا منهم أنه الرسول. وعندما اشتد الحر قام أبو بكر فأظل النبي بردائه، فعرفوا الرسول[1] فأحدقوا به مطيفين حوله، والسكينة تغشاه، والوحي ينزل عليه «(.. فإن اللّه هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير)» ﴿التحريم، آية: 4﴾. وصاح النسوة والخدام والغلمان: جاء محمد، جاء رسول اللّه، اللّه أكبر، جاء محمد[2]. وفي رواية البخاري: أن قدومه كان يوم ثاني ربيع الأول، وتقدم أنه يوم ثاني عشر منه وهو المشهور من رواية ابن إسحاق، وما فرح المسلمون فرَحهم بمقدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كما قال البراء بن عازب، وكان شاهدَ عيان،ولعب الحبشة بحرابهم فرحا به كما قال أنس[3]، وسار رسول اللّه حتى نزل قرب دار أبي أيوب الأنصاري متسائلا: أيُّ بيوت أهلنا أقرب؟ فقال أبو أيوب: داري يا رسول اللّه وهذا بابي، وكان زعماء الأنصار، كلما مر بدار أحدهم دعاه للنزول عنده، آخذا بزمام الناقة، فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: دعوا الناقة فإنها مأمورة، فبركت به على باب أبي أيوب، فنزل في داره، وكانت من طابقين، قال أبو أيوب: لما نزل عليَّ رسول اللّه في بيتي، نزل في السُّفل، وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت له: يا نبي اللّه، بأبي وأمي إني لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهَر أنت فكن في العلو، وننزل نحن فنكون في السفل، فقال: يا أبا أيوب، إنَّ أرفق بنا وبمن يغشانا: أن نكون في سفل البيت، قال: فقد انكسر حبٌّ لنا فيه ماء، فقمتُ أنا وأم أيوب بقَطيفة لنا ما لنا غيرها ننشف بها الماء، تخوفا أن يقطر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم منه يؤذيه[4]. واقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين، وآثروهم على أنفسهم وأخذهم، فاستجلبوا بذلك ثناء اللّه ورسوله، وأنزل اللّه فيهم «(والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)» ﴿الحشر، آية: 9﴾، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم (لولا الهجرة لكنت امرأ من

---

(1) : رواه البخاري رقم: 2906.
(2) : رواه الحاكم في المستدرك (3 /18) وصححه وأشار الذهبي إلى أنه في الصحيحين.
(3) : رواه أحمد (الفتح الرباني 20 /290) وسنده صحيح.
(4) : رواه ابن هشام في قصة الهجرة بسند صحيح. 498/1.

الأنصار)[1]، وقال: (حب الأنصار من الإيمان، وبغضهم نفاق، مَن أحب الأنصار أحبه اللّه، ومن أبغض الأنصار أبغضه اللّه)[2]، وما ورد من إنشاد ولائد الأنصار عند استقبال رسول اللّه: (مجزوء الرمل)

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع... إلخ[3] لا يصح، كما لا يصح إنشاد جواري من بني النجار عند مروره صلى اللّه عليه وآله وسلم بحيهن: (رجز)

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار

وهن يضرِّبن بالدفوف[4].

بناء مسجده صلى الله عليه وآله وسلم بالمدينة

وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم ببناء المسجد - وقد كان يصلي حيث أدركته الصلاة - فاشترى صلى اللّه عليه وآله وسلم أرضا كان فيها نخل ليتيمين من بني النجار، فسويت، وقطع النخل، وصفُّوا الحجارة في قبلة المسجد الذي بني أولا بالجريد ثُم اللبن، ولكن بعد أربع سنين، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يعمل مع أصحابه في بناء المسجد وهم يرتجزون في سرور عظيم:

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة

فانصر الأنصار والمهاجرة[5]

ولقي المهاجرون شدة من فراق الوطن، ومعاناة مناخ المدينة الرطب، حتى أصيب كثير منهم بالحمى، منهم: أبو بكر، وبلال وكان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول: (رجز)

كل امرء مصبَّح في أهله

والموتُ أدنى من شراك نعله

ويرفع بلال عقيرته إذا ارتفعت عنه الحمى قائلا: (الطَّويل)

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلة

بوادٍ وعندي إذخرٌ وجَليل؟

وهل أَردَن يوماً مياهَ مَجَنّة

وهل يبدونْ لي شَامة وطَفيل؟

فأخبرَت عائشة رسولَ اللّه بذلك، فقال: (اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا مكة أو أشد، وصححها، وبارك لنا في صاعها ومُدها، وانقل حُمّاها واجعلها بالجحفة[6]). وتقدم أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقف بالحزْوَرة في سوق مكة قُبيل الهجرة وقال: (واللّه إنك لخيرُ أرض اللّه، وأحب أرض اللّه إليّ، ولولا أني أخرجتُ منكِ ما

---

(1) : فتح الباري (7/ 110 - 112).
(2) : المصدر السابق.
(3) : فتح الباري (7/ 260)
(4) : زاد المعاد (3/ 551).
(5) : رواه البخاري رقم 3906.
(6) : البخاري مع الفتح (7/ 262).

خرجت[1])، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: (اللهم أَمض لأصحابي هجرتهم، ولا تَرُدهم على أعقابهم[2]). وقد استجاب اللّهَ دعاء نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم: فاستطِاب المهاجرون طيبة، واستقروا داعين إلى اللّه، مناصرين رسوله. وأوجب اللّه الهجرةَ على كل مسلم لنصرة الدين وحماية العقيدة، حتى فتحت مكة، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: (لا هجرة بعد الفتح) لأن علة الوجوب: نصرة الدين، وقد انتصر، وفتحت مكة فلا هجرة بعدها، ولكن جهاد ونية. قال عبد اللّه بن عمر رضي اللّه عنه: انقطعت الهجرة يومَ الفتح إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، ولا تنقطع الهجرة ما قُوتل الكفار[3].

ويستدل لوجوب الهجرة على مَن خاف الفتنةَ في دينه. يقول تعالى: «(إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم، قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا ألم تك أرض اللّه واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فأولئك عسى اللّه أن يعفو عنهم وكان اللّه عفوا غفورا)» ﴿النساء، آية: 97..﴾. ومن الجدير بالذكر: أن أحوال المسلمين تغيرت الآن، وأصبح كثير من العلماء والدعاة المخلصين مضطهَدين في أوطانهم، ولا يأمنون على أنفسهم، ولا يتمكنون من الدعوة إلى اللّه تعالى، كما يجب، فنشأ من جراء ذلك ما يسمى باللجوء السياسي في بلاد الكفر - وهو يمنح غالبا بشرط - حيث يأمن الإنسان على نفسه ودينه، ويدعو إلى اللّه بحرية واطمئنان، بخلاف البلاد الإسلامية مع بالغ الأسف، فلا شك في جواز هذه الهجرة والحالة هذه[4]. ويلاحظ القارئ في أحداث الهجرة الماضية، كيف اتخذ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كل ما أمكنه من الاحتياطات، وأعد كل ما تيسر من الوسائل المتاحة، وهو في الوقت نفسه واثق من نصر اللّه وكفايته أعداءه، فكان ذلك تشريعا لأمته، ودعوة عملية إلى اتخاذ الأسبَاب، ومراعاة سنة اللّه في الأخذ بها لحصول مسبباتها، ويأتي الاعتماد على الغيب، والاتكال عليه بعد ذلك، مع الإيمان بأن اللّه قادر على خرق العادة، وإبطال الأسباب إذا أراد، كما وقع في أثناء الهجرة في قصة سُراقة، وسماع الهاتف، ونحو ذلك، وفيها تكريم للرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، وإيذان بعناية اللّه به ونصره، وفي صبر أبي بكر الصديق، وحرصه على سلامة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وصحبته وما بذل في ذلك من

---

(1) : رواه الترمذي (5 /722).
(2) : رواه البخاري مع الفتح (7 /262).
(3) : رواه البخاري في المغازي (الفتح 15 /82).
(4) : انظر فتح الباري (15 /82).

جهد: ترشيحُ لأهليته، واستحقاقه شرف تنويه اللّه به في القرآن بقوله «(... ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن اللّه معنا)» ﴿التوبة، آية: 40﴾، وما تم من حسن استقبال الأنصار له صلى اللّه عليه وآله وسلم، واحتفالهم لذلك، وحرصهم البليغ على نزوله في أحيائهم، وما أبدوه من عواطف إيمانية، ومواقف إيقانية، كل ذلك يدل على ما تُكنهِ قلوبُهم من حب صادق، وإخلاص عظيم، وإيثار لما يُرضي اللّه ورسَوله، فكانوا بذلك أهلا لما نالوه من تكريم إلا هي وتنويه نبوي، فليهنأوا بفضل اللّه وكرمه، رضي اللّه عنهم وأرضاهم.

وبعد الفراغ من بناء المسجد -وقد استغرق اثني عشر يوما- ومساكن الرسول وأزواجه انتقل صلى اللّه عليه وآله وسلم إليها من بيت أبي أيوب، وكان البناء متواضعا من جريد وطين وحجارة مرصوصة. وقد ضُمت هذه المساكنُ إلى المسجد بعد وفاة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم: زمن عبد الملك بن مروان[1]، وتفاوض المسلمون في وسيلة لجمع الناس للصلاة، واقترح بعضهم: البوق، وبعضهم الناقوسَ، وكره الرسولَ صلى اللّه عليه وآله وسلم ذلك لما فيه من التشبه باليهود واالنصارى، فرأى عبد اللّه بن زيد رضي اللّه عنه في منامه، من لقنه صيغة الأذان، فأخبر بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأمره بتلقينها بلالا، وبينما هم كذلك إذ جاء عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فأخبره أنه رأى نفس الرؤيا، فأقرها رسول اللّه وأذن بلال، وكان هذا في السنة الأولى للهجرة. وظل مسجد رسول صلى اللّه عليه وآله وسلم على حاله إلى أن زاد فيه عمر، وجعل عمده خشبا، وجدد سقفه وحذر من تحميره وتصفيره حتى لا يفتن المصلين، ولما كان عثمان رضي اللّه عنه زاد زيادة كبيرة، وبنى جدرانه وأعمدته بالحجارة المنقوشة، وسقفه بالساج[2]. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يخطب مستندا إلى جذع في مُصلاه، ثم صُنع له منبر، فعدل إليه فخار الجذع وحن حنين العشار، لما كان يلقَى عنده من موعظة وذكر، فرجع إليه صلى اللّه عليه وآله وسلم واحتضنه حتى سكن، كما يفعل بالمولود الذي يسَكَّت[3]. وهذا من أعلام نبوته صلى اللّه عليه وآله وسلم. قال الحسن البصري بعدما رَوَى حديث الجذع عن أنس وهو يبكي: يامعشَرَ المسلمين، الخشبة تحِن إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم شوقا إليه، أو ليس الرجالَ الذين يَرجون لقاءه أحقّ أن يشتاقوا إليه[4]؟ وهذا من مشاعر الإيمان الصادق، والحب الخالص.

---

(1) : سبل الهدى والرشاد للصالحي (3 /506).
(2) : فتح الباري (3 /160).
(3) : رواه البخاري (الفتح (14 / 95).
(4) : دلائل النبوة للبيهقي (2 / 559).

واضطلع المسجد النبوي برسالته منذ ذلك الوقت، فكان مأوى لضعفاء المسلمين وغُربائهم، اتخذوا فيه صُفَّة لهم، فسُموا أهل الصُّفَّة، وكانوا من المهاجرين كما كان يأوي إليه من أسلمن من نساء العرب، ولم يجدن المأوى. وكان أول مدرسة عامة لتعليم المسلمين دينهم، ومنبرا للذب عن الإسلام ونبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم بواسطة شعراء المسلمين، ومعتقلا لأسرى الحرب، لينتفعوا بما يسمعون من القرآن والحديث، ويشاهدوا من الصلاة، وليتعظ بمرآهم روادُ المسجد، كما وقع في قصة ثُمامة بن أثال، ومستشفى لعلاج المرضى والجرحى، خصوصا في الحرب، كما كانت تفعل رُفيدة رضي اللّه عنها في خيمتها بالمسجد أيام غزوة الأحزاب. كما كان المسجد محكمة للحكم بين الناس، ومركز استقبال الرُّسُل والسفراء، وإدارة شؤون الجيش، وعقد ألوية الجهاد، وبعث السرايا والجيوش، ومجلس شورى المسلمين، ومحل اجتماعهم بقائدهم، ومع بعضهم، لمعرفة أحوالهم، ودراسة شؤونهم، والبت في شكاويهم، إلى غير ذلك من المهام التي كانت تقضى بالمسجد، فلم يكن قط محلا للصلاة فقط كما يتوهم من لا علم عنده[1]. ومما تقدم من بيان ظروف بناء المسجد وصفته، تستفاد أحكام وعبر. منها شراء النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لمكان المسجد من الغلامين أو عمهما، حتى لا يكون هناك استغلال، و أمره صلى اللّه عليه وآله وسلم بنبش قبور المشركين الدارسة، دالٌّ على عدم جواز اتخاد القبور مساجد، ووجوب نبشها، وتطهير البقعة منها، لتطيب وتصلح للعبادة، والابتعاد عن المباهاة والتكلف في البناء، فكان متواضعا طيبا، ليس فيه ما يذكّر بالدنيا وبهجتها، ولما أراد عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه توسعته الأولى قال للبناء: أكنّ الناس من المطر، وإياك أن تُحمر أو تُصفّر فتفتن الناس[2]. وزخرفةُ المساجد بدعة أموية، حدثت أواخر أيام الصحابة.

وقد أشرنا فيما تقدم إلى نظام المؤاخاة الذي سنهُ صلى اللّه عليه وآله وسلم بين المهاجرين والأنصار، والذي كان في السنة الأولى للهجرة، وكان إعلانه بدار أنس[3]، وقد تجلى فيه خُلق الإيثار بشكل لم يعرفه التاريخ قبل ذلك، فقد قال الأنصار لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن شئت فخذ منا منازلنا، فقال لهم خيرا، وقالوا له صلى اللّه عليه وآله وسلم: اقسم بيننا وبينهم ـ المهاجرين ـ النخل، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لا يكفونكم المؤنة، ويشركونكم في الثمر، قالوا: سمعنا وأطعنا[4]. واقترعت الأنصار على سكنى المهاجرين

(1) : المسجد في الإسلام لخير الدين وانلي.
(2) : فتح الباري (3/107 - 108).
(3) : رواه البخاري ومسلم رقم: 2529.
(4) : رواه البخاري (الفتح (14/ 264).

منازِلَهم، فاستضافوا ضيوف رسول اللّه، وآثروهم وحرموا أنفسهم، وبلغ أمرُهم إلى التوارث بينهم على غير رَحم، قال ابن عباس: كان المهاجرون لما قدموا المدينة يرث المهاجر الأنصاري دون ذوي الرحم للأخوة التي آخى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بينهم[1]. لما عز الإسلام، واجتمع الشمل، وزالت وحشة الغُربة، وفتح اللّه على المسلمين من الدنيا، بطل من نظام الأخوة: التوارث، وبقي ما عداه، وأنزل اللّه تعالى: «(وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب اللّه من المؤمنين والمهاجرين إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا، كان ذلك في الكتاب مسطورا)» ﴿الأحزاب - آية:5﴾. وكان ذلك بعد غزوة أحد[2]. ومن صور المؤاخاة العجيبة: ما صح عن سعد بن الربيع أنه قال لعبد الرحمن بن عوف رضي اللّه عنهما وقد آخى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بينهما: إني أكثر الأنصار مالا. فأقسم لك نصف مالي، وانظر أيّ زوجتيّ هويت نزلتُ لك عنها، فإذا حلت تزوجتَها، فقال عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ فدُل على سوق بني قَينُقاع، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن. ثم أخذ يتردد على السوق يبيع ويشتري حتى استغنى بماله عن مال أخيه سعد، وتزوج امرأة من الأنصار، أمهرها بنواة من ذهب، وطلب منه الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يولم ولو بشاة بهذه المناسبة[3]، وفي نظام المؤاخاة هذا من الفوائد والعبر، ما يطول القول فيه، وقد ألهمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لما فيه من التعاضد والتراحم الزائد على مطلق أخوة الإيمان، فكان مجلبة لرضى اللّه تعالى عنهم، والتمكين لهم في الأرض، وإظهارهم نماذج عملية لتطبيق مبادئ الإسلام وأخلاقياته. ولاستمرار مشروعية هذا النظام فيما عدا التوارث، يمكن المسلمين اعتماده وإحياؤه، لتحقيق أهداف أسمى، وفوائد أغلى، وثمرات أنفع، لما يترتب عليه من حقوق وواجبات أخص. وفي صنيع عبد الرحمن بن عوف مع أخيه سعد بن الربيع: ما يدل على سمو الهمة، والتعفف، والحرص على العمل، والبعد عن التواكل.

دستور المدينة

وبعد استقرار الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بالمدينة، ونظره فيمن حوله من اليهود والمشركين والمهاجرين الطارئين والأنصار، أراد أن يضع وثيقة سميت بالصحيفة أو الكتاب، اعتبرت أول دستور سياسي، أو قانون مدني إن صح التعبير، تحدد الحقوق والواجبات

---

(1) : رواه البخاري رقم: 4580.
(2) : رواه ابن سعد في الطبقات بسنده عن عروة، فانظر السيرة النبوية الصحيحة (246/1).
(3) : رواه البخاري رقم 2048.

بين أهل المدينة، وتنظم علاقات بعضهم ببعض، وقد رويت ألفاظ متعددة، مختصرة تارة ومطولة ومن طرق كثيرة، لا تخلو طريق منها من مقال، ولذلك اختلفت أنظار النقاد فيها، فمنهم من صححها، ومنهم من وهنها، ولعل أعدل الأحكام في شأنها: القول بأنها من الحسن لغيره، لتعاضد وجوهها وطرقها، ووجود شواهد صحيحة لكثير من فقراتها، وقد أورد نصها كاملا ابن هشام[1] من القدماء، ومحمد[2] حميد الله من المحْدَثين، وهي في الأصل وثيقتان أدمجتا، إحداهما: تنظم علاقات المسلَمين، والأخرى في معاهدة اليهود. وهذه الأخيرة كتبت بعد غزوة بدر الكبرى، والأولى قبلها[3] ولولا طول الوثيقة لأوردتها لما فيها من أحكام وتنظيمات، لم يقع التاريخ على أحسن منها الآن. وهي تحتوي على قواعد عامة، ثم فصول تتعلق بالمسلمين، و أخرى باليهود وهي تشير إلى أن آصرة العقيدة هي الجامعة بين المسلمين حيث كانوا، وعليها تبنى دولة الإسلام، وإلى المساواة في المعاملات العامة، ومنع إيواء المجرمين، ومنع الصلح المنفرد مع العدو وإجارته، ودفع الظلم والعدوان عن النفس، والمال، والعرض، وتشريع القود من القاتل، ووجوب الذب عن الدولة، وفداء الأسرى، وضمان حرية العقيدة بشروطها، وتقرير حُرمة المسلم والجار، وإرجاع السلطات، ورد حق التشريع كله إلى اللّه ورسوله، إلى غير هذا من المبادئ والأحكام الدولية المهمة[4]. وكانت قريش طيلة هذه المدة، تتبع أخبار رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار، يأكل الحقد قلوبها، وتقض مضاجعها أنباء المآخاة والتناصر المتين، والتعاضد الكامل الذي أرسَى الإسلامُ قواعده، ونماه رسوله بالرعاية والحماية والتبشير، فكانت تتلمس الثغرات، و تتطلب العورات، لتنفذ إلى ما يمكنها من الإفساد والوقيعة، فوجدت في عبد اللّه بن أبي ابن سلول زعيم المنافقين، ضالتها المنشودة، فكتبت إليه مهددة متوعدة تقول: إنكم أوليتم صاحبنا، وإنا لنقسم باللّه لتقاتلنه، أو لتخرجنه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم[5]. وصادف هذا هوى في نفس المنافق الموتور، الذي كان أهل المدينة ينظمون له الخرز ليتوّجوه ملكا عليهم، فقدم عليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مهاجرا، فبطل ذلك كله، وقام في إيذاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمين على قدم وساق، وبلغ ذلك رسول اللّه فأراد عقابه، فتظاهر بالإسلام، قال سعد

---

(1) : سيرة ابن هشام (2/ 167..).
(2) : مجموعة الوثائق السياسية ص 41 - 47.
(3) : السيرة النبوية الصحيحة لأكرم ضياء العمري (1 /276) ط. الأولى.
(4) : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة لمهدي رزق اللّه أحمد. ص306 ...
(5) : رواه أبو داوود - كتاب الخراج بسند صحيح.

بن عبادة سيد الخزرج: أعف عنه يا رسول اللّه واصفح، فوالذي أنزل عليك الكتاب، لقد جاء اللّه بالحق الذي أنزل عليك، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة على أن يتوّجوه بالعصابة، فلما أبى اللّه ذلك بالحق الذي أعطاك اللّه، شرق بذلك، فذلك فعل به ما رأيت[1]. ولكنه لم يهدأ ويَرْعَو، بل جمع كفار المدينة ومنافقيها، وحرضهم على قتال الرسول والمسلمين، فلما بلغ ذلك الرسول قال لهم: (لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟ فلما سمعوا ذلك منه صلى اللّه عليه وآله وسلم تفرقوا[2]. فأرسلت قريش إلى المسلمين تهديدا آخر تقول فيه: لا يغرنكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم، ونبيد خضراءكم في عقر داركم[3].

وكان لهذا التهديد المستمر أثره، فخاف المسلمون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وتناوبوا على حراسته ليلا حتى نزل عليه قوله تعالى: «(واللّه يعصمك من الناس)» ﴿المائدة، آية: 67﴾، فقال لأصحابه: يا أيها الناس انصرفوا عني، فقد عصمني اللّه عز وجل[4]، و دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ذات ليلة لسعد ابن أبي وقاص عندما جاء يحرسه خوفا عليه[5]. وكان المسلمون في غاية اليقظة والاحتراس من قريش التي لم تسمح حتى لفرد واحد من الأنصار بالإعتمار، فقد قصد سعد بن معاذ مكة معتمرا، ونزل ضيفا على أميةَ بن خلف، وطلب منه أن ينظر له ساعة خلوة ليطوف بالبيت آمنا، فاختار له أميةُ نصف النهار، لغفلة الناس فيه، فخرجا، ولقيه أبو جهل، وسأل عنه أميةَ فأخبره فقال له: أتطوف بالكعبة آمنا وقد آويْتُم محمدا وأصحابه، وتشاجرا فكان مما قال سعد له: واللّه لئن منعتني أن أطوف بالبيت، لأقطعن متجَرَك بالشام، و هدده بأن الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم سيقتله، فقال أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد هذا الوادي. فقال سعد: دعنا عنك يا أمية فواللّه لقد سمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه و سلم يقول: إنهم قاتلوك. قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أمية فزعا شديدا[6]. وقد كان ذلك، فقُتل عدو اللّه ببدر[7].

الإذن بالقتال

وكان من جراء هذا العداء، وما سبقه من طغيان واضطهاد

---

(1) : رواه البخاري رقم: 4566.
(2) : رواه أبو داود - كتاب الخراج.
(3) : ذكره المنصور فوري في كتابه (رحمة للعالمين) ولم يذكر مصدره.
(4) : رواه الترمذي وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم: 3350.
(5) : رواه البخاري رقم: 2885.
(6) : رواه البخاري رقم: 3950 وأحمد في المسند.
(7) : رواه البخاري رقم 3632.

في مكة: أن أذن الله تعالى لنبيه في القتال دفاعا عن النفس، ولم يفرضه عليه، فأنزل عليه: «(أذن للذين يقاتَلون بأنهم ظلموا، وأن الله على نصرهم لقدير)» ﴿الحج، آية: 39﴾. قال أبو بكر: لما نزلت عرفتُ أنه سيكون قتال، وقال ابن عباس: هي أول آية في القتال[1]، و كان دفاعاً فقط، ثم فرض الله بعدُ قتال من يقاتلهم فقال: «(وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم و لا تعتدوا)» ﴿البقرة، آية: 190﴾. ثم في المرحلة الأخيرة، شَرَعَ الله جهادَ المشركين جميعا فقال: «(وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلوكم كافة)» ﴿التوبة، آية: 36﴾. وللتدرج في مشروعية الجهاد: مراعاةُ الواقع، ومواجهتُه بالوسائل المكافئة له، فكانت أولا بالدعوة والبيان والتصحيح، ثم باستعمال القوة لإزاحة العوائق، وتأمين الدعوة، ثم بالجهاد العام لإعلاء كلمة الله، وفتح الأمصار، بعد فتح البصائر والقلوب، لتبليغ وحي الله، وترسيخ قدم التوحيد وإزالة أنظمة الكفر والطغيان، وإخضاعها لشرع الله، وتحرير البشر من عبوديتها، وتوجيههم لعبادة الله وحده.

بناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعائشة رضي الله عنها

وفي هذه الأثناء تم بناء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بزوجه عائشة رضي الله عنها، وكان عقد عليها وهو بمكة، وهي بنت ست سنوات، ودخل بها في شوال بالمدينة وهي بنت تسع[2].

إرسال (السرايا والبعوث)

• سرية سيف البحر

وبعد الإذن بالقتال، أخذ المسلمون في إعداد العُدة لرد عدوان قريش المتواصل، فكان أول ما عملوا:

أن فكّروا في قطع الطريق على قوافل المشركين التجارية، ثم أخذ صلى الله عليه وآله وسلم في إرسال السرايا والبعوث لتحقيق هذا الهدف، فأرسل سَرية سيف البحر، برئاسة عمه حمزة، إلى سَيف البحر من جُهينة، و فيها لَقُوا أبا جهل، فحال بينه وبينهم حليفُ الفريقين مخشي- أو مجدي- ابن عَمرو الجهني، وكان ذلك في ربيع الأول سنة اثنتين، أو في رمضان من السنة الأولى[3].

• سرية عبيدة بن الحارث

وفي الوقت نفسه بعث صلى الله عليه وآله وسلم سرية عبيدةَ بن الحارث حتى بلغ ثنية المرة، حيث وَجَدَ جمعا من المشركين، ولم

---

(1) : صحيح جامع الترميذي رقم: 2535.
(2) : رواه البخاري رقم: 3394 ومسلم رقم: 1423.
(3) : سيرة ابن هشام (595/1) وطبقات ابن سعد (6/2) ودلائل النبوة للبيهقي (3/10-15)

يقَع بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه رَمَى يومئذ بسهم، فكان أول سهم رُمي في الإسلام، وفر يومئذ من المشركين إلى المسلمين، المقداد بن عمرو. وعتبة بن غزوان. وكانا حُبسَا من قِبل المشركين[1]،

غزوة الأَبواء

ثم خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الأبواء غازيا في صَفَر على رأس اثنى عشر شهراً من مُهَاجَره، فكانت أول غزوة، تليها غزوة بُواط، ثم العشيرة[2]، والأبواء قَرية بينها وبين الجحفة إثنا عشر ميلا، وتسمى غزوة ودان، وودان والأبواء، قريتان متقاربتان، بينهما بضعة أميال، وأراد بها صلى اللّه عليه وآله وسلم بني ضمرة. واعتراض عير لقريش، ولم يلق قتالا، لكنه وادَع بني ضمرة من كنانة على أن لا يُعينوا عليه أحداً. وكتب في ذلك لزعيمهم مَخشي بن عمرو.

غزوة بواط

و في ربيع الأول على رأس ثلاثة أشهر من الهجرة: خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم غازيا إلى بَطن بُواط، وهو من جبال جهنية في ناحية رَضوَى، في طلب مَجدي أو مَخشي ابن عمرو الذي وَادعه كما تقدم و لم يلقَ قتالا[3]. و هاتان الغزوتان، فاتتا زيدَ بن أرقم الذي أجاب من سأله: كم غزا صلى اللّه عليه وآله وسلم من غزوة، فقال: تسع عشرة، فقيل له: كم غزوتَ أنت معه؟ قال: سبع عشرة، قيل له: فأيُّهم كان أول، قال: العشيرة أو العشير[4]. والواقع أن غزوة العشيرة هي الثالثة، فيكون مجموعُ المغازي إحدى وعشرين غزوة[5]. قاتل صلى اللّه عليه وآله وسلم بنفسه في ثمان: بدر، ثم أحد، ثم الأحزاب، ثم المصطلق، ثم خيبر، ثم فتح مكة، ثم الطائف، ثم حنين، قاله موسى ابنَ عقبة. ولم يلق صلى اللّه عليه وآله وسلم قتالا في العُشيرة، وهي مكان لبني مُدلج بناحية يَنبُع، وكانت في جمادى الثانية على رأس ستة عشر شهراً من الهجرة[6].

• سرية نخلة

وفي رجب على رأس سبعة عشر شهراً من الهجرة، بعث صلى

(1) : ابن هشام (1/ 591).
(2) : رواه البخاري رقم 3949.
(3) : رواه مسلم رقم: 3009.
(4) : رواه البخاري رقم: 3949.
(5) : رواه مسلم رقم: 1813.
(6) : رواه البخاري رقم: 3949، وابن هشام (2/ 284).

اللّه عليه وآله وسلم ثمانية رهْط وأمَّر عليهم أبا عبيدة، فلما ذَهَب لينطلق بكى صبابةً إلى رسول اّللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فجَلس، فأمَّر صلى اللّه عليه وآله وسلم مكانه عبد اللّه بن جَحش، وكتب له كتاباً، وأمره أن لا يقرأه إلا بمكان كذا وكذا، وقال له: لا تُكرهن أحداً من أصحابك على المسير معك، فلما قرأ الكتابَ استرَجَع وقال: سمعا وطاعة للّه ورسوله، وقرأ عليهم الكتابَ[1]، ومضمنه: المسير إلى نخلة، بين مكة والطائف، لرصد عير لقريش، ومعرفة أخبارهم، فرجع من الرهط رجلان، وسار الباقي حتى بلغوا نخلة، فلقُوا عمرو بن الحضرمي وجماعة، فتشاوروا في الاستيلاء على العير، وكان ذلك آخر رجب وهو شهرِ حرامٍ، وعلموا أنهم إن تركوهم امتنعوا منهم بدخول الِحرم، فقتلوا عمراً، وأسروا عثمان بن عبد اللّه ابنِ المغيرة، والحكم بن كَيسان، وأفلت منهم نوفل أخو عثمان، وأقبلوا بِالعير والأسيرين إلى المدينة، فأبى صلى اللّه عليه وآله وسلم من قبول العير والأسيرين[2]، وأكثر المشركون من التشنيع على المسلمين، لاستحلالهم الشهرَ الحرام[3]، فأنزل اللّه «(يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل اللّه وكفر به والمسجد الَحرام وإخراج أهله عنه أكبر عند اللّه، والفتنة أكبر من القتل، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون، إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللّه أولئك يرجون رحمة اللّه، واللّه غفور رحيم)» ﴿البقرة، آية: 217...﴾ وقال بعضهم: إن لم يكونوا أصابوا وزرا، فليس لهم أجر. فأنزل اللّه «(إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل اللّه، أولئك يرجون رحمة اللّه و اللّه غفور رحيم)»[4]. وفرج اللّه عن المسلمين ما كانوا فيه، وأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم العير والأسيرين، فأرسلت قريش فداء الأسيرين، فاشترط الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يكون بعد مجيء سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غَزوان، خشية منه عليهما من قرِيش، وكانا تخلفا عن القوم قبل وُصولهم نخلة، للبحث عن بعير أضَلاّه. وفي سرية نخلة هذه من الفوائد والعبر: مشروعية الرسائل السرية. لتنفيذ عملية فدائية كانت أول عملية قَرُبَ المسلمون فيها من مكة. متعرضين للعير، ومستطلعين أخبار أعدائهم، واعتبارا للقيم الدينية، وتقديرا للبواعث الشرعية، والأهداف السامية، دون الوقوف الحرفي مع

---

(1) : سيرة ابن هشام (595/1) وطبقات ابن سعد (6/2) ودلائل النبوة للبيهقي (3/ 10 - 15).
(2) : ابن هشام (1/ 591).
(3) : رواه البخاري رقم 3949.
(4) : رواه الطبراني في الكبير رقم: 1670 انظر مجمع الزوائد (6/ 198).

الرسوم، فقد رد الله على المشركين تشنيعهم على المسلمين، لقتالهم في الشهر الحرام، متغاضين عن جرائمهم في الصد عن سبيل اللّه، وتأييد الكفر، وإخراج أهل المسجد الحرام منه ظلما وعدوانا، وهي أكبر من القتال في الشهر الحرام، وهذا يتضمن إبطال مبدئهم العام في تقديس القوانين التي هي في صالحهم، إهدار الحقوق والواجبات إذا تعارضت معها، كما قال تعالى: «(و إن يكن لهم الحقّ يأتوا إليه مذعنين)» ﴿النور، آية: 50﴾. والعجب أن هذا المبدأ المعوج، هو السائر في الدنيا إلى الآن، حيث أعلنه النظامُ العالمي الجديد، وهو يقوم على هذا المبدأ قياما تاما، كما بين اللّه تعالى في الآية النازلة في هذه السرية: أن لا هوادة مع المشركين الذين لا يزالون يقاتلون المسلمين حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا، وأخبر تعالى أن من ارتد من المسلمين إليهم، فقد حبط عمله دنيا وأخرى، وأنه مخلد في النار إن مات على ذلك.

تحويل القبلة

وفي النصف من شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من الهجرة، حَدَث حَدثٌ مهم، وهو تحويل القبلة من بيت المقدس إلى البيت الحرام، و كان صلى اللّه عليه وآله وسلم يصلي نحو الأول ستة عشر أو سبعة عشر شهرا وكان يهود يعجبهم ذلك، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه من أجل ذلك كان يقلب وجهه في السماء، متمنيا مترقبا فأنزل اللّه تعالى: «(قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام)» ﴿البقرة، آية: 144﴾ وصلى أول صلاة إلى الكعبة، وكانت صلاة العصر، فصلى معه قوم، فخرج رجل ممن صلى معه فمر على أهل مسجد و هم راكعون، فقال: أشهد باللّه لقد صليت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قبَل مكة، فداروا- كما هم- قبل البيت، ولما بلغ ذلك اليهود أنكروه. وقال ابن عمر: بينما الناس في صلاة الصبح بقباء، إذ جاءهم آت فقال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد أنزل عليه الليلة، وقد أمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها. وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة، ولما وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الكعبة قالوا: يا رسول اللّه، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس؟ فأنزل اللّه تعالى: «(وما كان اللّه ليضيع إيمانكم)» ﴿البقرة، آية: 143﴾أي صلاتكم[1].

فرض الصيام

وفي هذه السنة، ويقال في شعبان منها: فرض صوم رمضان، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم لما قدم المدينة، وجد يهود يصومون

(1) : رواه البخاري رقم: 399 ومسلم رقم: 526 - 527.

عاشوراء، فصامه وأَمَر بصيامه، ولما أُمر بصوم رمضان، كان هو الفرض، وخير في صوم عاشوراء[1].

غزوة بدر

وفي رمضان بعده، يوم الجمعة السابع عشر منه، كانت غزوة بدر الكبرى، قال ابن مسعود رضي الله عنه عن ليلة القدر: التمسوها في سبع عشرة و تلا آية «(يَومَ التَقَى الجمعان)» ﴿الأنفال، آية: 41﴾ يوم بدر.

وكان من أمرها أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بلغه عن عير لقريش قدمت من الشام، يقودها أبو سفيان ومن معه، قال أنس فجاءه بسبسة عينُه، وما في البيت غيري و غيره صلى اللّه عليه وآلهِ وسلِم فحدثه عن العير، فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: إن لنا طَلِبَةً، فمن كان ظهره حاضرا فليركب معنا، فاستأذنه بعضهم فيِ ظهرانهم في علو المدينة، فقال: لا، إلا من كان ظهره حاضرا[2]، وشاور صلى اللّه عليه وآله وسلم المسلمين، فتكلم أبو بكر وعمر، فأعرض صلى اللّه عليه وآله وسلم عن كلاهما، فقام سعد بن عبادة وقال: إيانا تريد يا رسول اللّه. والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نُخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بَرك الغَماد لفعلنا، قال: فندب صلى اللّه عليه وآله وسلِم الناس فانطلقوا[3].

وكان قد قال لهم: هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل اللّه يُنفلكُمُوها، فانتدب الناس، فخف بعضهم وثقل بعضهم لظنهم أن رسَول اللّه لن يلقى حربا، وكان أبو سفيان تحسس الأخبار لما دنا من الحجاز، فسمع من بعض الركبان: أن محمدا استنفر أصحابه للعير، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة يستنفر المشركين إلى أموالهم، مخبرا أن محمدا أمر أصحابه أن يعرضوا للعير[4]، فنفر المشركون في العُدة والعَدد، و قبل وصول ضَمضَم رأت عاتكة بنت عبد المطلب عمة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم رؤيا عجيبة، منذرة بمصير المشركين السيء، ومصرع كثير من زعمائهم، وشاع خبر الرؤيا بمكة، فأغضب أمرُها أبا جهل، واستهزأ بها وبعاتكة، واصفا إياها بالنبية. وهذا تفصيل الخبر: قال عروة بن الزبير: رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا أفزعتها، فقالت لأخيها العباس: إني رأيت رؤيا أخاف أن يدخل على قومك منها شر، وحدثته بها مستكتمة، قالت: رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف

---

(1) : رواه البخاري رقم: 4503.
(2) : رواه مسلم رقم: 1901.
(3) : رواه مسلم رقم: 1779.
(4) : رواه ابن هشام (2/ 606) بسند صحيح.

بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا أنفِروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث، فاجتمع إليه، و دخل المسجد وِ هم وراءه، فمثل به بعيره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يالغدر لمصارعكم في ثلاث، فاجتمع إليه، ودخل المسجد وهم وراءه فمثل به بعيُره على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يَاَلغُدَر لمصارعكم في ثلاث، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قَبَيس، فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها،فأقبلت تهوي حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت، فلم يبق بيت ولا دار من مكة إلا دخلته منها فلقة، قال العباس: واللّه إن هذه لرؤيا، اكتُميها ولا تذكريها لأحد، ثم لقي العباس عتبة بن ربيعة وكان صديقا له، فأخبره بها واستكتمه، ولكنه ذكرها لابنه ففشا خبرها حتى تحدثت به قريش في أنديتها.
قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأت عاتك، قلت: وما رأت؟ قال: يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم، حتى تتنبأ نساؤكم، فقد زعمت عاتكة أنّه قيل في رؤياها: انفروا في ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقا ما تقول، فسيكون، وإن مضت الثلاث ولم يكن شيء، نكتب عليكم كتابا: أنكم أكذب أهل بيت في العرب، قال العباس: فلم يكن مني إلا جحود ذلك، وأنكرت أن تكون عاتكة رأت شيئا، وتفرقنا، فلم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني مساء ذلك اليوم فقالت: أقررتم لهذا الفاسق الخبيث، أن يقع في رجالكم؟ وها قد تناول النساء وأنت تسمع، ولم يكن عندك غيرَ لشيء، قال العباس: قد كان ذلك و أيم اللّه، لأتعرضْن له، فإن عَاد لأكفنيكنه، قال فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة، فدخلت المسجد وأنا حديد مُغضب، أحب أن أدرك منه ما فاتني، ورأيته فتوجهت إليه لأثيره فأقع به، وكان خفيفا حديد الوجه واللسان والنظر، فخرج من باب المسجد يشتد، فقلت في نفسي: ما له لعنه اللّه؟ أكل هذا فرق مني أن أشاتمه؟ فإذا هو قد سمع ما لم أسمع، سمع صوت ضمضم يصرخ ببطن الوادي، واقفا على بعيره قد جَدعه، وحول رحله، و شق قميصَه، و هو يقول: يا معشر قريش: اللطيمة اللطيمة (الإبل تحمل البضائع) أموالكم مع أبِي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث، قال: فشغلني عنه وشغله عني ما جاء من الأمر[1].
واستَنْفر أبو جهل الناس بعد أن كاد يثنيهم ما بينهم و بين بني بكر من عداء، فتبدَّى لهم إبليسُ في صورة سُراقة بن جُعْشم المدلجي،

(1): رواه ابن هشام عن عروة مرسلا (1 / 607) بسند صحيح وله طرق.

وكان من أشراف بني كنانة، وقال لهمُ: أنا جار لكم من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا[1]. وتخوف من الخروج أمية بن خلف متذكرا ما قال له سعد بَن معاذ من أنه سمع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: إنه سيقتله، كما تقدم، وكان قد فزع لهذه الكلمة فزعا شديدا، وأخبر بها أهله، وأقسم أن لا يخرج من مكة. ولما وقع الاستنْفار كره أمية الخروج، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذا غلبتَني فواللّه لأشترينَّ أجود بعير بمكة. قال أبو جهل : يا أبا صفوان: إنك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي، تخلفوا معك، فأمر أمية زوجه أم صفوان أن تجهزه، فقالت له: وقد نسيتَ ما قال لك أخوك اليثربي (تعني سعد بن معاذ) قال: لا، ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا، وخرج فقتله اللّه ببدر.

وكان عدد المشركين ألفا و نيفا، عرفه رسول اللّه لما سأل مولى لعُقبة بن أبي مُعيط كان المسلمون أسروه، كم ينحرون من الجزُر كل يوم؟ قال: عشر، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: القوم ألف، كل جَزور لمائة ونيفها[2]. أما عدد المسلمين: فقال البراء بن عازب: كنا أصحاب محمد نتحدث أن عدة أصحاب بدر، على عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر، و لم يجاوز معه إلا مؤمن: بضعة عشر وثلاثمائة، وكانوا في قلة من الظهر. قال ابن مسعود: كنا يوم بدر، كل ثلاثة على بعَير، كان أبو لُبابة وعلي زميلي رسول اللّه، فقالا له: نحن نمشي عنك، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما أنتما بأقوى مني، وما أنا أغنى عن الأجر منكما[3]. واستُصغر عبداللّه بن عمر، والبراء يومَ بدر، فرُدّا، وكان المهاجرون نيّفا على ستين، والأنصار نيّفا على أربعين ومائتين، وأبى صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يستعين بمشرك، فقد أدركه بحَرة الوبرة رجل شجاع، وعرض نفسه عليه، فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: تؤمن باللّه ورسوله؟ قال: لا، قال: فارجع، فلم أستعين بمشرك، ثم عَرَض له بالشجرة فقال له:.فأجابه كما مر. فلما كان بالبيداء، عرَض له فقال له: تؤمن باللّه ورسوله؟ قال: نعم، فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: فانطلق[4]. ووصل المسلمون إلى بدر قبل المشركين لاستطلاع المكان، فأشار عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم الحبابُ بن المنذر أن يترك مياه بدر خلفه ليلا يستفيد منها المشركون، فقبلَ النبي إشارته[5]. وحدد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مصارعَ القوم ببدر، فقال: هذا مصرَع فلان غدا

(1) : رواه ابن هشام (1/ 612) بسند صحيح مرسل.
(2): رواه أحمد في المسند (1/ 117) وأبو داود رقم: 2665.
(3) : رواه أحمد رقم: 3901 ط. شاكر وحسنه، والبخاري رقم: 3956 - 3958.
(4) : رواه مسلم رقم: 1818.
(5): الإصابة لابن حجر (1/ 302).

إن شاء اللّه، قال عمر: فوالذي بعثَه بالحق ما أخطأوا الحدودَ التي حدد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، ثم استشار صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه للمرة الثانية عملا بمبدأ الشورى، واستطلاعا لرأي الأنصار الذين كانوا أغلبَ الحاضرين، وكان الإنطلاق من أرضهم، وكانت الاستشارة الأولى حين بلغه إقبال أبي سفيان. أما هذه فكانت بعد أن خرج[1]، وتكلم أبو بكر وعمر، ثم قال المقداد بن عمرو: يا رسول اللّه، إمض لما أراك اللّه فنحن معك، و اللّه لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «(إذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون)» ﴿المائدة، آية: 24﴾ ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق، لو سرتَ بنا إلى بَرك الغماد، لجالدنا معك مَن دونه حتى تبلغَه، (و قد سبق مثل هذا القولَ عن سعد بن عبادة)، فقال له رسول اللّه: خيرا، ودعا له، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، وإنما يريد الأنصار، وهم أكثر الناس، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يتخوف أن لا يروا نصره، إلا إذا دَهَمه العدو بالمدينة، وقد كانوا قالوا له عند بيعة العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلينا، فإذا وصلتَ إلينا، فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فتكلم سعد بن معاذ وقال: لكأنك تريدنا يا رسول اللّه؟ قال: أجل، قال: قد آمنا بك و صدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، أعطيناكِ على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع و الطاعة، فامْض يا رسول اللّه لما أردتَّ، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضتَّ بنا هذا البحرَ فخضتَه لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن تلقَى بنا عدونا غداً، إنا لصُبُر في الحرب، صُدُق عند اللقاء، لعل اللّه يريك منَّا مَا تقَر به عينك، فسر بنا على بركة اللّه، فسُر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بقوَل سعد، ونشطه ذلك، ثم قال: سيروا وأبشروا، فإن اللّه تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، واللّه كأني أنظر إلى مصارع القوم[2].

وقبل نشوب القتال، وقع شبه انشقاق في المشركين، إذ قال عتبة بن ربيعة ينهاهم عن القتال، وكان يركب جملا أحمر، وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين رآه: إن يكن في القوم أحد يأمر بخير، فسعى أن يكون صاحب الجمل الأحمر: يا قوم إني أولي قوما مستميتين، لا تصلون إليهم وفيكم خير، يا قومُ اعصبوها اليومَ برأسي، وقولوا: جبنُ عتبة بنُ ربيعة، وقد علمتم أني لست بأجْبَنكم، فسمعه أبو جهل وقال: أنت تقول هذا؟ واللّه لو غيرك يقول لأعْضَضته، قد ملأت رئتُك سمرك رُعْبا، فقال عتبة: إيايَ تعني يا مصفّر إسته، ستعلم اليوم أينا الجبان[3]. وأصابَ المسلمين ليلة

(1) : انظر فتح الباري (8/ 288).

(2): رواه ابن هشام (1/ 614) بسند صحيح.

(3) : رواه أحمد (1/ 117) وأبو داود رقم: 2665.

المعركة طش من مَطَر، استظلوا منه بالشجر والحَجَف[1]، وبات رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يدعو ربه و يقول: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال صلى اللّه عليه وآله وسلم يهتف بربه مادّاً يديه، مُستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه على منكبيه، فأتاه أبو بكر، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من وراءه، وقال: يا نبي اللّه، كفاك مُناشدَتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فأنزل اللّه عز وجل «(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)» ﴿الأنفال، آية:9﴾، فأيده اللّه بالملائكة ولما طلع الفجر نادى صلى اللّه عليه وآله وسلم: الصلاةَ عبادَ اللّه، فجاء الناس من تحت الشجر والحَجَف، وصلى بنا رسول اللّه وحض على القتال[2]، ودعا ربه أيضا: اللهم إني أنشدك عهدَك ووعدَك، اللهم إن شئتَ لم تعبد فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك. فخرج وهو يقول: «(سيهزم الجمع ويولون الدبر)» ﴿القمر، آية: 45﴾[3]، قال عبد اللّه ابن عمرو بن العاص: خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يومَ بدر في ثلاثمائة وخمسة عشر رجلا من أصحابه، فلما انتهى إليها قال: اللهم إنهم جياع فأشبعْهم، اللهم إنهم حُفاة فاحْملهم، اللهم إنهم عُراة فاكْسُهم، ففتح اللّه لهم يومَ بدر، فانقلبوا حين انقلبوا وما منهم رجل إلا و قد رجع بجمل أو جملين، واكتسوا و شَبعوا[4].

ونظم الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم صبيحة اليوم السابعَ عشر من رمضان الجيش بأسلوب جديد، غير أسلوب الكر والفر الذي درج عليه العرب في حروبهم، فصفهم في صفوف، و لهذا الأسلوب مزيته العسكرية، وأعطى اللواء وكان أبيض: مصعبَ بن عمير، وأعطى الرايتين و كانتا سوداوين، إلى علي وسعد بن معاذ، وجعل على الساقة: قيس بن أبي صعصعة[5]. وكان بني لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عريش على هضبة بإشارة سعد بن معاذ، يشرف منه لإدارة المعركة. ولما تراآي الجمعان قال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: لا يقدمن أحد منكم إلي شيء حتى أكون أنا دونه، فزحف المشركون، فنادى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: قوموا إلى جنة عَرضُها السماوات والأرض، فسمعه عمير بن الحمام الأنصاري فقال: يا رسول اللّه: جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ (كلمة تقال للتعظيم)، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما يحملك على قولك: بخ بخ؟ قال:

---

(1) : الحجف جمع حجفة كقصب وقصبة: التروس من جلود ليس فيها خشب.
(2) : رواه أحمد في المسند (1/ 117).
(3) : رواه البخاري رقم: 3953 ومسلم رقم: 1763.
(4) : رواه أبو داود رقم: 2747.
(5) : زاد المعاد (2/ 85).

لا واللّه يا رسولَ اللّه إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها فأخرج تمْراتٍ من قرنه (جعبة السهام) فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييتُ حتى آكل تمْراتي هذه، إنها لحياة طويلة، قال فرمى بما كان معه من التَّمر ثم قاتلهم حتى قتل[1]. و بينما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يدعو ربه في العريش ضارعا ملحا مستنجزا ما وعده. كان أبو جهل اللعين يدعو على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمين ويقول: اللهم أينا كان أقطع للرحم. وأتانا بما لا يُعْرف فأحنه الغداة (أي أهْلكه). وهذا استفتاحه الذي أشار إليه تعالى بقوله: «(إن تستفتحوا فقدَ جاءكم الفتح، وإن تنتهوا فهو خير لكم، وإن تعودوا نعد، ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت، وإن اللّه مع المؤمنين) ﴿الأنفال، آية: 19﴾[2]، وباشر صلى اللّه عليه وآله وسلم القتال بنفسه، فقد قال علي: رضي اللّه عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا، وبدأت المعركة بالمبارزة الفردية.

فنزل إلى الساحة: عتبة بن ربيعة، وأخوه شيبة، وابن الأول: الوليد، فبرز لهم شباب من الأنصار، فرفضوهم طالبين مبارزة قومهم، فأمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم حمزة وعليا وعبيدة بن حارث بمبارزتهم، فقتل حمزةُ: عتبةَ، وقتل علي: شيبة، وجَرَح عبيدة: الوليد فجرحه هذا، فعَاوَنه علي وحمزة، وأجهزوا على الوليد، واحتملا عبيدة الجريح إلى معسكر المسلمين[3]، وبدأ الهجوم العام، وأمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم المسلمين أن يرموا المشركين قائلا: إذا أكثبوكم فارموا واستبقوا نَبلهم، ورمى صلى اللّه عليه وآله وسلم الحصا في وجوه المشركين، وقال: شاهت الوجوه. فما بقي أحد من القوم إلا امتلأت عيناه من الحصباء، فنَزَل قوله تعالى: «(وما رميت إذ رميت ولكن اللّه رمى وليُبْلي المؤمنين منه بلاء حسنا، إن اللّه سميع عليم)» ﴿الأنفال، الآية: 17﴾[4]، حمي الوطيس، فأسفرت المعركة عن مقتل عدد من زعماء الشرك، ولم يتجاوزوا مصارعهم التي عينها صلى اللّه عليه وآله وسلم، منهم: أبو جهل الذي لقبه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بفرعون هذه الأمة[5]. طلبه في الميدان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء وهما غلامان، وكانا لا يعرفانه، فدلهما عليه عبد الرحمان بن عوف لما أخبراه أنهما يريدان قتله لسبه

---

(1) : رواه مسلم رقم: 1901.
(2) : جامع البيان للطبري (13/ 454) ط. شاكر، والمستدرك (2/ 328).
(3) : رواه أبو داود (59/4) وصححه الحافظ في فتح الباري (303/11).
(4) : رواه أبو داود (48/2). والطبري (442/13) ط شاكر. وانظر مجمع البحرين للهيثمي.
(5) : مجمع الزوائد (79/6) وسنده حسن.

رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأَصَابَاه، ورآه ابن مسعود فأجهز عليه[1] بعد أن أخذ بلحيته وقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومُه، أو قال قتلتموه. وذهب الغلامان فأخبرا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بمقتله، فقال: أيكما قتله؟ فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: هل مسحتما سيفيكِما؟ قالا: لا، فنظر في السيفين فقال: كلاكما قتله. وقضى بسَلبه لمعاذ بن عمرو[2].
وكان أمية بن خلف، وعبدالرحمن بن عوف اتفقا أن يَحْفَظ كل واحد منهما للآخر أهله ومصالحه. وكان عبد الرحمن يسمى في الجاهلية عبد عمرو، فأبى أمية أن يدعوه إلا به، وقال: أترغب في اسم سماك به أبوك؟ قال: فأقول: نعم، فيقول: وما الرحمن؟ أنا لا أعرف الرحمن، وحضر بدرا، فذهب عبد الرحمن حين نام الناس ليحرزه إلى جبل، فرآه بلال (وكان أمية يعذبه بمكة) فذهب إلى إلى الأنصار واستنفرهم لقتله قائلا: لا نجوت إن نجا، فخرجوا في أثرهما، قال عبد الرحمن: فخلفت لهم ابنه عليا لأشغلهم بقتله دونه فقتلوه وتبعونا، وكان أمية ثقيلا، فأدركونا فقلت له: ابرك، فبَرك، فألقيت نفسي عليه لأمنعه، فتجللوه من تحتي بالسيوف حتى قتلوه، وأصاب أحدهم رجلي بسيفه، فكان عبد الرحمن يُري من يحدثه أثر الجرح في ظهر قدمه[3]، وممن صرع يومئذ: عبيدة بن سعد بن العاص، لقيه الزبير بن العوام وهو مدجج لا ترى منه إلا عيناه، فحمل عليه وطعنه في عينه فقتله، وأقام صلى اللّه عليه وآله وسلم ببدر ثلاثة أيام[4] وبلغ عدد القتلى المشركين سبعين، والأسرى سبعين، وأصيب من المسلمين سبعون، استشهد منهم ثمانية عشر، منهم حارثة بن سراقة وهو غلام، فجاءت أمه، وقالت: يا رسول اللّه، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يكن في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترَما أصنع؟ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ويحك أوهبلت. أوجنة واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة. إنه في جنة الفردوس[5]. ومنهم: عوذ بن الحارث بن عفراء، قال: يا رسول اللّه، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غَمْسُه يده في العدو حاسرا، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قتل[6].

ومن مظاهر عناية اللّه تعالى برسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم والمؤمنين: إمدادهم يوم بدر بالملائكة إعانة وبشرى وتطمينا، قال تعالى: «(ولقد نصركم اللّه ببدر وأنتم أذلة فاتقوا اللّه لعلكم تشكرون، إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من

---

(1) : انظر فتح الباري (293/7).
(2) : رواه البخاري في المغازي رقم: 2908.
(3) : رواه البخاري - الوكالة بتصرف رقم: 2137.
(4) : رواه الترمذي رقم: 1551.
(5) : رواه البخاري - المغازي. رقم: 3683.
(6) : رواه ابن هشام (627/1). والبيهقي (100/9). والطبري (150/2). بسند حسن. وهو مرسل.

الملائكة منزلين، بلى إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم)» ﴿آل عمران، الآية: 123..﴾ خفق رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خفقة وهو بالعريش قبل بدء المعركة، ثم انتبه فقال أبي: أبشر، أتاك نصر الله، هذا جبريل معتجر بعمامة، آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع، أتاك نصر الله وَعدَته[1]، وثبتت أحاديث في ذلك تلجم الماديين من كتاب العصر الذين يتحامون مثل هذه المعجزات لمخالفتها لعقلانيتهم المنافية للإيمان، وقد خفيت عليهم الحكمة في ذلك، فتساءلوا: لماذا ألف من الملائكة، وواحد منهم قادر على إهلاك المشركين جميعا، وعموا عن قوله تعالى: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) الموحي بأن ذلك كان على طريق اتخاذ الأسباب لجلب الاطمئنان إلى قلوب القلة من المؤمنين، مع ضآلة العُدّة والظهر، وللبشرى بالمآل في مواجهة كثرة العدد والعدة، وطغيان الشرك، فلذلك كان المدد في صورة بشر يقاتل بسلاح معتاد، لا يمتاز بقوة ولا مظهر إلا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يصفهم لأصحابه، ويخبرهم ببعض ما وقع منهم[2]. وقد أمر صلى الله عليه وآله وسلم بسحب قتلى المشركين إلى آبار ثمة فألقوا فيها، ودفن شهداء المسلمين، ولم يُرْوَ أنه صلى عليهم، وأمر بجيَف أربعة وعشرين من صناديد قريش، فقذفوا في القليب. وركب صلى الله عليه وآله وسلم راحلته في اليوم الثالث، ومعه أصحابه، حتى وقف عليهم فجعل يناديهم بأسمائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان، أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله؟ فإنا قد رجزنا ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: والذي نفس محمد بيده، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، قال قتادة: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخا وتصغيرا، ونقمة وحسرة وندما[3]. وقد بلغ هذا عائشة رضي الله عنها فأنكرته وقالت: إنما قال صلى الله عليه وآله وسلم: إنهم ليعلمون أن الذي كنت أقول لهم هو الحق، ثم قرأت: «(إنك لا تسمع الموتى)» ﴿الروم، الآية: 52﴾. والواقع أنها رضي الله عنها لم يبلغها تصريح النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالسماع، وقد صح من قول عمر السابق، وحديث أنس وابن عمر رضي الله عنهم، فتمسكت بظاهر الآية، ولا حجة فيها، لأن السماع كان معجزة خارقة للعادة التي هي عدم سماع الموتى، ولها رضي الله عنها مواقف

---

(1) : تخريج الألباني لأحاديث فقه السيرة ص 243.
(2) : فتح الباري (313/7).
(3) : رواه البخاري ـ المغازي. رقم: 3679.

غير هذه استدركت فيها على الصحابة حالفها الصواب في بعضها، واللّه أعلم، ثم اشتغل المسلمون بالغنائم والأسرى، وأوصى صلى اللّه عليه وآله وسلم بأسر بعض المشركين ممن خرجوا مكرَهين، وأن لا يقتلوا، وفيهم من كان يحسن إلى المسلمين بمكة، منهم بنو عبد المطلب، وفيهم عمه العباس، وأبو البَخْتَري بن هشام، وكان ممن سعى في نقض صحيفة المقاطعة في الشعب، فأسروا، وقتل أبو البَختري لإصراره على القتال.

واختلف المسلمون على الغنيمة لأن شبابهم استأثروا بمعظمها دون الشيوخ الذين لازموا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأحدقوا به، بينما آخرون يجالدون، ومنهم من أكب على جمع السَّلَب والغنائم، فأنزل اللّه تعالى: «(يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال للّه ورسوله فاتقوا اللّه واصلحوا ذات البين)» ﴿الأنفال، الآية: 1﴾ فقسمها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على وفاق بين المسلمين بعد إخراج الخمس منها[1]، وطلب سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه - وكان يقاتل قتال الراجل والفارس - من النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم سيفا أصابه من المشركين قائلا: يا رسول اللّه: إن اللّه قد شفى صدري من المشركين، أو نحو هذا، هب لي هذا السيف، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: هذا ليس لي ولالك، فقلت: عسى أن يعطى هذا من لم يُبل بلائي، فجاءني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعدُ فقال: إنك سألتني السيف، وليس لي، وإنه قد صار لي، وهو لك[2] واستشار صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه في الأسرى، فقال أبو بكر رضي اللّه عنه: هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار، فعسى اللّه أن يهديهم للإسلام، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما تري يا بن الخطاب؟ فقال: لا واللّه، ما أرى الذي رأى أبو بكرو ولكني أرى أن تمكنَّا فنضرب أعناقهم، فتمكن علياً من عقيل أخيه، فيضرب عنقه، وتمكني من فلان (نسيبا لعمر) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، وكان رأي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مع أبي بكر، فأجاز الفداء. و قال عمر رضي اللّه عنه: فلما كان من الغد جئت فإذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبو بكر قاعدان يبكيان فقلت: أخبرني يا رسول اللّه، من أي شيء تبكي أنت وصاحبك؟ فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أبكي للذي عرض علي أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عُرِض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة - شجرة قريبة منه صلى اللّه عليه وآله وسلم - وأنزل اللّه تعالى: «(ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض، تريدون عرض الدنيا، واللّه يريد الآخرة، واللّه

(1) : رواه مسلم = جهاد. رقم: 3293.
(2) : رواه أحمد في المسند (324/5) والحاكم في المستدرك (195/5) وصححه وأُقر.

عزيز حكيم، ولولا كتاب من الله لمسكم فيما أخدتم عذاب عظيم، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا)» ﴿الأنفال، آية 67﴾ فأحل الله الغنيمة لهم[1]، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمر رضي اللّه عنه: كاد أن يصيبنا بلاء في خلافك[2]. وكانت الفدية متفاوتة بعدما أحلت لهم لإيثارهم إياها على القتل، فمنهم من بلغ فداؤه أربعة آلاف درهم، وفدت زينب بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم زوجها أبا العاص بن الربيع بقلادة كانت لأمها خديجة رضي اللّه عنها، فلما رآها صلى اللّه عليه وآله وسلم رق لها رقة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها الذي لها، فافعلوا؟ فأطلقوه ورد عليها الذي لها[3]، وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بقبض الفدية من عمه العباس، وقال: لا تذرن منه درهما رغم أنه أخبر أنه كان مسلما، وأنه أكره على الخروج إلى بدر، وقد أراد الأنصار إعفاءه منها لمكانته منه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولجرّته النّجّارية[4] فدفع مائة أوقية، كما دفع عقيل بن أبي طالب ثمانين أوقية، ومن لم يكن له مال من الأسرى، جعل له أن يعلم أولاد الأنصار الكتابة[5] ولم يكن المال هدف الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمين بقدر ما كان تحطيم معنويات المشركين، يدل على ذلك قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: لو كان المطعم بن عدي حيا، ثم كلمني في هؤلاء النتنى لأطلقتهم له[6]، وقد سبق أن أجار رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عند رجوعه من الطائف إلى مكة، واستقر حكم الإسلام بعد هذا أن يجعل الخيار لإمام المسلمين في الأسرى بين القتل والفداء والمن عليهم، ما عدا النساء والأطفال إذ لا يجوز قتلهم[7]، وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بقتل بعض الأسرى في طريقه إلى المدينة، كالنضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعَيط، ونادى هذا الأخير: من للصبية يارسول اللّه؟ فأجابه: النار[8]. وتولى قتله علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وقد حمل بشرى النصر إلى المدينة: زيد بن حارثة رضي اللّه عنه راكبا العضباء ناقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قال ابنه أسامة رضي اللّه عنه: سمعتُ الهيعة فخرجت، فإذا زيد قد جاء بالبشارة، فواللّه ما صدقت حتى رأيت الأسرى، وضرب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لعثمان رضي اللّه عنه سهمه، لأنه كان تخلف لتمريض زوجه رقية بنت رسول اللّه، واستوصى صلى اللّه عليه

---

(1) : رواه مسلم رقم: 1763.
(2) : رواه الحاكم في المستدرك. المغازي (رقم: 3228 . وصححه وأقر، وانظر مجمع الزوائد (90/6).
(3) : رواه ابن هشام (623/1) وهو صحيح.
(4) : الفتح (321/7) وتفسير الطبري (73/14) وهو حسن.
(5) : رواه أحمد في المسند (47/4).
(6) : الفتح (323/7).
(7) : المغني لابن قُدامة (704/7).
(8) : مجمع الزوائد (89/6).

وآله وسلم خيرا ببقية الأسرى حتى كان المسلمون يؤثرونهم على أنفسهم بالطعام، قال أبو عزيز، وكان أسره أخوه مصعب بن عُمير ورجل أنصاري كان أسراه يخصانه بالخبز و يأكلان التمر لوصية رسول اللّه، ما تقع في يد أحدهم خبزة إلا ناوله إياها، فأستحيي فأردها، فيردها عليّ ما يمسها.

وقد وقعت أحداث، وجرت أمور في أثناء المعركة وبعدها تشير إلى صدق إيمان المسلمين، واستعدادهم للتضحية في سبيل دينهم بأنفسهم وحرصهم على الاستشهاد في سبيل اللّه، مما جعل هذه الغزوة من أعظم المواقف الحاسمة في تاريخ الإسلام حتى سمى اللّه تعالى يومها: يوم الفرقان، لأنه تعالى فرق يومها بين الحق والباطل، فذلت أعناق الكفرة، وقتلت رموز الشرك، وسقطت هامات الطغيان، وليست المعارك تقاس بصغر حجمها، بل بنتائجها وآثارها، لذلك اكتسبت غزوة بدر في التاريخ الإسلامي حلة خاصة، وأحيط البدري بعناية وتكريم في الدنيا والآخرة، فرضي اللّه عن أصحاب بدر وأرضاهم وغفر لهم، وقد قال عبد لحاطب بن أبي بَلْتَعَة الذي كاتب المشركين بمكة يخبرهم بخروج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لفتحها: واللّه ليدخلن حاطب النار، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدرا والحديبية، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمر رضي اللّه عنه، وقد هم بقتل حاطب في نفس القصة: لعل اللّه اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، أو وجبت لكم الجنة[1].

وقد كان لذيوع خبر انتصار المسلمين ببدر أبلغ الآثار، فأسلم الكثير عن صدق، ونافق بعضهم ولا سيما في المدينة لحماية مصالحهم، وقد غصوا بالخبر، وأما المشركون بمكة، فأذهلهم الخبر، ولكنهم تجلدوا ومنعوا المناحات على قتلاهم، وصمموا على الانتقام، واغتيال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فانتدب لذلك عمير بن وهب الجمحي وقد أسر ابنه وهب بعدما تكفل صفوان بن أمية (قتل أبوه وأخوه في المعركة) بنفقة أهل عمير، وأداء دينه، واتفقا على ذلك سرا في الحجر، وأعد عمير سيفا لذلك وسمَّه. وقدم المدينة في قصة مثيرةَ طويلة انتهت بدخوله على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في المسجد، وزعمه أنه جاء لفداء أسير، فأخبره صلى اللّه عليه وآله وسلم بأنه إنما جاء لاغتياله بعد اتفاقه مع صفوان في الحجر على ذلك، وألقى صلى اللّه عليه وآله وسلم ما دار بينهما بالحرفَ، فما وسع عُميرا إلا أن قال: أشهد أنك رسول اللّه، قد كنا يا رسول اللّه نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان،

---

(1) : الفتح (704/7).

فواللّه إني لأعلم ما أتاك به إلا اللّه، فالحمد للّه الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثم شهد شهادة الحق، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: فقهوا أخاكم في دينه، وعلموه القرآن، وأطلقوا أسيره، ففعلوا، ثم قال: يا رسول اللّه، إني كنتُ جاهدا في إطفاء نور اللّه، شديد الأذى بمن كان على دين اللّه عز وجل، وأنا أحب أن تأذن لي فأقدم مكة، فأدعو إلى اللّه وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل اللّه يهديهم وإلاَّ أذيتهم في دينهم، كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، قال: فأذن له رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فلحق بمكة. وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيام، تنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان حتى قدم راكب فأخبره بإسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبدا ولا ينفعه بنفع أبدا[1].

عبر وفوائد وأحكام من غزوة بدر

وقد تضمنت هذه الغزوة من العبرَ والفوائد والأحكام: ما نشير إلى بعضه. فأولها: تحليل الغنائم لهذه الأمة، لقوله تعالى فيها: «(فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا)» ﴿الأنفال، آية: 29﴾، وقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: «..وأحلت لي الغنائم، ولم تحل لأحد قلبي»، فلهم قسمتُها بعد التخميس. وقد تقدم أن خروج المسلمين أول الأمر لم يكن بقصد القتال، وإنما للإستيلاء على عير قريش وتجارتهم ليتقووا بها، فقد قال لهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: (هذه عير قريش فيها أمرالهم، فاخرجوا إليها لعل اللّه يُنفلكموها)[2].

ومنها: جواز المبالغة في نكاية العدو بَالقتل والأسر وأخذ الأموال والإرهاب والإخافة لتحطيم قوته ماديا ومعنويا.

ومنها: أخذ الفدية من الأسرى، أو المنّ عليهم إذا اقتضت المصلحة ذلك.

ومنها: اتخاذ العيون للتجسس على العدو لكشف تحركاته، وطبيعة عمله.

ومنها: تطبيق مبدأ الشورى امتثالا لأمر اللّه تعالى: «(والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم)» ﴿سورة الشورى، آية: 38﴾ ولقوله تعالى لرسوله: «(وشاورهم في الأمر)» ﴿آل عمران، آية: 159﴾ والأمر عام لأهل الحل والعقد، وهكذا استشار صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه في هذه الغزوة، وفي غزوة أُحُد، وغزوة الخندق، وفي مواقف أخري، قال أبو هريرة رضي اللّه عنه: ما رأيت أحدا أكثر مشورة لأصحابه من رسول اللّه صلى اللّه عليه

(1) : ابن هشام (662/1) من مرسل صحيح، وابن منده بسند حسن موصول. انظر الإصابة 321/2.
(2) : سيرة ابن هشام (606/2) بسند صحيح.

وآله وسلم[1]. وعلى هذا المبدأ استمر عمل الخلفاء الراشدين. ومن بعدهم من صالحي أمراء المسلمين، إلى أن غلب الإستبداد، وساد الطغيان، واستعلى الملك العَضُوض.

ومنها: جِواز اجتهاد الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم كما وقع في إيثاره أخذ الفدية على القتل، وجواز أن يخطئ في الاجتهاد كما حصل هنا، ولكنَه لا يُقر على الخطأ، بل لا بد أن يُرشَد ويصَحّح اجتهادُه بالوحي.

ومنها: وجوب الأخذ بالاحتياط، وإعداد ما يمكن من العُدة، مع التوكل على اللّه تعالى والإستعانة به، كما يستفاد من بناء العريش، وتعليماته صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى أصحابه، وإيذانه بالمبارزة مع دعائه صلى اللّه عليه وآله وسلم ربه، وإخلاصه في ذلك.

ومنها: تواضعه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأصحابه، وإيثارُه المواساةَ في المعاملة في الحرب والسلم، فقد مكَّن صلى اللّه عليه وآله وسلم سوادًا من الاقتصاص منه، وكَشَف له عن بطنه[2]، وقد اقتدى به في هذا المبدأ العظيم الفريد خلفاؤُه من بعده.

ومنها: أن مَن قتل من المسلمين كافرًا، فَلَه سَلَبُه بشروط تذكر في أحكام الجهاد.

ومنها: تشجيع الأمير للجند، وحضهم على الإخلاص، وترغيبهم في الإستشهاد في سبيل اللّه، والإشارة إلى الهدف الأكبر من الجهاد، وهو إعلاء كلمةُ اللّه، ونصرة دين اللّه، وتمكين عباده من عبادته في أرضه، وإقامةُ شَرعه فيها، والحيلولة دون اعتبار الغنائم شيئا مقصودا بالذات، لما في ذلك من إبطال العمل، وإفساد النيات، فقد قال اللّه تعالى لرسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد اختلافهم في الغنيمة: «(يسألونك عن الأنفال، قل الأنفال للّه ورسوله، فاتقوا اللّه وأصلحوا ذاتَ بينكم، وأطيعوا اللّه ورسوله إن كنتم مؤمنين)» ﴿سورة الأنفال، آية: 3﴾ وقال تعالى عاتبا في شأن الأسرى ـ كما تقدم ـ : «(تريدون عرض الدنيا، واللّه يريد الآخرة)» ﴿سورة الأنفال، آية: 67﴾ وقد قال صلى اللّه عليه وآله وسلم لمن سأله: أي نوع من القتال في سبيل اللّه؟: (من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه)[3]

ومما يتعلق بأهل بدر وفضلهم أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أخبر أنهم مغفور لهم، ولكن مع ذلك تقام عليهم أحكام الشريعة إذا اقتضى الحال، كما في قصة حاطب بن أبي بلتعة، وتهديده بالقتل لما بدر منه من الكتب للمشركين سرا بخبر الرسول والمسلمين،

---

(1) : رواه الترمذي (رقم: 1636) بسند فيه ضعفه ولكن معناه صحيح.
(2) : مجمع الزوائد للهيثمي(289/6) والإصابة لابن حجر (95/2).
(3) : مختصر صحيح مسلم للمنذري رقم: 1088.

وكما أُقيم حد شرب الخمر على قدامة بن مَظعون.

ومن السنة في الشهداء: أن يُدفنوا بدمائهم في مصارعهم دون غسل، ولا كفَن، ولا صلاة، كما وقع لشهداء بدر وأحد.

ومن مواقف البطولة الإيمانية التي حَصَلت في هذه المعركة: ما تقدمت الإشارة إلى بعضه، ومنها: قتل أبي عبيدة بن الجراح لوالِده، بعدما تعرض له الأب مرارًا فحاد عنه، فلما أبى إلا المواجهة قتَله، فأنزل اللّه في ذلك «(لا تجد قوما يومنون باللّه واليوم الآخر يوادون من حادّ اللّه ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه)» ﴿المجادلة، آية 22﴾[1]. ومن مظاهر امتثال هذه الآية: قول أبي عزيز بن عمير لأخيه مصعب، وكان صاحب لواء المشركين يوم بدر، وأخوه مصعب صاحب لواء المسلمين. وقد مر به وهو أسير في يد رجل أنصاري، فقال له: شُدّ يديه فإن أمه ذات متاع، لعلها تفديه منك. قال أبو عزيز: هذه وَصَاتك بي؟؟ فقال مصعب: إنه أخي دونك[2].

بين بدر وأحد

وبعد الفراغ من بدر، حدثت أمور دوّنها أصحابُ السيَر دون أسانيد، فنُشير إليها بإجمال لتُعرف، فمنها:

غزوة قرقرة الكُدْر

-وهو ماء لبني سُليم- حيث تجمعت بنو سليم وغطفان لمحاربة المسلمين، وفك الحصار الاقتصادي المضروب على المشركين، فخرج النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم إليهم، ففروا منه تاركين خمسمائة بعير، وكانوا مائتي رجل، فعاد صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة والمسلمون غانمين، بعد أن أقام ثمة ثلاثة أيام.

- غزوة السويق

ثم خرج أبو سفيان من مكة بمائتَي فارس مستخفين إلى بني النضير، وهاجموا ناحية العُرَيض، ناحية المدينة، وأحرقوا نخلا، وقتلوا رجلا. فعلم بهم المسلمون، وخرجوا إليهم ففروا أمامَهم، تاركين سَويقًا كثيرًا تخففوا منه للجد في السير، فعاد به المسلمون، فسميت: غزوة السَّويق.

وبعد هذه بشهر في المحرم، خرج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمون إلى ذي أمر، حيث تجمعت نجد وغطفان، فلما علموا بهم فروا منهم، ولم يقع قتال، ومكث النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم شهر صفر، وعاد وكانوا أربعمائة وخمسين رجلا، وبعدها خرج

---

(1) : الإصابة (252/2).
(2) : رواه ابن إسحاق بسند فيه انقطاع، وانظرابن كثير في البداية (475/2).

صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون إلى نَجران، بناحية الفُرُع، في طريق القوافل بين مكة والشام، وغاب عشرة أيام، وعاد دون قتال، وكانوا ثلاثمائة رجل، وأرادت قريشٍ استخدام طريق تجارية أخرى بعد اليأس من الأولى، تمر عبرَ نجد إلى العراق، فخرجت قافلة معظمها من الفضة، فبلغ خبرها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فأرسل إليها زيد بن حارثة على رأس مائتي رجل، فلقوا القافلة بمكان يدعى القَرَدَة، من مياه نجد، ففر أصحابها تاركين القافلة غنيمة للمسلمين، وكانت تحمل ثلاثين ألف درهم من الفضة، تبلغ قيمتها مائة ألف درهم، وبتوالي هذه الهزائم والخسائر على قريش، وفشَلها في تأمين قوافلها التجارية، فكرت في الإقدام على عمل عسكري يحفظ لها سمعتَها وماءَ وجهها، فكانت غزوة أحد بعد ذلك.

ومما يستحق التدوين من الأحداث في هذه الفترة مما صح: مقتل عصماء بنت مروان، كانت تَهْجُو النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وتعيب الإسلام، وتحرض عليه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لما بلغه ذلك: ألا آخذُ لي من بنت مروان؟ قام بذلك عُمير بن عدي الخطمي، دخلَ عليها بَيْتَها ليلا، فجسها بيده، وكان أعمى، ونحّى عنها رضيعا لها، ثم قَتَلها، وصلى الصبح مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال له: أقتلت ابنة مروان؟ قال: نعم، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: نصرت الله ورسوله يا عمير، فقال: هل علي في ذلك شيء؟ فقال: لا ينتطح فيها عَنزان[1].

ومنها: زواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم بحفصة بنت عمر، وكان زوجها خنيس بن حذافة، توفي بالمدينة مسلمًا، فعرضها عمر على عثمان فلم يقبل، ثم عرضها على أبي بكر فلم يردَّ عليه شيئا، فوجَدَ عليها، فلم يلبَث أن خطبها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فتزوجها، فلقي أبو بكر عمر فقال: إنني لم أردَّ عليك، لأني علمت أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكرها، ولم أكن لأفشي سرّ رسول الله ولو تركها قبلتُها[2].

وفي هذه الأثناء تزوج علي بن أبي طالب: فاطمةَ بنت رسول الله لما علم من مولاة له أنها خطبت. وتردد طويلا في الأمر لعُدمه، وأمام إلحاح مولاته، دخل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فلما قعدت بين يديه أفحمتُ، فوالله ما استطعتُ أن أتكلم جلالة وهيبة. فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ما جاء بك؟ ألك حاجة؟ فسكت، فقال: لعلك جئت تخطب فاطمة، فقلت: نعم، فقال: وهل عندك من شيء تستحلها به؟ فقلت: لا والله يا رسول الله، فقال: ما فعلت درعٌ سَلَّمتُكها؟ فوالذي نفس علي بيده إنها لحطمِيَة

---

(1) : رواه القضاعي في مسند الشهاب رقم: 798. وابن عدي في الكامل 145/6. وفيه مجالد بن سعيد يضعف لسوء حفظه.
(2) : رواه البخاري في النكاح رقم: 5122.

ما قيمتها أربع دراهم، فقلت: عندي، فقال: قد زَوجتُكَها، فابعث إليها بها فاستحلَّها بها، فإن كانت لَصَداق فاطمة بنت رسول اللّه صلى اللّه عليهِ وآله وسلم[1]، وكان جهازها رضي اللّه عنها خميلا- قطيفة-، وقربة، ووسادة أدم حشوُها إذخِر. وتم دخول علي بها أوائل السنة الثالثَة من الهجرة.

غزوة أحد

وقد أشرنا قبل إلى أن النفاق نجم بين المشركين بعد بدر، وتمالؤوا مع اليهود على الغدر والخديعة، وعلم النبي الأمر فجمع يهود بني قينقاع وحذرهم مغبة عملهم، فاستهزؤوا به، فأنزل اللّه فيهم: «(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد، قد كان لكم آية في فئتين التقتا، فئة تقاتل في سبيل اللّه، وأخرى كافرة ترونهم مثليهم رأي العين، واللّه يؤيد بنصره من يشاء، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)﴿آل عمران، آية 12﴾[2]. وكان بنو قينقاع أول من نقض العهد من يهود، فحاصرهم صلى اللّه عليه وآله وسلم على النزول على حكمه، فحال بينه وبينهم عبد اللّه بن أبي زعيم المنافقين وألح في الشفاعة حتى قال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: هم لك[3] وكان من حلفائهم عبادة بن الصامت، فلما رأى نقضهم العهد خلعهم وتبرأ من حلفهم، وقال: يا رسول أتبرأ إلى اللّه وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى اللّه ورسوله والمومنين، فأنزل اللّه فيه وفي ابن أبي: «(يا أيها الذين آمنوا لا تتخدوا اليهود والنصارى أولياء- إلى-فإن حزب اللّه هم الغالبون)» ﴿المائدة،آية: 51. .55﴾. وكان كعب بن الأشرف اليهودي بالغ في إيذاء الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمين، وكان يهجوهم بشعره، ويحرض المشركين عليهم، وأهل المدينة يومئذ أخلاط، وفي ذلك نزلت آية: «(.. ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا)» ﴿آل عمران،آية: 186﴾ وآية: «(ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا، حسدًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق، فاعفوا واصفحوا حتى يأتي اللّه بأمره)» ﴿البقرة،آية:109﴾ وندب صلى اللّه عليه وآله وسلم المسلمين لقتل كعب،فانتدب له محمد بن مسلمة، وخرج إليه مع غيره، وتمكن منه بعد أن خادعه في قصة مثيرة انتهت بقتله ليلا في حصنه، ثم أتوا النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأخبروه[4] وكان صلى اللّه عليه

---

(1) : رواه البيهقي في دلائل النبوة (160/3) وأبو داود في النكاح (رقم: 1815) مختصرا، وابن سعد في الطبقات (20/8)

(2) : رواه ابن هشام (47/2) وحسنه الحافظ في الفتح (332/7).

(3) : رواه ابن هشام (48/2) بسند صحيح.

(4) : رواه البخاري في المغازي رقم: 4037.

وآله وسلم مشى مع ابن مسلمة إلى البقيع وقال لهم: انطلقوا على اسم اللّه، اللهم أعنهم[1]. وبمقتل هذا اليهودي تنفس المسلمون الصعداء، واستراحوا من غدره.

غزوة أحد

وبعد غزوة بدر بسنة وشهر، وبالضبط في منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة، يوم السبت. وقعت المعركة التي سميت باسم جبل أُحُد الشهير، الذي يبعد عن مسجد المدينة بنحو خمسة كيلومترات ونصف، وتجاهَه جُبيل يسمى: عينين، وعُرف بعدُ بجبل الرُّماة، وبينهما واد يقال له: وادي قناة، وقد أشرنا قبل إلى أن قريشًا أخذت في إعداد العدة لمعركة تتوهمها فاصلة، تثأر فيه لهزيمتها المرة ببدر، وتستعيد بها سمعتَها بين العرب، وتأمين طريق القوافل التجارية المهددة من المسلمين باستمرار، ثم خرجت في ثلاثة آلاف رجل، فيهم مائتا فرس، وسبعمائة دارع، وعدة نسوة، وكان على الميمنة: خالد بن الوليد، وعلى الميسرة: عكرمَة بن أبي جهل، وعلم المسلمون بخروج الجيش، وحكى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأصحابه عن رؤيا -ورؤيا الأنبياء وحي- قال: رأيت في رؤيا: أني هززتُ سيفًا فانقطع صدره، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد، ثم هززتُه أخرى فعاد أحسن ما كان، فإذا هو ما جاء اللّه به من الفتح، واجتماع المؤمنين، ورأيت بقرًا-واللّه خير- فإذا هُم المؤمنون يوم أحدٍ. وفسر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم رؤياه، بأن هزيمة وقتلا يقع في أصحابه[2]. وتطبيقا لمبدأ الشورى ولتعويد أصحابه على حرية الرأي والتصريح به فيما لا نص فيه: شاوَرَ رسول اللّه صلى اللّه عليهِ وآله وسلم أصحابَه في التحصن بالمدينة- وكانت قد تحصَّنت بالمبَاني- أو الخروج للمشركين، فتكلم ناس من الأنصار قائلين: إنا نكره أن نُقتل في طرق المدينة ، فابرُز يا رسول اللّه إلى القوم، فدخل صلى اللّه عليه وآله وسلم بيتَه ولبس لأمته- الدرع الحصينة والسلاح- ونَدم القومُ وقالوا لعمه حمزة: اذهب إليه وقل: أمرُنا لأمرك تبع، فأتاه حمزة وقال: يا نبي اللّه، إن القوم تلاوموا، وعلموا أنك عرّضتَ بأمر، وعرّضوا بغيره، ويقولون: أمرنا لأمرك تبع، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إنه ليس لنبي إذا لبس لأمتَه أن يضعها حتى يناجز[3]، وظاهر صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم أحد بين درعين، وخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم في أصحابه بعدما استعرض الشباب، فأجاز من بلغ خمس عشرة سنة، ورد من قصر عنها، وهمت بنو سَلِمة وبنو حارثة بالانخذال.

---

(1) : انظر فتح الباري (338/7).
(2) : رواه البخاري في المغازي رقم: 4081.
(3) : رواه أحمد (رقم: 14260) والطبري (190/2)، وصححه الألباني في تخريج فقه سيرة الغزالي (250).

فأنزل الله تعالى: «(إذ هَمَّت طائفتان منكم أن تَفْشَلا والله وليهما)» ﴿آل عمران، آية:122﴾، كما اختلفوا في المنافقين، فرأت طائفة قتالهم، ورأت الأخرى الكف عنهم، فنزلت: «(فما لكم في المنافقين فئتين والله اركسهم بما كسبوا)» ﴿النساء، آية:88﴾، ورأى صلى الله عليه وآله وسلم بعد أن جاز ثنية الوداع كتيبَة خشناء- كثيرة السلاح- فقال: من هؤلاء؟ قالوا: عبد الله بن أبي في مواليه من يهود بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أوَ قد أسلموا؟ فقيل: إنهم على دينهم، قال: قولوا لهم: فليرجعوا فإنا لا نستعين بالمشركين على المشركين[1]. وكان قد انخذل قبل بثلث الناس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب، قائلا- يعني النبي صلى الله عليه وآله وسلم- أطاعهم وعصاني، وما ندري علام نقتل أنفسَنا ههنا أيها الناس؟ وذكّر عبدالله بن عمرو بن حَرام الله تعالى أن لا يخذل قومه الأنصار، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا الموقف الصعب، فقال: لِو نعلم أنكم تقاتلون لاتَّبعناكم، ولكنه لا يقع قتال، وأبى إلا الانصراف بمن معه، فقال عبد الله: أبعدكم الله أعداءَ الله، فسيغنى الله عنكم نبيه[2]، ورجع ابن أَبي بالكتيبة اليهودية، فرده صلى الله عليه وآله وسلم كما تقدم، وقال صلى الله عليه وسلم في هذا التخاذل والغدر الحاصل من المنافقين ومن اتبِعهم في المدينة[3]: (إنها طيْبة، تنفي الذنوب كما تنفي النار خَبَث الفضة)، وبلغ صلى الله عليه وسلم ميدان المعركة، وبدأ فأجلس الرماة – وكانوا خمسين- موضعا، وأمَّر عليهم عبد اللِه بن جبير، وقال: إن رأيتمونا تخطفنا الطير، فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم[4]، انضَحُوا الخيل عنا بالنَّبل، لا يأتونا من خلفنا إن كانت الدائرة لنا أو علينا، فالزَموا أماكنكم، لا نُؤتَيّن من قبَلكم، وقال لهم: احموا ظهورنا إن رأيتمونا نُقتل، فلا تنصرونا، إن رأيتمونا نَغْنم فلا تشركونا[5]، وأذن صلى الله عليه وسلم في بدء المعركة، والتحم القتال، وأبلى المسلمون البلاء الحسن، وتجلت صور البطولة في أجلى معانيها، واستمات الشباب في القتال بحماسة إيمانية مدهشة، وهبت ريح النصر إلا أنه لم يدم طويلا، حينما فارق الرماة مواقعَهم اهتبالا بالغنيمة، مخالفين أمر رسول الله: فما كان من المشركين وكانوا قد انهزموا وولوا الأدبار، إلا أن انتهزوا فرصة انشغال الناس بالغنائم، حتى كروا عليهم، وأحاطوا بهم، يقدُمهم خالد بن الوليد[6]، فكانت الهزيمة. قال الزبير بن العوام رضي

(1): رواه ابن سعد (48/2) والطحاوي في المشكل (241/3) وحسنه الحافظ في المطالب العالية رقم: 4319.
(2) : رواه ابن هشام (60/2-64) بسند حسن وهو مرسل.
(3) : رواه البخاري في المغازي رقم: 4050.
(4) : المصدر السابق
(5) : ابن هشام (129/2) بدون سند، لكن له شواهد، انظر تخريج فقه السيرة ص 270
(6) : جامع البيان للطبري (281/7) ط شاكر.

اللّه عنه: واللّه رأيتني أنظر يومئذٍ إلى خدم النساء مشمرات يسعين حين انهزم القوم، وما أرى دون أخذهن شيئا، وإنا لنحسبهم قتلى، ما يرجع إلينا منهم أحد، ولقد أصيب أصحاب اللواء وصبروا عنده حتى صار إلى عبد لهم حبشي، يقال له: صواب، ثم قتل صواب، فطرح اللواء، فلم يقربه أحد من خلق اللّه، حتى وثبت إليه عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم، وثاب إليه الناس، قال الزبير: فوا للّه إنا لكذلك قد علوناهم وظهرنا عليهم،إذ خالفت الرماةُ عن أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فجعلوا يأخذون الأمتعة، فأتتنا الخيل فحطمتنا، وفر الناس منهزمين،فصرخ صارخ يرون أنه الشيطان: ألا إن محمدًا قد قُتل، فأعظِم الناس،وركب بعضُهم بعضًا، فصاروا أثلاثًا: ثلثًا جريحًا، وثلثًا مقتولاً، وثلثًا منهزمًا. قد بلغت الحرب.وقد كانت الرماة اختلفوا فيما بينهم، فقالت طائفة رأوا الناس وقعوا في الغنائم، وقد هزم اللّه المشركين، وأخذ المسلمون الغنائم، فماذا تنتظرون؟ وقالت طائفة: قد تقدم إليكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ونهاكم أن تفارقوا مكانَكم إن كانت عليه أوله،فتنازعوا في ذلك،ثم إن الطائفة الأولى من الرماة أبت أن تلحق بالعسكر. فتفرق القوم وتركوا مكانهم، فعند ذلك حملت خيل المشركين[1]، واختلط الأمر، وحصل الارتباك، حتى قتل المسلمون بعضَهم دون تمييز، فقُتل اليمان والد حذيفة وولدُه يصيح: أي عباد اللّه أبي، فلما قُتل قال لهم: يغفر اللّه لكم[2].

من مشاهد البطولة الإيمانية يومَ أحد

استشهد من المسلمين كثير، ووقع باقيهم في أمر مريج خصوصًا بعدما شاع أن رسول اللّه قد قتل. فشمر الأبطال عن ساعدهم دفاعا عن رسول اللّه، ونصرة لدين اللّه، وسجلوا بعرقهم ودمائهم أروع المشاهد الإيمانية،والمواقف البطولية، منها: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عرض سيفا قائلا: مَن يأخذ هذا السيف بحقه؟ قال أبو دُجانة سماك بن خَرَشة: أنا يا رسول اللّه، فأعرِض عنه ثم قال: مَن يأخذ هَذا السيف بحقه؟ فقلت: أنا يا رسول اللّه آخذه بحقه، قال: ألاَّ تقتل به مسلما، ولا تفر به عن كافر، قال: فدفعه إلي، قال الزبير: وكان أبو دجانة إذا أراد القتال أعلم بعصابة، وقلت لأنظرن إليه اليومَ كيف يصنع، قال: فجعل لايرتفع له شيء إلا هتكه وأفراه،حتى انتهى إلى نسوة في سفح جبل، معهن دفوف لهن، فيهن امرأة وهي تقول:

نحن بنات طارق
نمشي على النمارق

(1) : انظر المطالب العالية لابن حجر فقد صححه. (رقم: 4375).
(2) : رواه االبخاري (الفتح 239/15).

إن تقبلوا نعانق
ونبسط النمارق
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

قال فأهوى بالسيف إلى امرأة ليضربها ثم كف عنها، فلما انكشف القتال، قلت له: كل عملك قد رأيت. ما خلا رَفِعَك السيف عن المرأة ثم لم تضربها، قال: أي والله، أكرمتُ سيف رسول الله أن أقتل به امرأة[1]، وما روي من خروج أبي دجانة يتبختر معصّبا بعصابته الحمراء، وهو يُنشد: (رجز)

أنا الذي عاهدني خليلي
ونحن لدى السفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر في الكَيّول
أضرب بسيف الله والرسـول

فلا يصح، لشدة ضعف سنده. ومنها: قال أنس بن مالك: عمي الذي سميتُ به، لم يشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا، فشق عليه وقال: أول مَشهد شهده رسول الله غيبت عنه؟ وإن أراني الله مَشهَدًا فيما بعد مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ليَرَيَن الله ما أصنع، وهاب أن يقول غيرَها، فشهد يومَ أحد، فقَاتَل وانهزم الناس، وانتهى إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه صلى الله عليه وسلم، ثم استقبل القوم فقال: اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء -يعني المسلمين- وأبرأ إليك مما جاء به المشركون، وتقدم بسيفه، فلقي سعد بن معاذ فقال: إلى أين يا سعد، إني أجد ريح الجنة دون أُحُد، واهًا لريح الجنة أجدهُ دون أحد، فمضى، فقتل، فما عُرف حتى عرفته أخته: الرُّبيع بنت النضر بشَامة أو ببَنَانه، وبه بضع وثمانون من بين ضربة، وطعنة، ورَمية. ونزلتَ هذه الآية: «(من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا)» ﴿الأحزاب، آية: 23﴾[2]، ومنها: أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبيده تمرات في يده يأكلهن، وقال: يا رسول الله، إن قُتلت فأين أنا؟ قال صلى الله عليه وسلم: في الجنةِ، فألقى التَمْرات من يده، وقاتَل حتى قُتل[3]، وهذا غير عُمير بن الحمام الذي صَنَع مثل هذا في غزوة بدر.

ومنها: حنظلة بن أبي عامر، علاه شداد بن الأسود بالسيف

(1) : رواه البيهقي في الدلائل (233/3) وأورده الهيثمي في المجمع (109/6) وحسن إسناده.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3742)، ومسلم في الإمارة (رقم: 3523) وابن هشام (83/2)
(3) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3740)، ومسلم في الإمارة (رقم: 3518).

فقتله بعدما واجه أبا سفيان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: إن صاحبكم تغسله الملائكة، فاسألوا صاحبتَه. فقالت: إنه خرج لما سمع الهَيعة، وهو جنُب. قال ابن عباس: أصيب حمزة بن عبد المطلب، وحنظلة بن الراهب وهما جنُب، وقال صلى الله عليه وسلم: رأيت الملائكة تغسلهما[1].

ومنها: أن عمرو بن أقيش، كان له ربا في الجاهلية، فكره أن يسلم حتى يأخذه، فجاء يومَ أحد فقال: أين بنو عمي؟ قالوا: بأحُد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحُد، قال: أين فلان؟ قالوا: بأحد، فلبس لأمته، وركب فرسَه، ثم توجه قبلهم، فلما رآه المسلمون قالوا: إليك عنا يا عمرو، قال: إني قد آمنتُ، فقاتَل حتى جُرح، فحُمل إلى أهله جريحًا، فجاء سعد بن معاذ فقال لأخته: سَليه حميةً لقومك، أو غضبًا لهم، أو غضبًا لله عز وجل، قال: بل غضبا لله عز وجل ورسوله، فمات فدَخَل الجنةَ[2]، وما صلى لله صلاة.

ومنها: أن سعد بن أبي وقاص (وكان مجاب الدعوة)، لقي عبد الله بن جحش يوم أحد فقال له: ألا ندعوا الله؟ فخَلوا في ناحية، فدعا سعد فقال: يا رب إذا لقيتُ العدو، فلقِّيني رجلا شديداً بأسُه، شديدًا حَرَده (الحرَد: الغضب) أقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفَر عليه حتى أقتله، وآخذ سَلبه، فأمّن عبدُ الله بن جحش، ثم دعا فقال: اللهم ارزقني رجلا شديدًا حرَده، شديدًا بأسُه، أقاتله فيك ويقاتلني، ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدًا فقلتَ: مَن جَدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فيقول: صدقت. قال سعد: يا بني، كانت دعوة عبد الله بن جحش خيرا من دعوتي، لقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه لمعلقان في خَيطٍ[3].

ومنها: أن عمرو بن الجموح كان رجلاً أعرج شديد العَرج، وكان له بنون أربعة مثل الأسْد، يشهدون مع رسول الله المشاهد، فلما كان يومُ أحد، أرادوا حبسه، وقالوا له: إن الله تعالى عَذرك، فأتى رسول الله وقال: إن بني يريدون أن يحبسوني عن الخروج معك، فوا لله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه في الجنة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم ألا تمنعوه، لعل الله أن يرزقه الشهادة، فخَرَج معه، فلما قامت المعركة قال: يا رسول الله، أرأيت إن قاتلتُ في سبيل الله حتى أقتل، أمشي برجلي هذه صحيحة في الجنة؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نعم، فقُتل يومَ أحد، هو وابنُ أخيه، ومولى لهم، فمر عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كأني أنظر إليك تمشي

---

(1): رواه الحاكم في المستدرك (204/3) وصححه وسكت عنه الذهبي، وحسنه الهيثمي في المجمع (451/1).
(2): رواه أبو داود في الجهاد (رقم: 2175)، وأحمد (رقم: 18572) والبيهقي (167/9) وغيرهم، وحسن الحافظ سنده في الإصابة (519/2).
(3): رواه الحاكم في المستدرك (199/3) وصححه وسكت عنه الذهبي.

برجلك هذه صحيحة في الجنة، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بهما وبمولاهما فجعلوا في قبر واحد[1].

ومنها: أن زيد بن ثابت قال: بعثني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يومَ أحد لطلب سعد بن الربيع، وقال: إن رأيته فأقرئه مني السلام وقل له: يا سعد إن رسول اللّه صلى اللّه عَليه وآله وسلم يقرئك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت له: يا سعد، إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقرئك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك، فقال: على رسول اللّه وعليك السلام، قل له: يا رسول اللّه، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذرَ لكم عند اللّه إن خُلص إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفيكم شَفْرٌ يطرف، قال: وفاضت نفسه، رحمه اللّه[2]. واستهدف رسول لشر المشركين فأصيب - بأبي هو وأمي- في وجهه، وكُسرت رباعيته[3]، ودخلت حلقه المغْفر في وجنته، ونزف الدم من جراحته كلما سكب عليه الماء ازدَاد دفقاً، حتى وضع عليه رماد حصير فرقاً، فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يسلت الدم عنه ويقول: كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟ وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى اللّه، ثم قال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون وأنزل اللّه تعالى: «(ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون)»[4].

ولنسمع إلي بعض تفاصيل هذه الأحداث على لسان شهودها الأبرار رضي اللّه عنهم: كان علي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم أحد دِرعان، كما تقدم، فنهض إلى الصخرة فلم يستطع، لثقل الحديد وألم الجراحة، فقعد طلحة تحته حتى استوى على الصخرة، قال الزبير: فسمعته صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: أوَجب طلحة[5]: (وجبت له الجنة).

وممن أبلى البلاء الحسن في الدفاع عن الرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: سعد بن مالك، قال علي رضي اللّه عنه: ماسمعت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم جَمَع لأحد أبويه إلا لسعد بن مالك، قال له يوم أحد: يا سعدُ، ارم فداك أبي وأمي[6]، وقال سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه: نثل لي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم

(1) : رواه أحمد في المسند (5/299) وحسن سنده الحافظ في الفتح. المغازي (8/19). وابن هشام (2/90).
(2) : رواه الحاكم في المستدرك (3/201) وصححه وسكت عنه الذهبي، وله طرق تؤيده.
(3) : رواه البخاري في المغازي رقم: 2695 ومسلم (5/179) في الجهاد.
(4) : رواه البخاري (2/582) ومسلم (2/108).
(5) : رواه الحاكم في المستدرك (3/374) وصححه وسكت عنه الذهبي وغيره.
(6) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3753).
(7) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3749).

كنانتَه يومَ أحد فقال: ارم فداك أبي وأمي[7]، قال جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه: لما كان يومُ أحد، وولى الناس، كان رسول اللّه في ناحية في اثنى عشر رجلا، منهم طلحة، فأدركهم المشركون، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: من للقوم؟ قال طلحة: أنا، قال: كما أنت، فقال رجل: أنا، قال: أنت، فقاتَل حتى قُتل. ثم التفت فإذا المشركون فقال: مَن لهم؟ قال طلحة: أنا، قال: كما أنت، فقال رجل من الأنصار: أنا، قال: أنت، فقاتل حتى قتل. فلم يزل كذلك حتى بقي مع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم طلحة فقال: من للقوم؟ قال طلحة: أنا، فقاتل طلحة قتال الأحدَ عشَر، حتى قُطعت أصابعُه، فقال: حس(كلمة يقولها الإنسان إذا أصيب بألم)، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لو قلتَ: باسم اللّه، لرفعتك الملائكة والناس ينظرون، ثم رد اللّه المشركين[1]. قال قيس بن أبي حازم: رأيت يد طلحة التي وقى بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم أحد شلاء، قال أنس رضي اللّه عنه: لما كان يوم أحد انهزم الناس عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبو طلحة الأنصاري بين يدي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مُجوّب به عليه بحَجَفَة (أي مُترس على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بترس)، وكان أبو طلحة رجلا راميًا شديد الفد (وتر القوس) يكسر يومئذ قوسين أو ثلاثا. وكان الرجل يمر معَه الجعبة من النبل فيقول صلى اللّه عليه وآله وسلم انثرها لأبي طلحة، فأشرف النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ينظر إلى القوم، فقال أبو طلحة: يا نبي اللّه بأبي أنت وأمي لا تشرف يصيبك سهم من سهام القوم، نَحري دون نحرك. ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سليم رضي اللّه عنها وإنهما لمشمرتان، أرى خَدَم سوقهما (الخدَم: الخلاخل) تُنقزان القرَب على متونها، تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعا فتملآنها، ثم تجيآن فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة إما مرةً وإما ثلاثا[2]. وقال كعب بن مالك رضي اللّه عنه: لما كان يوم أحد، وصرنا إلى الشعب (موقع المعركة) كنتُ أول مَن عرفتُه، فقلت: هذا رسول اللّه، فأشار بيده أن اسكت، ثم ألبسني لأمتَهُ، ولبس لأمتي، فلقد ضربتُ حتى جرحت عشرين جراحة، أو قال: بضعة وعشر جرحا، كل من يضربني يحسبني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم[3]، وقال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه: لما انجلى الناسُ عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم أحد، نظرت إلى القتلى فلم أر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فيهم، فقلت: واللّه ما كان ليفر. وما أراه في القتلى، ولكن أرى اللّه غضب علينا بما صنعنا، فرَفع نبيه صلى اللّه عليه وآله

(1) : رواه النسائي في الجهاد، ورجاله ثقات (رقم: 3098).
(2) : رواه البخاري رقم: 3811.
(3) : رواه أبو نعيم في الدلائل (482/2) والطبراني في الكبير بسند صحيح (15549).

وسلم فما فيّ خير من أن أقاتل حتى أقتل، فكسرت جَفنَ سيفي، ثم حملت على القوم فأفرجوا لي، فإذا أنا برسول الله بينهم[1]، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: رأيت رجلين عن يمين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومٍ أحد عليهما ثياب بيض يقاتلان عنه كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعدُ[2]. ومع صعوبة الموقف الذي تطيش فيه الأحلام، كان صلى الله عليه وآله وسلم رابط الجأش، لا يغفل عن القيام بواجب التعليم والبيان، فقد بلغه صلى الله عليه وآله وسلم عن عقبة مولى جبرٍ بن عتيك الأنصاري، وكان شهد أحدًا مع مولاه، أنه ضَرب رجلا من المشركين فقتله فقال: خذها مني وأنا الرجل الفارسي، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ألا قال خذها وأنا الرجل الأنصاري، فإن مولى القوم من أنفسهم[3]، وسمع صلى الله عليه وآله وسلم الصحابة يثنون على رجل يقولون: ما أجزأ اليومَ منا أحد كما أجزأ فلان، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أما إنه من أهل النار، فسمعه رجل فقال: أنا صاحبه، فخَرَج معه كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، قال: فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموتَ، فوَضَع سيفَه بالأرض، وذُبابَه بين ثدييْه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله، قال وما ذاك؟ قال الرجل الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار، فأعظم الناسُ ذلك، فخرجتُ أطلبه، فذَكَر ما تقدم إلى أن قَتل نفسَه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس وهو من أهل الجنة[4].

ومما يستغرب من عجيب صنع الله بأهل أحد: أن سلط عليهم النومَ أمنةً وسكينة وهم في أحرج المواقف وأجفاها للنوم، حتى قال أبو طلحة: رفعتُ رأسي يومَ أحد فجعلت أنظر، وما منهم يومئذ أحد إلا يَميد تحت حَجَفته من النعاس، وجعل سيفي يسقط من يدي فآخذه، فيسقط من يدي فآخذه. والطائفة الأخرى - المنافقون - ليس لهم همّ إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعبه وأخذله للحق[5]. وقال الزبير: لقد رأيتُني مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومَ أحد حين اشتد علينا الخوف، وأرسل علينا النوم، فما منا أحدإلا وذَقَنه في صدره، فوالله إني لأسمع كالحلم قول مُعتَب بن قُشير: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ها هنا، فحفظتها، فأنزل الله تعالى في

---

(1) : رواه أبو يعلى في المسند بإنساد. حسن وانظر مجمع الزوائد 10/3.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3748)، ومسلم في الفضائل (رقم: 4265)، باب قتال جبريل وميكائيل عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
(3) : رواه أحمد في المسند (295/5) بسند حسن.
(4) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3881). ببعض تصرف.
(5) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 4196)، والترمذي في التفسير: تفسير آل عمران (رقم: 2934).

ذلك: «(ثم أَنزلَ عليكم من بعد الغم أمنَةَ نُعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قداهَمَّتْهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية، يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله، يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم، وليمحص ما في قلوبكم، والله عليم بذات الصدور)»[1]. وصاح أبو سفيان في أسفل الجبل: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم صلى الله عليه وآله وسلم أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة، مرتين؟ أفي القوم ابن الخطاب، مرتين؟ ثم أقبل على أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قُتلوا وقد كفيتموهم، فما ملك عمر نفسَه أن قال: كذبت والله يا عدو الله، إن الذي عددت أحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوءك، فقال: يوم بيوم بدر والأيام دول، والحرب سجال، إنكم ستجدون في القوم مُثْلة لم آمر بها، ولم تسؤني، ثم أخذ يرتجز: أعلُ هُبَل، أعلُ هُبَل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل. قال أبو سفيان: إن العُزى لنا ولا عُزّى لكم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ألا تجيبونه؟ قالوا: يا رسول الله، وما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم[2]، قال عمر: قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار، قال: إنكم لتزعمون ذلك لقد خبنا إذا وخسرنا[3].

ومن الأحداث بالغة الأثر يومَ أحد: مَقتل حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد بكى صلى الله عليه وآله وسلم لمصرعه، ولما شاهده شَهق[4]. قال قاتله وحشي: إن حمزة قتَل طعيمة بَن عدي بن الخيار، فقال لي مولايَ جبير بن مطعم: إن قتلتَ حمزةَ بعمي فأنت حر، قال: فلما أن خرج الناس عام عينين ـ وهو جبل الرماة بأحد ـ خرجتُ مع الناس إلى القتال، فلما اصطفوا للقتال، خرج سباع فقال: هل من مبارز؟ قال فخرج إليه حمزة بن عبد المطلب فقال: يا سباع، يا ابن مقطعة البظور، أتحاد الله ورسوله؟ قال: ثم شد عليه فكانَ كأس الذاهب، قال: وكمنت لحمزة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بَحربتي فأضعها في ثنَّته[5] حتى خرجت من بين وركيه، قال: فكان ذلك العهد به، فلما رجع الناس، رجعت معهم فأقمت بمكة حتى فشا فيها الإسلام، ثم خرجت إلى الطائف، فأرسلوا إلى رسول الله رسلا فقيل لي: إنه لا

---

(1) : رواه البخاري رقم: 3811.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3737).
(3) : رواه أحمد في المسند (1/287-463) والحاكم في المستدرك (2/296-297) وصححه وسكت عنه الذهبي
(4) : مجمع الزوائد (6/118).
(5) : الثنة: ما بين السرة والعانة.

يهيج الرسل، قال: فخرجت معهم حتى قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فلما رآني قال: أنت وحشي؟ قلت: نعم، قال: أنت قتلتَ حمزة؟ قلت: قد كان من الأمر ما بلغك، والحمد للّه الذي أكرمه بيدي، ولم يُهنّي بيده، فقالت قريش: أتحبه وهو قاتل حمزة؟ فقلت: يا رسول اللّه فاستغفر لي، فتَفل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثلاثا، ودفع في صدري ثلاثا، وقال: وحشي، أخرج فقاتل في سبيل اللّه، كما قاتلت لتصد عن سبيل اللّه[1]، فهل تستطيع أن تغيب عني وجهك؟ قال: فخرجتُ، لما قبض رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وخرج مسيلمة الكذاب، قلتُ لأخرجن إلى مسيلمة لعلي أقتله، فأكافئ به حمزة، قال: فخرجتُ مع الناس فكان من أمره ما كان، قال: فإذا رجل قائم في ثلمة جدار كأنه جمل أورق ثائر الرأس، قال: فرميته بحربتي فأضعها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه، قال: ووثب رَجل من الأنصار، فضربه بالسيف على هامته. قال عبد اللّه بن عمر: فقالت جارة على ظهر بيت: أمير المؤمنين! قتله العبد الأسود[2]. وتقدم أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقف على حمزة فرآه وقد شُق بطنه، وقد مُثل به، وجاءت أختُه صَفية تسعى حتى كادت أن تشرف على القتلى، فكره النبى صلى اللّه عليه وآله وسلم أن تراهم، فقال: المرأة المرأة فخرج إليها الزبير يحاول ردها قبل أن تنتهي إلى القتلى، قال: فلدمت في صدري، وكانت امرأة جلدة، قالت: إليك عني لا أرض لك، فقلت: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عزم عليك، قال: فوقفتْ وأخرجت ثوبين معها، فقالت: هذان ثوبان جئت لهما لأخي حمزة، فقد بلغني مقتله فكفنوه فيهما، قال: فجئنا بالثوبين لنكفن فيهما حمزة، فإذا إلى جنبه رجل من الأنصار قُتل، فُعل به كما فُعل بحمزة، قال: فوجدنا غضاضة وخنى: أن يكفن حمزة في ثوبين، والأنصاري لا كفن له، فقلنا: لحمزة ثوب وللأنصاري ثوب، فقدرناهما فكان أحدُهما أكبَر من الآخر، فأقرعنا بينهما فكفنا كل واحد منهما في الثوب الذي صار له[3].

ويستفاد من آثار صححت كهذه أنه مثل بحمزة رضي اللّه عنه، وما اشتهر أن هند بنت عتبة هي التي بقرت بطنه، وأخرجت كبده فلاكتها ولم تستسغها ولفظتها، وأنها مع غيرها من المشركات جَدَعَت أنوف قتلى المسلمين وآذانهم، واتخذت منها قلائد ولبستها، وأعطتها وَحشيًا، وأنشأت في ذلك شعراً آلخ، كل ذلك لا يصِح. فقد رواه ابن إسحاق بسند معْضل. ومن أجود ما روي في الجدع والتمثيل: قول أنس: مر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم

---

(1) : رواه الطبراني في كبير (139/22) قال الهيثمي: إسناده حسن.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3764) والطبراني في الكبير(139/22).
(3) : رواه أحمد في المسند (165/1) وأبو يعلى في المسند رقم: 686 وسنده حسن.

أحد بحمزة وقد جُدع و مُثل به، فقال: لولا أن تجد صفية في نفسها تركتُه حتى تأكله العافية (السباع والطير) حتى يحشره الله من بطون الطير والسباع[1]. وتولى صلى الله عليه وآله وسلم دفن الشهداء بنفسه، فكان يجمع بين الرجلين في ثوب واحد ثم يقول: أيهم أكثر أخذا للقرآن، فإذا أشير له إلى أحد، قدمه في اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة، وأمر بدفنهم بدمائهم، ولم يصل عليهم، ولم يغسلوا[2]. وهذا أصح من روايات وردت بالصلاة عليهم وعلى حمزة، وأنه كبر عليه سبعين، فإنها لا تقوى قوة الروايات النافية. وفيهم نزل قوله تعالى: «(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ﴿آل عمران، آية: 169﴾. واستشهد من المسلمين أربعة وستون من الأنصار، وستة من المهاجرين، فيهم حمزة، فمثل المشركون بالقتلى فقالت الأنصار: لئن أصبنا منهم يوما من الدهر لنربين عليهم، فلما كان يوم فتح مكة نادى رجل لا يعرف: لا قريش بعد اليوم مرتين، فأنزل الله على نبيه «(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين)» ﴿النحل، آية: 126﴾ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: كفوا عنهم[3]. وقد أورد الهيثمي في (مجمع الزوائد)[4] أسماء الشهداء، فلينظرها من أرادها. وكان صلى الله عليه وآله وسلم يكثر من ذكر شهداء أحد، وصلى عليهم بعد ثمان سنين كالمودع للأحياء والأموات[5]. وكان بعض أقارب الشهداء أرادوا حمل قتلاهم ليدفنوهم في مقابرهم، فنادى منادي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن ردوا القتلى إلى مضاجعها[6]، وقال جابر: استشهد أبي بأحد، فأرسلتني أخوتي إليه بناضح لهن (البعير الذي يحمل الماء) فقلن: اذهب فاحتمل أباك على هذا الجمل، فادفنه في مقبرة أبي سلمة، قال: فجئته وأعوان لي، فبلغ ذلك نبي الله وهو جالس بأحد فدعاني وقال: والذي نفسي بيده، لا يدفن إلا مع إخوته، فدفن مع أصحابه بأحد[7]. وكان صلى الله عليه وآله وسلم إذا ذكر أصحاب أحد قال: والله لوددت أني غودرت مع أصحاب فصص الجبل، يقول: قتلت معهم صلى الله عليه وآله وسلم[8].

---

(1) : رواه أبو داود رقم: 3137 وأحمد والبيهقي وغيرهم بسند صحيح.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3771).
(3) : رواه الترمذي في التفسير (رقم: 3054) والحاكم (رقم: 3325) وصححه وأُقر.
(4) : مجمع الزوائد 6/123.
(5) : رواه البخاري في الجنائز (رقم: 3736).
(6) : رواه أحمد في المسند (308/3) وأبو داود (رقم: 2752) والنسائي (رقم: 1977) وابن ماجة في الجنائز (رقم: 1505) والترمذي (رقم: 1639) في الجهاد، وصححه الترمذي وابن حبان (رقم: 3250).
(7) : المصادر السابقة
(8) : رواه أحمد في المسند (375/3) وصححه الهيثمي في المجمع (123/6).

ومن أحداث يوم أحد: قتلُ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بيده أُبي بنَ خَلف الجمحي، وكان حلف أن يقتل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فلما حانت الفرصة يومَ أحد، وقد انكشف المسلمون عن النبي، قصد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وحمل عليه بسيفه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: بل أنا قاتله إن شاء اللّه، وطعنه في جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور، فلم يلبث إلا يوما أو بعض يوم حتى مات[1]. وقبل مغادرة الميدان قال صلى اللّه عليه وآله وسلم لأصحابه: استووا حتى أثنيَ على ربي عز وجل، فصاروا خلفه صفوفًا فقال: اللهم لك الحمد كله، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضل لمن هديت، ولا مُعطي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مقرب لما باعدت، ولا مُبعد لما قربت، اللهم ابسُط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك، اللهم إني أسألك النعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إني أسألك العون يوم العيلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إني عائذ بك من شر ما أعطيتنا وشر ما منعتنا، اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين، وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسُلك، ويصدون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب، إله الحق[2].

ولما رجع صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد انسحاب المشركين، سمع نساء الأنصار يبكين، فقال: لكن حمزة لا بواكيَ له، فبلغ ذلك نساء الأنصار، فبكين حمزة، فقام رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم استيقظ وهن يبكين فقال: يا ويحهن مازلن يبكين منذ اليوم فليبكين، ولا يبكين على هالك بعد اليوم[3]. وكان من علم باستشهاد قريب له استرجع واستغفر، واجدًا العزاءَ في ثناء اللّه على شهدائهم، وما ردده صلى اللّه عليه وآله وسلم من كريم منزلتهم عند اللّه، وما بشر به من إحرازهم حب اللّه ورضوانَه في دار النعيم، وقوله لهم: لما أصيب إخوانُكم بأحد، جعل اللّه أرواحَهم في أجواف طير خُضر، ترد أنهار الجنة، تأكل من ثمارها، وتهوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش، فلما وجدوا طِيب مأكلهم ومشربهم، وحسن منقلبهم قالوا: يا ليتَ إخواننا يعلمون بما صنع اللّه لنا، ليلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا على الحرب، فقال اللّه عز وجل: أنا أبلغهم عنكم، فأنزل اللّه عز وجل هؤلاء الآيات على

---

(1) : أورد القصة ابن كثير في البداية (403/5) عن ابن هشام (84/2) والبيهقي في دلائل النبوة (3/258-259) من مرسل عروة وسعيد بن المسيب.

(2) : رواه أحمد في المسند (414/3) والحاكم في المستدرك (507/1) وصححه وسكت عنه الذهبي، وصححه الهيثمي في المجمع (121/6).

(3) : رواه ابن ماجة في الجنائز (رقم: 1580)، وغيره وهو صحيح.

رسوله «(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللّه أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم اللّه من فضله ويستبشرون بالذين لو يلحقوا بهم من خلفهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون)» ﴿آل عمران، آية: 169﴾[1].

ومن روائع المواقف في الصبر والتفاني في حب الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما حدث به سعد بن أبي وقاص رضي اللّه عنه قال: مر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بامرأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فلما نُعوا لها قالت: فما فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قالوا: خيرا يا أم فلان، وهو بحمد اللّه كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه، قال: فأشير لها إليه حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل! تريد: صغيرة[2].

كانت هذه المعركة عظيمة الأثر في نفوس المسلمين، لما أصيبوا به فيها من نكسة قبيحة، وهزيمة شنيعة لم يكونوا يتوقعوهَا، وقد عوَّدهم اللّه النصرَ المؤزر، والغلبة والظفَر، وهم حماة الإسلام وأبطال دينه، ومعهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الكريم على ربه، الموعود دائما بالنصر والتأييد، ولكن اللّه شاء وله الحكمة البالغة، أن يلقن المسلمين درسا قاسيا، نبههم به إلى وجوب طاعة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وعدم المخالفة عن أمره، وأراهم سوء عاقبة الطمع، وشؤم الحرص على الدنيا، وإهمال تعاليم القائد الرباني المنوط بها الخير، والمحفوفة باليمن والسعادة. ولما تساءلوا عن الحكمة في هذا التمحيص والبلاء، أنزل اللّه تعالى: «(أَوَ لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليْها قلتم أنى هذا، قل هو من عند أنفسهم، إن اللّه على كل شيء قدير)». ﴿آل عمران، آية 165﴾. فأخبرهم اللّه أن ما أصابهم من القَرح، كان من عند أنفسهم، فلما لم يتجرد القصد، وتَصْفُ النية، وشاب الإخلاصَ طمع، وتمردت النفس الأمارة بالسوء فاستسهلت معصية القائد، ولم تدرك عواقب ذلك، واستهانت المصير، وقعت الكارثة، وحلت الهزيمة، ونزل الوحي يكشف عن الأسباب، ويهيب بهم أن يراجعوا أنفسَهم، ويبشرهم بعفو اللّه وفضله، ويقول: «(منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صَرفَكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، واللّه ذو فضل على المؤمنين)» ﴿آل عمران، آية: 152﴾. فكان الندم والتبصر بعد ذلك ماحيا لما فرط من انهزام ونكوص، وتجلت حكمة اللّه في إجراء سنة الأخذ بالأسباب، والاحتياط اللازم، على الصفوة الخالصة من المؤمنين، ففقد المسلمون من صفوفهم رموزا في الصدق والإخلاص والدعوة إلى اللّه، والتفاني في حماية دينه

(1) : رواه أحمد في المسند (165/1) وأبو داود في الجهاد (رقم: 2158)، وغيرهما وهو صحيح.
(2) : الطبري في التاريخ (533/2) والبيهقي في الدلائل (302/3) بسند حسن.

ورسوله، واختارهم اللّه لجواره وأكرمهم بالشهادة، بعد أن ضربوا أروع الأمثلة في البطولة النادرةو والثبات الصامد، واستروح نسائهم الجنان تحت ظلال السيوف، فكانوا أهلا لكل تكريم وفضل، رضي اللّه عنهم ورضوا عنه، وعفا عمن غلبوا على أمرهم بميلهم للعَرَض الفاني، وافتياتهم على أوامر القائد الرّبّاني.

عبر وفوائد من غزوة أحد

وفي أحداث هذا اليوم الفريد من العبر والفوائد، والعظات والعوائد، والأحكام الفقهية، والإشارات التربوية، ما أكثر فيه العلماء، وأسهب في بيانه الحكماء.

فمن ذلك: التحميصُ الذي ظهر فيها، المتجلي في ابتلاء المؤمنين عقاباً لهم على المخالفة، فكان ذلك درسا عمليا لم ينسوه أبدا.

ومنها: تطبيق مبدأ الشورى، كما تقدم، في بدر، وموقف النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الحازم في عدم رجوعه لرأي أصحابه بعد أن لبس سلاحَه واستعد، حتى يفهمهم أنه لا مكان للاضطراب في الرأي والخلاف في مثل هذه المواطن. وقد صارحهم بأن الرجوع ليس من أخلاق النبوة، ولا شيَم الأنبياء «(فإذا عزمت فتوكل على اللّه)» ﴿آل عمران، آية: 159﴾.

ومنها: عدم استعانة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بالمشركين، وقوله للأعرابي المشرك: اذهب فإنا لا نستعين مشرك.

ومنها: ما تجلى من الحماس الديني، والغيرة الإيمانية، في رغبة الشباب المؤمن في القتال والمشاركة، ومناشدة سَمُرة بن جُندب، ورافع بن خديج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يسمح لهما بالقتال وهما مراهقان في سن البلوغ، مع نكوص المنافقين وهم رجال فوق الثلاثمائة على أعقابهم، وشدة جزعهم وخوفهم. ثم ما ظهر للعيان من استشهاد المؤمنين، واستماتتهم في الدفاع عن الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وتضحيتهم بشكل عديم النظير في ذلك، مما تقدم بعضُه، وليس لذلك تفسير إلا صدق الإيمان، وصفاء المحبة لنبيهم صلى اللّه عليه وآله وسلم.

ومنها: ما شُرع فيها عمليًا من عدم الصلاة على الشهداء، ودفنهم بدمائهم، وجمع الإثنين والثلاثة في قبر واحد، وعدم غسلهم ونقلهم من أماكنهم، فلم يسمح صلى اللّه عليه وآله وسلم بنقل أحد منهم إلى مكان آخر.

ومنها: أن هذه المعركة كانت إرهاصاً بموته صلى اللّه عليه وآله وسلم، وإشارة إلى وجوب تثبيتهم وتماسكهم واعتصامهم بالدين عند فقده صلى اللّه عليه وآله وسلم لأنه صلى اللّه عليه وآله وسلم واسطة التبليغ والبيان، والدين للّه، وخلاصته عبادة اللّه وحده، فلا يجوز

والحالة هذه أن ينقلبوا على أعقابهم إذا أصيب صلى اللّه عليه وآله وسلم، ومن أجل هذا المغزى العظيم، أنزل اللّه تعالى عليهم: «(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضَر اللّه شيئا، وسيجزي الشاكرين)» ﴿سورة آل عمران، آية: 144﴾، وكما قال أبو بكر رضي اللّه عنه قبض النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: من كان يعبد محمدا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد اللّه فإنه حي لا يموت.

غزوة حمراء الأسد

كانت غزوة أحد هزة عنيفة بما صاحبها من بلاء، ومصيبة وتمحيص، وكان من الطبيعي أن تتحرك نوازع النفاق والشر، ويرفع المنافقون رأسهم، وينقض المهادنون عهدهم، ويطمع المجرمون في المسلمين، ويستعدوا لنهب خيراتهم، والتعرض لهم، ويتجلى بعض ذلك في عزم المشركين على الرجوع إلى المدينة، فإنهم لما بلغوا الروحاء، قال زعيمهم أبو سفيان: لا محمدا قتلتم، ولا الكواعبَ أردفتم، شر ما صنعتم. فبلغ قوله رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فندب الناس إلى الخروج إليهم، وقال: من يذهب في أثرهم؟، وشرط أن لا يخرج معه إلا من شهد معه أحدًا، فانتدبوا وأنزل اللّه فيهم: «(الذين استجابوا للّه والرسول من بعد ما أصابهم القرح، للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم)» ﴿آل عمران، آية:172﴾ حتى بلغوا حمراء الأسد (على بعد ثمانية أميال من المدينة جنوبها) ولم يجدوا أحدا. وكان أبو سفيان قال للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يومَ أحد: موعدك موسم بدر حيث قتلتم أصحابنا، ولما كفاهم اللّه شر عدوهم استراحوا وتسوقوا وعادوا إلى المدينة، وفي ذلك نزلت: «(فانقلبوا بنعمة من اللّه وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان اللّه، واللّه ذو فضل عظيم)» ﴿آل عمران، آية: 174﴾[1]. وكان لهذه الحركة المباركة أثرها الحميد، فأحجم المنافقون واليهود عما كانوا عازمين عليه من مواصلة الغدر والأذى لما رأوا المسلمين خرجوا، رغم ما أصيبوا به من جراح وقرح لملاحقة المشركين ومواجهتهم، وعلموا أنهم - وقد فعلوا ذلك - أقدر على كبح جماحهم داخل المدينة وفي أرباضها. ولما تحرك بنو أسد بقيادة الأخوين: طلحة وسليمة في نجد وبنو هذيل، يرأسهم خالد بن سفيان الهذلي بعُرنة، يريدون غزو المدينة انتصارا لإخوانهم وطمعا في أهلها، وكان ذلك في المحرم من السنة الرابعة للهجرة[2]، أرسل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أبا سلمة بن عبد الأسد مع مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار، فنصرهم اللّه بالرعب، وفر بنو أسد وزعيمُهم

(1): زاد المعاد3/242. السيرة النبوية لابن كثير3/97. وانظرها رواه البخاري في المغازي (رقم: 3769).
(2) : زاد المعاد (2/121).

طليحة، تاركين إبلَهم وماشيتَهم بيد المسلمين[1]. أما بنو هذيل: فقال عبد اللّه ابن أنيس الجهني: دعاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: إنه قد بلغني أن خالد بن سفيان يجمع الناس ليغزوني وهو بعُرنة (وادٍ قرب عرفات) فائته فاقْتُله، قال: قلت يا رسول اللّه إنعته حتى أعرفَه، قال: إذا رأيتَه وجدت له قشعريرةً (تغير وانقباض ورعدة)، قال: فخرجت متوشّحًا بسيفي حتى وقعتُ عليه بعُرنة، مع ظعُن يرتاد لهن مَنزلاً (ماشية يرعاها أو نساء محمولات)، وكان وقت العصر، فلما رأيتُه وجدت ما وصَف لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من القشعريرة، فانقلبتُ نحوه، وخشيت أن يكون بيني وبينه محاولة تشغلني عن الصلاة، فصليت وأنا أمشي نحوَه، أومِيءُ برأسي في الركوع والسجود، فلما انتهيت إليه قال: مَن الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لهذا، قال: أجل أنا في ذلك، قال: فمشيتُ معه شيئًا حتى إذا أمكنني حملتُ عليه بالسيف حتى قتلتُه، ثم خرجتُ وتركت ظعائنه مكبات عليه، فلما قدمت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فرآني قال: أفلح الوجه، قلت: قتلتُه يا رسول اللّه، قال: صدقت، ثم قام معي صلى اللّه عليه وآله وسلم فدخل بيته فأعطاني عصا وقال: أمسكْ هذه عندك يا عبدَ اللّه بن أنيس، فخرجت بها على الناس فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأمرني أن أمسكها، قالوا: أوَ لا ترجع إلى رسول اللّه فتسأله عن ذلك؟ قال: فرجعتُ فسألتُه: لم أعطيتني هذه العصا يا رسول اللّه؟ قال: آية بيني وبينك يومَ القيامَة، إن أقل الناس المختصرون يومئذ، يومَ القيامة (المختصرون: المتكئون على المخاصر، وما يتكئ عليه الإنسان من عصا ونحوها، والمراد الأعمال الصالحة المتَميزة)، فقرنها عبد اللّه بسيفه، فلم تزل معه حتى إذا مات، أمر بها فضمت معه في كفنه، ثم دفنا جميعًا[2].
وأراد المشركون الثأر لمقتل زعيمهم خالد بن سفيان، فلجأوا إلى مكيدة مبناها: الغدر والخيانة.

حادثة الرجيع، أو غزوة الرجيع

ففي صفر من سنة أربع: قدم المدينَة وفد من قبيلتي عضل والقارة من مضر، طالبًا إيفاد جماعة من الصحابة ليفقهوهم في الدين، فأرسل صلى اللّه عليه وآله وسلم عشرة من أصحابه، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأقلح الأنصاري، فلما كانوا بالهدة بين عُسفان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان من هذيل، وكانوا نحو

---

(1) : رواه ابن سعد في الطبقات (50/2)
(2) : رواه أبوا داود في الصلاة (رقم: 1058)، وأحمد في المسند (رقم: 15469) وغيرهما، وحسنه الحافظ في الفتح (350/2)

مائة رجل، وكان هناك اتفاق بينهم على هذا الغدر، فلما عرف الصحابة أنهم غُدر بهم أبوا أن ينزلوا على ذمتهم، وقد أعطوهم الأمان وقاتلوا، فقُتل عاصم وستة من أصحابه، وبقي ثلاثة نزلوا على الأمان المعطى لهم من جديد، فلما تمكنوا منهم ربطوهم، وقاومهم عبد اللّه بن طارق فقتلوه، واقتادوا الإثنين إلى مكة ـ وهما خُبيب، وزيد بن الدّثْنَة ـ فباعوهما لقريش، فأما خُبيب فقد اشتراه بنو الحارث بن عامر ليقتلوه بأبيهم الذي قَتَله خُبيب يوم بدر، ومكث عندهم أسيرًا، حتى إذا أجمعوا قتله، استعار مُوسَى من بعض بنات الحارث ليستمدّ بها، فأعارته وغفلتِ عن صبي لها، فدَرَج وجلس على فخده، ففزِعت المرأة ليلا يقتله انتقامًا منه، فقال خُبيب: أتخشين أن أقتله؟ ما كنتُ لأفعل ذلك إن شاء اللّه تعالى، فكانت تقول: ما رأيتُ أسيرًا قط خيرًا من خُبيب، لقد رأيتُه يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد. وما كان إلا الرزق رزقه اللّه، فخرجوا به من المحرم ليقتلوه، فقال: دعوني أصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أن ما بي جزع من الموت لزدتُّ. فكان أول من سن الركعتين عند القتل: هو، ثم قال: اللهم أحصهم عددًا، واقتلهم بَدَدًا، ولا تُبق منهم أحدا، ثم أنشأ يقول: (الكامل)

ولست أبالي حين أقتلُ مسلما
على أي جنب كان للّه مَصْرَعي[1]
وذلك في ذات الإله، وإن يشأ
يبـــارك على أوصـــال شلْو ممزَّع

ثم قام إليه أبو سروعة، عقبة بن الحارثً فقَتَله. وكان خُبيب أولَ من سن لكل مسلم قُتل صبرًا الصلاةَ. وأخبر صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه يومَ أصيبوا خبَرَهم، وبعث ناس من قريش إلى عاصم بن ثابت حين حُدِّثوا أنه قُتل، أن يؤتوا بشيء منه يُعرف، وكان قتَل عظيمًا من عظمائهم، فبعث اللّه لعاصم مثل الظلة من الدبر، فحمتْه من رسلهم، فلم يقدروا أن يقطعوا منه شيئًا[2]. وأما زيد بن الدِّثْنة: فاشتراه صفوان بنُ أمية وقَتَله بأبيه (أمية بن خلف المقتول ببَدر) وسأله أبو سفيان قبل قَتله: أنشُد اللّه يا زيد، أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانَك تُضرب عُنقُه، وأنت في أهْلك؟ فقال: واللّه ما أحب أن محمدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وإني جالس في أهلي، فقال أبو سفيان: ما رأيت من الناس أحدا يحب أحدا كحب أصحاب محمد محمدًا[3].

---

(1) : في السيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري ص 399 ط المدينة: وما أبالي.. وفيه خلل.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3690).
(3) : رواه ابن إسحاق بسند صحيح إلا أنه مرسل.

حادثة بئر معونة

وفي تلك السنة قدم أبو براء عامر بن مالك الملقب بملاعب الأسنة على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بهدية، فعَرض عليه الإسلام فأبى، فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: فإني لا أقبل هدية من مشرك، قال: فابعث إلى أهل نجد من شئت (يعني من الدعاة) فأنا لهم جارٌ، فبعث إليهم صلى اللّه عليه وآله وسلم بقوم من القراء يبلغون سبعين، يرأسهم المنذر بن عمر الخزرجي، فلما بلغوا بئر معونة من نجد (على بعد مائة وستين كيلومتر من المدينة) غدر بهم عامر بن الطفيل، فاتَّبعهم بقريب من مائة رجل من رعل وذكوان من بني سليم، فأدركهم فقتلهم جميعا إلا عمرو بن أمية الضمري الذي قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأخبره. وكان أصحابُه قالوا حين تبينوا الغدر: اللهم بلّغ عنا نبينا أن قد لقيناك فرَضينا عنك ورضيتَ عنّا. كان هؤلاء القوم يقال لهم: القُرَّاء، يقرأون القرآن ويتدارسونه بالليل يتعلمون، وكانوا بالنهار يجيئون بالماء فيضعونه في المسجد بالمدينة، ويحتطبون فيبيعونه ويشترون به الطعام لأهل الصفة والفقراء. ولما قُتلوا قال صلى اللّه عليه وآله وسلم لأصحابه: إن إخوانكم قد قُتلوا، وإنهم قالوا: اللهم بلغ عنا نبينا أن قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا، ولما طعن حرام بن ملحان منهم من خلفه حتى أنفذه الرمح، صاح: اللّه أكبر، فزتُ ورب الكعبة[1]. ومكث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يدعو على رعل وذَكوان وعُصَية شهرًا في صلاة الغداة وما بعدها، ويؤمن مَنَ خلفه، وكان ذلك بدء تشريع القنوت في النوازل[2]. وكانت الفجيعة بغدر هؤلاء القراء الصالحين كبيرة، والدعوة في أمس الحاجة إلى أمثالهم. ورغم المخاطر التي كانت تحف بالدعوة في البوادي، فإنهم لم يكونوا يلقون بالا لذلك، قيامًا بالواجب وإخلاصًا في الدعوة إلى اللّه.

وفي جمادى الأولى من سنة أربع أو ست بعدها، خرج الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم لتأديب بني لحيان على غدرتهم الشنعاء، وفعلتهم النكراء ببئر معونة. ولما علموا بخروجه تفرقوا في الجبال خوفًا وهلعًا، ورجع صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم يلقَ قتالا.

غزوة بدر الثانية، وهي بدر الموعد

وفي ذي القعدة سنة أربع كانت غزوة بدر الموعد، وسميت هكذا لقول أبي سفيان السابق يومَ أحد: موعدكم موسم بدر حيث قَتلتم أصحابَنا، فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم في ألف وخمسمائة من أصحابه، ومعهم عشرة أفراس، إلى بدر، وخرج المشركون

---

(1) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 3783).
(2) : أبو داود (رقم: 1231) والحاكم في المستدرك (رقم: 782) وصححه وأقر.

يتقدمهم أبو سفيان في ألفين ومعهم خمسون فرسًا. ولما وصلوا مَر الظَّهران (وهو يبعد عن مكة بأربعين كيلومتر) رجعوا إلى مكة بحجة أن العام عام جَدْب، وانتظر المسلمون ببدر ثمانية أيام دون أن يظهر أحد من المشركين، وكانت الراية مع علي بن أبي طالب، ورجع المسلمون إلى المدينة، وكان نكوصُ المشركين، وانتظارُ المسلمين لهم ببدر، عاملا في إعادة هيبتهم وتقويةِ مكانتهم بين العَرب[1]، فتابع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إرسال السرايا والبعوث إلى مختلف النواحي من نجد والحجاز، لتأليف الأحزاب، وقاد بنفسه صلى اللّه عليه وآله وسلم ألف مجاهد، سنة خمس في ربيع الأول إلى دومة الجنْدَل، وقد بلغه تجمع المشركين بها قصد الغارة، ولما علموا بقدومه صلى اللّه عليه وآله وسلم تفرقوا، وأقام المسلمون هناك أياما جاسوا خلال الديار، ولم يلقوا مقاومة، فعادوا إلى المدينة، وفي الطريق وادَع صلى اللّه عليه وآله وسلم عيينة بن حِصْن الفزاري[2].

ومما وقع في هذه الفترة مما يستحق التدوين: تحريم الخمر سنة أربع. وفيها تزوج صلى اللّه عليه وآله وسلم زينب بنتِ جَحش الأسدية، وقتئذ فرض اللّه الحجاب في القول الصحيح قبل حادث الإفك[3]

غزوة بني النضير

ومما حدث بعد أحد وحادثة القراء ببئر معونة: غزوة بني النضير، وهم طائفة من اليهود، كانت منازلهم بناحية المدينة، وكانوا أصحاب نخل ومواشي، فبالغوا في الأذية. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم هادن يهودَ بعد الهجرة، إلا أنهم نقضوا العهد، فخرج إليهم صلى اللّه عليه وآله وسلم وحاصرهم حتى نزلوا على الجلاء، وعلى أن لهم ما أقلَّت الإبل من الأمتعة والأموال إلا الحلقة (يعني السلاح) فجلوا إلى الشام. وفي هذه الغزوة نزلت سورة الحشر. ولم يُلق يهودُ بأيديهم حتى حرق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم نخلَهم وقطعها، وهي بالمكان المسمى: البُوَيْرة بين المدينة وتيماء، وكان ذلك بإذن اللّه نكاية فيهم كما قال: «(ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن اللّه وليخزي الفاسقين)» ﴿الحشر، آية: 5﴾، وفيها يقول حسانٍ بن ثابت رضي اللّه عنه:(الوافر)

وهان على سَرَاة بني لؤي
حريق بالبُوَيرة مستطير[4]

---

(1) : ابن سعد في الطبقات (59/2) وابن القيم في الزاد (120/2).
(2) : ابن هشام (213/2) ،زاد المعاد (125/2).
(3) : السيرة النبوية الصحيحة للعمري ص 403.
(4) :بنو لؤي هم قريش.

وأجابه أبو سفيان بن الحارث، وكان لم يسلم يومئذ:
أدام اللّه ذلك من صنيع
وحرق في نواحيهَا السعيرُ
(نواحيهَا: أي المدينة، وهذا دعاء على المسلمين)
ستعلم أيّنا منها بنُزه
وتعلَم أيّ أرضينا تضيرُ
(بنُزه: ببعد، تضير: تَضُرُ، والمراد: أن أرض الأنصار تجاور أرض يهود بني النضير فإذا خربت هذه أضرت بتلك).

غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع

ويوم الإثنين، ثالث شعبان، سنة خمس (في القول الصحيح) خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم بجيشه لغزو بني المصطلق، وهم من قبيلة خُزاعة اليمانية، وكانت منازلهم بقُديد وعُسفان بين مكة والمدينة بأزيد من مائة كيلومتر، وكان من أسبابها: مشاركتُهم المشركين في غزوة أحد، ثم ازدادوا جرأة بعد النكسة. يُضاف إلى ذلك: أن بالمشلَّل من قُديد، كان صنم مَنَاة معبُودُ العرب بتلك النواحي، والطريق التجاري إلى الشام كان يمر بأرضهم، فكانوا حريصين على حمايته، تحقيقًا لمصالحهم المشتركة مع قريش، لذلك فكروا في غزو المدينة، وتهيأوا لذلك برئاسة زعيمهم: الحارث بن أبي ضرار، حيث أخبر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بذلك عَينُه بُرِيْدة بن الحصيب الأسلمي الذي قدم عليهم متظاهرًا بمساعدتهم، فلما علم خبيئة أمرهم، وعزمَهم على الغزو، عاد إلى المدينة، وأخبر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم في عدة مآت من أصحابه[1]، وهاجمهم في عُقر دارهم وهم غارون فَقَتَل وسَبَى، وكانت جُويرية من السبي، وهي ابنة زعيمهم الحارث، وكانت دعوةُ الإسلام بلغتهم فلم يستجيبوا، وشاركوا في حرب المسلمين في أحد، وجَمعوا الجموع للغزو، فكانوا بذلك محاربين، فهُزموا وغُنمت أموالهم ونساؤهم وأبناؤهم، واقتسم المسلمون ذلك[2]. وعاد صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة منتصراً في رمضان بعد أن غاب شهرًا، ولم يطق المنافقون كتمَ ما نزل بهم من غيظ وحقد بهذا الانتصار الساحق، فظهر في تصرفهم وأقوالهم. قال عبد اللّه بن أبي: لا تنفقوا على مَن عند رسول اللّه حتى ينفضوا من حوله، وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَن الأعز منها الأذل، فأخبر زيد بن أرقم رسول اللّه بما سمع، فاستفسر صلى اللّه عليه وآله وسلم المنافقين عن ذلك، فحلفوا ما قالوا، فأنزل اللّه: «(إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول اللّه، واللّه يعلم

(1) : المغازي للذهبي. وانظر زاد المعاد 256/3.
(2) : رواه البخاري في المغازي (رقم: 2355-3823). ومسلم كذلك (رقم 3260).

إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون)» ﴿المنافقون، آية 1﴾، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لزيد: إن الله قد صدّقك يا زيد[1]. وحدث في أثناء ذلك في المريسيع (اسم ماء بقُدَيد) أن كَسَع (ضَرَب برِجْله) مهاجري أنصاريا فقال الأول: يا للمهاجرين، وقال الثاني: يا لَلأنصار، فسمع ذلك صلى الله عليه وآله وسلم فأنكره وقال: ما بال دعوى الجاهلية (يعني العَصَبية)، وقال: دَعوها فإنها مُنتنة، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رَجَعنا إلى المدينة ليخرجَن الأعزُّ منها الأذل، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال عمر: يا رسول الله، دعني أضربْ عنق هذا المنافق، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه[2]، حفاظا على سمعة المسلمين بين العرب، واستجلابًا لمصلحة التأليف بين القبائل، ومنع ما يسيء إلى دعوة الإسلام. وأمر صلى الله عليه وآله وسلم بعد هذا بالرحيل العاجل، وجد السير ليقطع دابرَ الفتنة، وقد سقطت هيبةُ عبد الله بن أبي في هذه الغزوة، فتجرأ قومه على لومه وتعنيفهِ، وحتى ابنُه عبد الله مع شدة احترامه لأبيه وبره به، استأذن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قتل أبيه لما قال ما قال، ومنعَه من دخول المدينة حتى يأذن له صلى الله عليه وآله وسلم بدخولها، فنهاه صلى الله عليه وآله وسلم عن قتله، وقال: لا، ولكن برّ أباك، وأحسن صحبتَه[3]. وهذا من أعجب المواقف الدالة على قوة الإيمان، وإيثار العقيدة على العاطفة، والابتعاد عن العصبية.

حادثة الإفك

ومن مخازي المنافقين بعد فشلهم في إيقاد نار الفتنة، وإحياء العصبية الجاهلية، سعيُهم في إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم في عرضه بقذف أهله عائشة رضي الله عنها في حادثة الإفك، وملخَصها: أنها خرجت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الغزوة بعد نزول الحجاب، وفي طريق العودة، وبالقرب من المدينة، نزلت من هودجها لبعض شأنها، فافتقدت عقدًا لها، ورجعت للبحث عنهُ، فرحل المسلمون وهم يحسبونها في هَودجها، ولما وَجدت عقدها فَقَدت الركب، ومكثت بمكانها بالبيداء في انتظار أن يعودوا إليها بعد معرفة ما جَرى. ومر بها صفوان بن المعطِّل، وهو من خيار المسلمين، فَعَرَفَهَا وحملها على بعيره، وقدم بها المدينة، فاستغل المنافقون الأمرَ، وأشاعوا الإفك، وتولى كِبرَ ذلك عبدُالله بن أبي، وصدق ذلك مِسطح بن أثاثة قريبُ

(1) : رواه البخاري (رقم: 4520) ومسلم (رقم: 4976) في المغازي.
(2) : رواه البخاري (رقم: 4527) ومسلم في المغازي (رقم: 4682).
(3) : رواه الطبراني في الأوسط والبزار بسند صحيح. انظر مجمع الزوائد (1/61-4/259).

أبي بكر، وحسانُ بن ثابت، وحمنة بنت جَحش، وتأثر صلى اللّه عليه وآله وسلم بتلك الأقوال، وأعلن ذلك بالمسجد مصرحًا بثقته بزوجه وصفوان، وانقسم المسلمون في ذلك، وكادت تنجم فتنة، إلا أن رسول اللّه هدأهم، ومرضت عائشة لما سمعت، واستأذنت في الذهاب إلى بيت أبيها فأذنَ لها صلى اللّه عليه وآله وسلم، فكانت تبكي ولا تنام في انتظار أن يبرئ اللّه ساحتَها، وحدث أن انقطع الوحي شهرًا، فعانى صلى اللّه عليه وآله وسلم وأهله من شدة كبرى، متطلعًا هو بدوره إلى الوحي، لتطمئن نفسه الشريفة، وتلجم أفواه المنافقين النتنَى فأنزل اللّه : «(إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم الخ)» ﴿النور، آية11. .﴾ فحصحص الحق، وبرأ اللّه ساحةَ الصدّيقة بنت الصديق، وأخزى المنافقين، ورد كيدهم في نحرهم. وعاتب اللّه المؤمنين على تسرعهم في تصديق المنافقين فقال: «(لولا إذ سَمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا إفك مبين)» ﴿النور، آية: 11. .﴾. وحلف أبو بكر أن لا يُنفق على قريبه مسطح، فأنزل اللّه: «(ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل اللّه وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر اللّه لكم واللّه غفور رحيم)» ﴿النور، آية: 11. .﴾ فعاد إلى الإنفاق عليه. وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بإقامة حد القذف على مسطح، وحسان، وحَمنة[1].

وكانت حادثة الإفك فتنةً كفى اللّه المؤمنين شرها، فبسببها أوشكت نار العصبية أن تشتعل من جديد بين الأوس والخزرج لما تجادلوا فيها بالمسجد، وبمحضره صلى اللّه عليه وآله وسلم. وكان المنافقون يسعون السعيَ الحثيث في إثارتها، لهدم وحدة المسلمين، وإضعاف الثقة بأنفسهم، ولكن اللّه سلّم، وله الحمد والمنة. ولم يقم صلى اللّه عليه وآله وسلم حد القذف على ابن سَلول، مع أنه الذي تولى كبرَ مصيبة الإفك، لأن اللّه تعالى توعده بالعذاب الأليم، والحدود كفارات للجُناة. وما ورد في بعض الأحاديث من إقامة الحد عليه لا يصح، ولما رجع صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة بعد الفراغ من بني المصطلق، وقسم غنائمهم، وكانت جويرية من سهم ثابت بن قيس، وهي بنت سيد قومه: الحارث بن أبي ضرار، فجاءت النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم تستعينه في مال الكتابة لتحررَ نفسَها، وأخبرته عن نفسها وأبيها، فخيرَّها إن شاءت أن يؤدى عنها كتابتَها ويتزوجها فقبلت. ولما علم الناس بذلك قالوا: أصهار رسول اللّه، فأعتق مائة أهل بيت، فما كانت امرأة أعظم بركة منها على قومها، وكان عتقها صداقَها[2]. وجاء أبوها يطلب من النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يخلي سبيلها، فخيرَّها صلى اللّه

(1) : رواه الطبراني، انظر مجمع الزوائد 195/3، فقد حسن إسناده.
(2) : ابن هشام (294/2) بسند صحيح.

عليه وآله وسلم فاختارت البقاء معه[1]، وأسلم الحارث وقومه، وولاه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد ذلك صدقات قومه. وبسبب زواجه صلى اللّه عليه وآله وسلم من جويرية، ومَا تم من عتق أصحابه لقومها، أسلم بنو المصطلق، وحسُن إسلامُهم، وانقلبوا أنصارًا لدين اللّه، يجاهِدون في سبيل اللّه. ومن عجيب أمرهم في صدق الإيمان: أن عامل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على الزكاة تأخر عن موعده، فقلقوا لذلك، وعزموا على القدوم عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم أرسل إليهم عامله: الوليد بن عُقبة لقبض الزكاة، فخاف ورَجَع زاعمًا أنه منعوه وأرادوا قتله. فأرسل صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم سَرية، فقدم الحارث عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم وحَلف أنه ما رأى الوليد، وما حدث مما قال شيء، فعرَف صلى اللّه عليه وآله وسلم صدقه، وأنزل اللّه تعالى: «(يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)» ﴿الحجرات، آية: 6﴾[2].

فوائد وعبر من غزوة بني المصطلق، وحادثة الإفك

ومما يستفاد من أحداث هذه الغزوة وما أعقبها من حادث الإفك: جواز الإغارة على المشركين دون إنذار، بعد أن بلغتهم دعوة الإسلام كما تقدم، (وكان محمد الغزالي المصري مبطلا في فقه سيرته، حيث طعن في الحديث وهو صحيح، زاعما أن هذه الإغارة لا تجوز، جاهلا أو متجاهلا أن دعوة الإسلام كانت بلغتهم قبل ذلك، وليس من شأن المسلم ولا طبيعة المؤمن، أن يسارع بالطعن مغترا بفهمه، مكتفيا به دون دليل، وكم لهذا الرجل من هذه المراقف الضارة به وبقراء كتبه، وللّه في خلق شؤون).

ومن أحكام هذه الغزوة: جواز جعل العتق صداق المرأة في الزواج ، كما فعل صلى اللّه عليه وآله وسلم حين أدى كتابَة جويرية وتزوجها، وكما فعل بصَفية بنت حُيي في غزوة خيبر بعد ذلك[3]. ومنها: مشروعية القرعة، وبها خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم بعائشة حيث أقرع بين نسائه، فأصابتها القرعة[4]، كما يدل على جواز خروج النساء في الغزو. ومما يتعلق بعائشة بعد نزول براءتها في القرآن، أن من قذفها بعد ذلك يعد مكذبًا للقرآن، فتترتب على ذلك ردته، وبذلك استدل الإمام مالك على تكفير الشيعة الروافض، لقذفهم إياها لعنهم اللّه إلى الآن. ومنها: جواز استرقاق العرب بموجبه الشرعي. ومنها: جواز العزل عن النساء حيث استأذن

---

(1) : تاريخ ابن خياط (48) من مرسل صحيح، وأحمد في المسند (249/4).
(2) : رواه أحمد في المسند (479/4) بسند حسن.
(3) : رواه البخاري (رقم: 3889) ومسلم (رقم: 2561). في المغازي.
(4) : رواه أبو يعلي والطبراني. انظر مجمع الزوائد (230/9) فقد حسن إسناده.

الصحابةُ رسولَ اللّه أن يعزلوا عن سبياتهم فأذن به وقال: (ما عليكم أن تفعلوا، ما من نَسَمة َكائنة إلى يوم القيامة إلا وهي كائنة)[1]. والعزل عن الحرة يجوز بإذنها لحقها[2].

ومن العبر البالغة: ما دلت عليه حادثة الإفك من تأثر الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بقالة السوء في أهله تحقيقا لبشريته، ولو كان يعلم الغيب كما يزعم المتصوفة لما حَدَث له ما حَدث، ولو كان يتحكم في الوحي، أو كان حديثا نفسيا، أو تألقًا روحيا َكما زعم أذناب المستشرقين؟! لحاوَله، دون انتظار وترقب أيامًا ثقيلة صعبة عليه وعلى أهله وأصحابه. ولكن الأمر بيد اللّه، فلا يسعه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلا اللجأ إلى اللّه، وتفويض الأمر إليه وحده.

ومن العبر: هبوب ريح قوية قرب المدينة، كادت تدفن الراكب، فطمأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابَه وقال: إنها هبت لموت عظيم من عظماء الكفار، فلما قدموا المدينة، وجدوا رفاعة بن زيد بن التّابوت، أحد عظماء يهود، وزعماء المنافقين، مات في ذلك اليوم[3].

ومن غرائب قصة الإفك: أن صفوان بن المعَطّل، لما ضُرب حسان بن ثابت الحد، لقيه فوثب عليه، وأوثق يديه إلى عنقه بحبل، ثم انطلق به إلى دار بني الحارث بن الخزرج، فلقيه عبد اللّه بن رواحة فقال: ما هذا؟ قال: أما أعجبك ضربُ حسان بن ثابت بالسيف، واللّه ما أراه إلا قد قتلته، قال له عبد اللّه بن رواحة: وهل علم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بشيء مما صنعت؟ قال: لا واللّه، قال: لقد اجترأت، أطلق الرجل، فأطلقه. ثم أتوا رسل اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فذكروا ذلك له، فدعا حسان وصفوان بن المعطل، فقال صفوان: يا رَسول اللّه، آذاني وهجَاني فاحتمَلني الغضب فضربته، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لحسان: أحسن ياحسان، أتشوفت علي قومي (أي نفست عليهم هدايتهم) أن هداهم اللّه للإسلام، ثم قال: أحسن ياحسانَ في الذي أصابك، قال حسان: هي لك يا رِسول اللّه[4]، وأعطى صلى اللّه عليه وآله وسلم حسان: سِيرين أختَ مارية، فأولدها عبد الرحمن بن حسان بن ثابت.

غزوة الأحزاب

واستمر المسلمون في الضغط الاقتصادي والعسكري على كبار قريش، المتمثل في تحديهم لقريش في بدر الموعد، وتحركاتهم في عدة جهات، وانتصارهم الساحق على بني المصطلق، مع

---

(1) : رواه مسلم بشرح النوري (643/6).
(2) : نيل الأوطار للشوكالي (222/6).
(3) : رواه مسلم في صفة المنافقين (رقم: 4988)، وابن هشام (292/2)
(4) : رواه البيهقي في الدلائل (1417) بسياق أطول.

إجلاء يهود بني قينقاع وبني النضير. كل هذا أثار كوامن الحقد والحفيظة، ودفع المشركين إلى التحالف مع بني قريظة وغيرهم من المنافقين، لشدة رغبتهم في الانتقام الشديد من المسلمين، وهو ما تجلى في غزَوة الخندق أو الأحزاب، التي وقعت في شوال سنة خمس للهجرة أو أربع، وكانت معلنة من الفريقين. وقد أشرنا إلى مجمل أسبابها وهي معلومة، ومن أهمها: إجلاء يهود بني النضير من المدينة، فلحق كثير من وجوههم بخيبر، حيث بدأوا يراسلون قريشًا وقبائل عربيةٍ في شأن قتال المسلمين، والقضاء على نفوذهم الذي استفحل جداً وأقلق راحتهم. ولم تفد فيه هزيمة أحد، ولا حادثة القراء ببئر معونة، بل سرعان ما استعادوا نشاطهم أحسن مما كان، وشد عضدهم دخول الناس أفواجا في الإسلام، وتوالي السرايا والبعوث إلى عدة نواح من الجزيرة. وهكذا توجه وفدٍ من زعماء يهود إلى مكة، منهم حيي بن أخطب، وسلام بن أبي الحقَيق وهما من بني نضير، ففاوضوا المشركين في حرب المسلمين، وأعلنوا لهم أن الشرك خير من الإسلام، وأنهم سيقاتلون معهم لاسترداد عزهم وأرضهم وأموالهم، وفي ذلك نزل قوله تعالى: «(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)» ﴿النساء، آية: 51﴾[1]، ثم توجه الوفد إلى نجد، وعقدوا حلفًا مع قبيلة غَطفان، ووعدوهم بنصف تمر خيبر، تشجيعاً لهم على المشاركة، وهكذا تحزبت الأحزاب بانضمام قبائل بني سليم، وكنانة، والأحابيش، وتهامة، واجتمعوا بجيش قريش بمَر الظَّهران الذِي يبعد عنِ مكة بأربعين كيلومتر، ولحق بهم غيرهم من فروع غطفان، كفزارة، وأشجع، وبني أسد، وبني مُرة، وتحرك الجميع في اتجاه المدينة، ونزلوا بالقرب منها. وبلغ الخبرُ المسلمين، فاستشار النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه كعادته قبل هذه الأمور، لاستخراج الرأي، وتحمل المسؤولية، والتدريب على معالجة المشاكل، فأشار عليه سلمان الفارسي بحفر الخندق في شمال المدينة حيث المنطقة المكشوفة[2]، أما سائر الجهات: فكانت محصنة بالبناء، والنخيل، والحرَّات الوعرة التي يصعب السير فيها، فقبل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ذلك والمسلمون، لما في ذلك من التحصن ضد الغزاة الكثيرين، ومنعهم من اقتحام المدينة لنضحهم بالسهام من خلف الخندقِ. فشرع المسلمون في حفر خندق طوله: خمسة آلاف ذراع، وعرضُه: تسعة أذراع وعمقه: سبعة إلىٍ عشرة، وتوزع المسلمون العمل، فكان على كل عشرة حفرُ أربعين ذراعا[3]،

---

(1) : البداية (108/4) لابن كثير بسند حسن، وفتح الباري (393/7).
(2) : ابن هشام (224/2) دون سند. وانظر فتح الباري (393/7).
(3) : فتح الباري (397/7).

وأسرعوا في الحفر رغم شدة البرد والجوع، لأن المدينة كانت وقتئذ تعاني من المحل، فكان المسلمون يأكلون الشعير مخلوطا بدهنٍ سنخ منتن الرائحة لقدمه، فيطبخونه ويأكلونه، ويقتصرون أحيانًا على التمر، وقد يطوون ثلاثة أيام جوعاً، فيتحملون ذلك بصبر وإيمان[1] والرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم معهم يحفر ويحمل التراب على ظهره، حتى اغبرَّ بطنه وجاع صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى ربط حجراً على بطنه وكان الصحابة يرون ذلك منه فيتشجعون مرددين الأناشيد، فيردد معهم تواضعًا وتنشيطا، وهم جميعا سواسية في الأمر، الغني والفقير، والصغير والكبير: (رجز)

اللهم لولا أنت ما اهتدينا
ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا
وثبت الأقدام إن لاقينا
إنّا إذا قوم بغَوا علينا
وإن أرادوا فتنة أبينا

ويمد صلى اللّه عليه وآله وسلم صوته بآخرها (أبينا)[2] وتارة كان المسلمون يرتجزون وهم يحفرون ويحملون التراب:

نحن الذين بايعوا محمدا
على الجهاد ما بقين أبدا

فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يجيبهم: اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة، وتارة كان يبدأ هو صلى اللّه عليه وآله وسلم بقوله، فيجيبه الصحابة بما سبق، وكان لمشاركته صلى اللّه عليه وآله وسلم بهذه الصفة أثر كبير في رفع الروح المعنوية للمسلمين، ودفعهم لمضاعفة الجهد، فأتموا الحفر في ستة أيام[3]. وحدثت أثناء الحفر آيات وأعلام، شاهدة بنبوته عليه السلام منها قوله: صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمار بن ياسر رضي اللّه عنه: ويحّ عمار، تقتلك الفئة الباغية[4]، فقتل مع علي رضي اللّه عنه في صِفين كما هو معلوم.

ومنها: أن جابر بن عبدِ اللّه لما رأى ما يعاني صلى اللّه عليه وآله وسلم والصحابة من الجهد والجوع، أراد أن يطعمهم، فأخبر زوجه وذبح معزى، وطحنت زوجه صاع شعير، وطبختٍ ذلك في بُرمة، ودعا جابر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وسارَّه بمقدار الطعام، فصاح صلى اللّه عليه وآله وسلم بالصحابة أن هَلُمَّ إلى طعام جابر، فحضر منهم ألف، فدهش جابر وأهله، ولكن الرسول دعا

---

(1) : فتح الباري (397/7).
(2) : رواه البخاري (47/5).
(3) : تلقيح فهوم الأثر لابن الجوزي ص 59.
(4) : رواه مسلم رقم 2235.

بالبركة في البُرمَة، فأكل منها الجميع حتى الشبع، وفضل منها حتى أهدى منها أهل جابر[1]. وكان الصحابة إذا واجههم مشكل في الحفر، كظهور صخرة تمتنع على معاولهم، لجأوا إليه فيضربها باسم اللّه فتفتت. وعرضت مرة صخرة كبرى لم تنل منها معاولهم، وعجزوا عنها، فحضر صلى اللّه عليه وآله وسلم وضربها ثلاث ضربات، قال بعد الضربة الأولى: اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح الشام، واللّه إني لأبصر قصورها الحمر الساعة، ثم ضربها الثانية فقال، اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح فارس، واللّه إني لأبصر قصر المدائن البيض، ثم ضربها الثالثة وقال: اللّه أكبر، أعطيت مفاتيح اليمن، واللّه إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذه الساعة[2]، فكان من المدهش حقا ما يسمعونه مؤمنين من الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم من بشارات النصِر والفتوح، وهم في أسوأ حال من الجوع، والخوف، والحصار، وكَلب البرد،ورغم هذا فقد قالوا ما قال اللّه عنهم: «(هذا ما وعدنا اللّه ورسوله وصدق اللّه ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما)» ﴿الأحزاب، آية: 22﴾. ولما سمع المنافقون هذا سخروا كعادتهم، وبالغوا في الإرجاف وقالوا ما حكى اللّه عنهم في آيات: «(وإذْ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا اللّه ورسوله إلا غرورا، وإذْ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لامقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة، إن يريدون إلا فرارا، ولو دخلت عليهم من أقطارهم ثم سئلوا الفتنة لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا، ولقد كانوا عاهدوا اللّه من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد اللّه مسؤلا، قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون قليلا، قل من ذا الذي يعصمكم من اللّه إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون اللّه وليا ولا نصيرا، قد يعلم اللّه المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رايتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه في الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنتكم حداد أشحة على الخير، أوليك لم يؤمنوا فأحبط اللّه أعمالهم، وكان ذلك على اللّه يسيرا، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يات الأحزاب يودوا لو أنهم بادون في الأعراب، يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا)» ﴿الأحزاب، آية:13-20﴾، وهي آيات بينات تصور أدق تصوير نفوس المنافقين، وما يخامرها من خور، ووهن، وجزع، وقلق، وسوء الظن باللّه. ورغم هذه المواقف المخزية، وما يعانيه المسلمون من شدائد، مضوا في عملهم متوكلين على اللّه، واثقين من نصره، فأكملوا خطة الدفاع، واستعدوا لمدافعة عدوهم، وجمع

---

(4) : رواه البخاري (46/5 ومسلم رقم 1610.
(5) : فتح الباري (397/7).

صلى اللّه عليه وآله وسلم النساء والأطفال في حصن فارغ لبني حارثة [1]، وهو أقوى حصن في المدينة، للاطمئنان عليهم، وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم المسلمين فتحصنوا من الخلف بجبل سَلع، واستقبلوا الخندق بسهامهم، واشتد الحصار، ودام شهرا، ورأى المشركون الخندق متعجبين محتارين في كيفية اقتحامه، وكانوا كلما حاولوا أمطرهم المسلمون بوابل من النبال[2]. وتبارز بعض المسلمين مع المشركين، فهذا علي ٍرضي اللّه عنه يبارز عمرو بن عبد وُدّ ويقتُله، والزبير يبارز نوفلا المخزومي ويقتُله. وتواصلت المناوشات، ومحاولة الهجوم، حتى شُغل المسلمون عن صلاة العصر في وقتها، فقضوها بعد غروب الشمس[3]. ولم تصل صلاة الخوف لأنها لم تكن شرعت، وكان لطول الحصار وصمود المسلمين وهم على الثلث أو أقل من جيش المشركين، إذ بلغ عدد هؤلاء عشرة آلاف والمسلمون ثلاثة آلاف، أثر واضح في إضعاف معنويات الأحزاب، واستشهد من المسلمين ثمانية على رأسهم: سعد بن معاذ سيد الأنصار، أصيب في أكحله فمات بعد ذلك بعد غزوة بني قريظة، وكان يعالج في المسجد بأمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وفيه مات بعد أن انتقض جرحه، وحَكم في يهود بني قريظة بما سيأتي. وكان جاء راكبًا إلى المسجد وهو جريح فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم للأنصار: قوموا إلى سيدكم، فإنه أول رجل رمى بسهم في سبيل اللّه[4]، وله رضي اللّه عنه مواقف عظيمة، وتضحيات جسيمة في نصرة الإسلام. أما المشركون فقد قُتل منهم أربعة. واشتهرت في هذه الغزوة قصة نعيم ابن مسعود الغطفاني، في قيامه بدور مهم في تخذيل الأحزاب، وزرع الشك والبلبلة في نفوسهم بخُدعة ارتكبها بإذنِ الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، وهي إغراء اليهود بطلب رهائنَ من قريش ليلا تتركهم، وإفهامه قريشًا أن اليهود ستسلم الرهائن للمسلمين لإحياء الصلح المنقوض، فكانت هذه الخدعة كافية لسوء الظن، وانعدام الثقة، ووقوع الخذلان. هذه القصة رغم اشتهارها لا تصح[5]، ولكنها تتمشى مع أحكام الحرب، والحرب خدعة. ولكن الهزيمة كانت بريح الصَّبا التي نصر اللّه بها المسلمين، وسلطها على الكفرة، فاقتلعت خيامَهم، وكفأت قُدورَهم، وأطفأت نيرانهم مع شدة البرد، فنادى أبو سفيان بالرحيل، فانكفأوا يجُرون أذيال الخيبة والخسران، ولم ينالوا إلا الشقاءَ وغضَب الرحمن. وأنزل اللّه في ذلك: «(يا أيها

---

(1) : رواه مسلم رقم: 1879.
(2) : رواه ابن سعد (73/2) من مرسل قوي.
(3) : رواه البخاري في المغازي وقم: 3802، وانظر تفسير الطبري: جامع البيان (129/ 21) وفتح الباري (393/7).
(4) : رواه البخاري في المغازي رقم: 3812.
(5) : أوردها الواقدي في المغازي: 481، وابن هشام 228/2 وغيرهم بغير إسناد.

الذين آمنوا اذكروا نعمة اللّه عليهم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها، وكان اللّه بما تعملون بصيرا)» ﴿الأحزاب، آية: 9﴾، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم أرسل حذيفة بن اليمان لاستطلاع حال الأحزاب، فذهب بعد تلكؤ، قال حذيفة: لم أجد بُدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم، فذَهَب فوجدهم في حال شديدة من شدة القُر، ورجع وأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بما رأى ثم نام منهوكا من التعب والبرد، بعد أن ألبسه الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم عباءته التي كان يصلي فيها، ولم يستيقظ حتى أصبح، وقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: قم يا نومان[1]، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم في هذه الأثناء، دعا ربه قائلا: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم[2]. ولما رحل المشركون، وانفض جمعهم، فرح المسلمون واطمأنوا، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم[3]. وفي هذا إشارة إلى تغيير الحال من الدفاع إلى الهجوم، واتساع دائرته من المدينة إلى مكة والطائف، ثم إلى تبوك.

سرية سيف البحر والخبط

وكان من آثار انهزام الأحزاب وفشلهم: أن تقوى المسلمون، وعادوا إلى التعرض لقوافل قريش، وهكذا بعث صلى اللّه عليه وآله وسلم أبا عبيدة بن الجراح في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، إلى سيف البحر، للتعرض لقافلة قريش، فتأخرت واشتد الجوع بالمسَلمين حتى أكلوا الخبَط (ما يسقط من ورق الأشجار بعد ضربه بالعصا) ونحر بعضهم بعضَ الإبل، فنهاهم أبو عبيدة لحاجتهم إليها إذا لقوا العدو. وكان لطف اللّه بهم، أن ألقى البحر إليهم حوتًا عظيمًا أكلوا من لحمه وَوَدَكه نصف شهر، وحملوا منه إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فأكل منه[4].

غزوة بني قريظة

ولما رجع صلى اللّه عليه وآله وسلم من الخندق، ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح!؟ واللّه ما وضعناه، فاخرُج إليهم فقال: إلى أين؟ قال: ها هنا وأشار إلى قريظة، فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم، وأمر أصحابه أن لا يصلوا العصر إلا في بني قريظة[5]، فلبسوا السلاح وخرجوا، واختلفوا في الصلاة،

---

(1) : رواه مسلم في المغازي رقم: 3343.
(2) : رواه البخاري رقم: 3806. ومسلم رقم: 1363.
(3) : رواه البخاري - المغازي رقم: 3801.
(4) : رواه البخاري في المغازي رقم: 4014.
(5) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3810.

فمنهم مَن صلى في الوقت، ومنهم مَن أخر حتى صلى بعد الغروب ببني قريظة وقوفاً مع الأمر. ولم يعنف صلى اللّه عليه وآله وسلم واحدة من الطائفتين، لعلمه باجتهادهم[1]. وكان سببُ هذه الغزوة، نقضَ يهود للعهد أثناء حصار المدينة، إذ لم يتأخروا عن المشاركة فيه، بل الدعوة إليه قبله كما سبق. وخرج المسلمون يحمل لواءهم علي رضي اللّه عنه ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على إثره، وحاصروا اليهود خمسا وعشرين يوما، فلما اشتد البلاء عليهم، استشاروا أبا لبابة بن المنذر في النزول على حكم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأشار إليهم أنّه الذبح[2]، واختار يهود أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ لما كان بينهم من الحلف قبل ذلك، فجاء سعد إلى المسجد ورسول اللّه ينتظره، وكان ضرب له خيمة في المسجد ليعوده كما سبق، فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: هؤلاء ـ يعني يهود ـ نزلوا على حكمك، فقال سعد في كلام طويل: تقتل مقاتلتهم، وتسبي ذراريهم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: قضيتَ بحكم اللّه[3]. ولما كان سعد أصيب في أكحله، فحسمه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بالنار لم يندمل، فقال رضي اللّه عنه: اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه حتى حكم فيهم بما سبق، وكانوا عدة مآت بين أربعمائة إلَى تسعمائة، ويجمع بين القولين بأن الأربعمائة من المقاتلة، والباقي من الأتباع والذرية. وبعد الفراغ من قتلهم، انفتق عرق سعد فمات منه رضي اللّه عنه شهيدا[4]، ولم يقتل صلى اللّه علَيه وآله وسلم إلا البالغين. قال عطية القرظي: كنت من سبي بني قريظة، فكانوا ينظرون، فمن أنبت الشعَر قُتل، ومن لم يُنبت لم يُقتل، فكنت فيمن لم ينبت، كشفوا عن عانتي فوجدوها لم تنبت فجعلوني في السبي[5]. ولم يقتل من النساء إلا امرأة قُتلت قصاصًا لقتلها خلاد بن سويد، طرحت عليه رحى، نودي عليها وأهلهَا يُقتلون، وهي جالسة عند عائشة تضحك، فقالت لها: ويلك ما لك؟ قالت: إني سأقتل، قالت: ولم، قالت: لحدث أحدثته، فأخرجت وضربت عنقها. قالت عائشة: واللّه ما أنسى عجبي من طيب نَفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل[6]. وقد ثبت أن بعض يهود بني قريظة أسلموا وألحقوا بالنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم. أما سائر يهود المدينة فقد أجلاهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كما قال عمر.

---

(1) : رواه الطبراني في الأوسط وقال الهيثمي: رجاله ثقات. مجمع الزوائد 30/3.
(2) : فتح الباري (413/7).
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3812.
(4) : فتح الباري (414/7).
(5) : رواه أحمد في المسند (310/4) بسند حسن، وأبو داود، رقم: 3826.
(6) : رواه أحمد في المسند، قال في الفتح الرباني (85/21) بسند صحيح.

زواجه صلى اللّه عليه وآله وسلم بزينب وإبطاله عادة التبني، ونزول الحجاب

ووقعت بين غزوة الأحزاب، وصلح الحديبية، أحداث وسرايا، نجمل ما صح منها فيما يلي:

من المعلوم أن زيد بن حارثة كان مولى تبناه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فكانوا يدعونه زيد بن محمد، وأراد اللّه إبطالِ عادة التبنِي لما فيها مِن ضرر وزور، فأمره اللّه أنِ يزوج زينِب بنتَ جَحش بنتَ عمته: زيداً مولاه ففعل، ولم يلبث زيدُ إلا قليلا حتى بدأ يشكو زوجَه زينب لتعاليها عليه، وانحرافها عنه، فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول له: (أمسك عليك زوجك، واتق اللّه). .لما كان يعلم مراد اللّه من هذا الزواج، وهو إبطال التبني، وأن هذا سيتم لا محالة، إلا أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يستثقل وضعَ هذا الحدث في النفوس، وانطلاق ألسِنة المنافقين فيه، بعد أن يتزوجها هو عقب طلاق زيد لها، نزولا على إرادة اللّه، فلم يكن يستطيع الإفصاح عما يريده اللّه، وما سيتم من هذا الزواج، فلذلك عاتبه ربه فقال: «(وتخفي في نفسك ما اللّه مبديه وتخشى الناس واللّه أحق أن نخشاه، فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر اللّه مفعولا)» ﴿الأحزاب، آية: 37﴾، وتم طلاق زيد. ولما انقضت عدة زينب، بعث صلى اللّه عليه وآله وسلم زيدًا نفسَه لخطبتها له، فذهب إليها فوجدها تخمر عجينَها، قال زيد: فلما رأيتُها عظمت في صدري حتى ما أستطيع أن أنظر إليها (يعني هبتُها لإرادة الرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم زواجها) أن رسول اللّه ذكرها، فوليتُها ظهري، ونكصت على عقبي فقلت: يا زينب، أرسلني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يذكرك، فقال: ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي (تعني الاستخارة)، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن، وجاء رسول اللّه فدخل عليها بغير إذن[1]، لأن اللّه زوجها إياه بالوحي، فلذلك كانت زينب تفاخر أزواج النبي وتقول: زَوَّجكن أهاليكن، وزوجني اللّه تعالى من فوق سبع سماوات[2]، وأولم صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد الدخول بها، أهدت إليه أم سليم، أم أنس بن مالك حيسًا في تور، وبعثت به مع ابنها إليه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأمره صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يدعو الناس فحضروا، وكانوا نحوَ ثلاثمائة، فأمرهم صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يدخلوا عشرةَ عشرةً ويأكلوا من الحيس، فأكلوا حتى شبعوا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لأنسٍ: ارفع، فرفع قال: فما أدري حين وُضعت كان أكثر أم حين رفعت (معجزة له صلى اللّه عليه وآله وسلم)، وانصرف الناس

---

(1) : رواه مسلم في النكاح. رقم: 2567.

(2) : رواه البخاري في التوحيد. رقم: 6870.

إلا طائفة جلسوا يتحدثون فثقلوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو جالس، وزوجه مولية وجهها الحائط، فقام صلى اللّه عليه وآله وسلم وذَهَب وسَلَّم على نسائه، ثم رَجَع ففطنوا لفعلتهم، وابتدروا البابَ فخرجوا، ودخل صلى اللّه عليه وآله وسلم بأهله، ولم يلبث إلا يسيرًا حتى خرج علي، وأنزل اللّه تعالى: «(ياأيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتَ النبي إلا أن يُوذن لكم إلى طعام غيرناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يوذي النبيء، فيستحيي منكم، واللّه لا يستحيي من الحق، وإذا سألتموهن متاعا فاسألهن من وراء حجاب)» ﴿الأحزاب، آية: 53﴾. وقد خاض المستشرقون وأذنابهم في هذه القصة زاعمين أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان مغرما بابنة عِمته زينب، راغبا في الزواج منها، اعتمادا على روايات باطلة حول قوله تعالى: «(وتُخفي في نفسك ما اللّه مُبديه)»، ولكنهم عَمُوا عن العلة الصحيحة في هذا، وهي المشار إليها بقوله: «(لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا، وكان أمر اللّه مفعولا)». كما عمُوا عن قرب زينب منه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وإشرافه عليها لو أرادها قبل حادث الزواج، ولكن اللّه أراد به إبطال عادة جاهلية ظالمة، وهي نسبة ولد لغير صلب، إلى رجل أجنبي، وتحريم زواج الرجل من زوج مُتبَناه بعد طلاقه أو وفاته، اعتباراً بالوالدية المزيَّفة، وفي هذا يقول تعالى: «(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول اللّه وخاتم النبيئين)» ﴿الأحزاب، آية: 40﴾، وقال عن هؤلاء الأبناء: «(ادعوهم لآبا ئهم هو أقسط عند اللّه، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم)» ﴿الأحزاب، آية: 5﴾. ،كان حادث هذا الزواج، وما ترتب عليه من نزول الحجاب سنة ثلاث أو أربع أو خمس بعد الهجرة بالقرب من غزوة بني المصطلِق، قُبيلها أو بُعيدها على اختلاف الروايات.

ومن الأحداث الواقعة في هذه الأثناء: قتل سلام بن أبي الحُقيق أبي رافع اليهودي الذي كان يُعين على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ويؤذيه، وكان ممن ألب الأحزاب عليه، وأعان المشركين بالمال على حرب المسلمين، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم رهطا من الخزرج إلى حصنه بخيبر، وكانوا يرغبون في مساواة إخوانهم الأوس الذين قَتَلوا كعب الأشرف، وأمّر عليهم عبد اللّه بن عتيك، فتم اغتياله في قصة مثيرة طويلة، استُنبطت منها أحكام، واستفيدت منها عبرَ وفوائد، تنظر في (فتح الباري)[1].

سرية محمد بن مسلمة إلى قُرطاء

ومن الأحداث سَريّة محمد بن مسلمة إلى القُرطاء، وهم بطن

(1) : فتح الباري 345/7

من بني بكر، وكانت في عاشر محرم من السنة السادسة فخرجوا يجدون السير، يكمُنون النهار، ويسيرون الليل، حتى دهموهم على غرة فقتلوا منهم عشرة وفر الباقون، واستاقوا الإبل والشاء. وفي عَودتهم لقوا ثُمامة بنَ أثال سيد بني حنيفة، فأسروه وهم لا يعرفونه فقدموا به المدينة، وربطوه بسارية في المسجد، فخرج إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: ما عندك يا ثُمامة؟ فقال: عندي يا محمد خيرا، إن تقتُل تقتل ذا دم، وإن تُنعم تُنعم على شاكر، وإن كنت تريد مال فسل تعط منه ما تشاء، وكرر صلى اللّه عليه وآله وسلم عليه ثلاث مرات، وهو يجيب كما سبق، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أطلقوا ثُمامة، فانطلق إلى نخيل ثَمة فاغتسل، ثم أقبل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، يا محمد، واللّه ما كان على الأرض وجهِ أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه كلها إليَّ، واللّه ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبَّ البلاد كلها إليَّ، وإن خيلك أخذتني وإني أريد العمرة، فماذا ترى؟ فبشره رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأمره أن يعتمر، فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت؟ فقال: لا، ولكني أسلمت مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولا واللّه، لا يأتيكم من اليمامة حَبة حِنطة حتى يأذن فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم[1].

وفي قصة إسلام ثُمامة، زعيم اليمامة، أحكام وفوائد تنظر كسابقتها في الفتح.

غزوة بني لحيان وتشريع صلاة الخوف

ومما وقع في هذه الفترة من الأحداث وبالضبط في ربيع الأول أو جمادى الأولى سنة ست: غزوة بني لحيان الذين غدروا بالصحابة يوم الرَّجيع، وديارهم قريبة من مكة، ولم يكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يرى الخروج إليهم للانتقام منهم لغدرهم وشركهم، لبعد ديارهم من المدينة. وبعد فشل الأحزاب في غزوة الخندق، خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم في نحو مائتين من أصحابه حتى وصل عُسفان، فجاء المشركون يتقدمهم خالد بن الوليد قبل إسلامه، وحضرت الصلاة والمشركون بين المسلمين والقبلة، فصلى الظهر، فقال المشركون: لقد كانوا - يعنون المسلمين - على حال لو أصبنا غِرّتهم، ثم قالوا: تأتي عليهم الصلاة هي أحب إليهم من أبنائهم وأنفسِهم - يعنون العصر - قال: فأنزل اللّه تعالى: «(وإذا كنتَ فيهم فأقمتَ لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا

---

(1) : رواه البخاري - المغازي (رقم: 4024)، ومسلم في الجهاد (رقم: 3310)، وابن هشام (387/3).

أسلحتهم، فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتات طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)» ﴿النساء، آية: 102﴾ فحضرت الصلاة فصلوا صلاة الخوف، كما أمر اللّه تعالى، وصلاها صلى اللّه عليه وآله وسلم مرتين، مرة بعُسفان وهي هذه، ومرة بأرض بني سليم ورجح العلماء أن صلاة الخوف صليت بعسفان في غزوة الحديبية، وليس قبل ذلك.

سرية زيد بن حارثة إلى العيص

وذكر أصحاب المغازي والسير سرية زيد بن حارثة إلى العيص سنة ست من الهجرة، واستلائها على عير لقريش، وأسرها لأفراد، منهم: أبو العاص بن الربيع، صهر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على ابنته زينب، فاستجار هذا بها فأجارها صلى اللّه عليه وآله وسلم ورد ما أخذ من زوجها، ورجع إلى مكة، وأسلم ثم عاد إلى المدينة، فرد عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم زوجه زينب بنكاحه الأول. والقصة لا تصح، ومع ذلك احتُج بها على أحكام، واستفيدت منها فوائد، كما تراه في فقه السنة لسيد سابق في النكاح، ولا أدري كيف هذا.

سرية أبي بكر الصديق إلى فزارة

ومما وقع في هذه الأثناء دون تحديد تاريخ، إلا أن البيهقي قال[1]: بأنها كانت قبل الحديبية، وبعد خيبر: سرية أبي بكر الصديق إلى فزارة، أمّره صلى اللّه عليه وآله وسلم عليها، فخرج إليهم، فعرّس ثم شن الغارة عليهم، فَقَتَل وسَبَى، وكان في السبي امرأة من بني فزارة عليها قشع من أدَم (نطع) معها ابنة لها من أحسن العرب، فقدموا المدينةَ، وكان أبو بكر نفل سَلمة البنتَ، فاستوهبها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم منه فوهبها، فبعث بها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى أهل مكة، ففدى بها نا سًا من المسلمين كانوا أسروا بمكة[2].

قصة عُكل وعرينة

ومن الأحداث الواقعة في هذه الأثناء، قيل في شوال سنة ست: قدوم ناس من عُكل وعُرينة المدينةَ على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فبايعوه على الإسلام، كانوا ثمانية، وقالوا: يا رسول اللّه إنا كنا أهل ضرع، ولم نكن أهل ريف، واستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم، فشكوا ذلك إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: ألا تخرجون مع راعينا في إبله، فتصيبون في أبوالها وألبانها؟ فقالوا:

---

(1) : الدلائل (290/4).
(2) : رواه مسلم (150/5).

بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا، فقَتَلوا الراعي، وكفروا بعد إسلامهم، واستاقوا الذَّوذ، فبلغ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فبعث في آثارهم فأدركوا، فجيء بهم، فأمر فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمل أعينَهم، ثم نُبذوا في الشمس حتى ماتوا[1]. قال قتادة: إن ذلك كان قبل أن تنزل الحدود، وقال أبو قلابة في حديثه: هؤلاء قوم سرقوا، وقتلوا، وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا اللّه ورسوله. يشير إلى أنهم مَحاربون، وقد قال تعالى: «(إنما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعونَ في الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض)» ﴿المائدة، آية: 33﴾ وقد قيل: إن قصة هؤلاء العُرنيين من أسباب نزول هذه الآية. ولم ترق هذه القصة الصحيحة الشيخ محمدا الغزالي المصري فأنكرها بدون دليل إلا أن ذوقه المريض لم يستسغها. وقد رد عليه شيخنا الألباني في تخريجه لأحاديث فقه السيرة للغزالي، والشيخ أشرف عبد المقصود، والشيخ ربيع المدخلي، وغيرهم فأجادوا.

غزوة الحديبية

وفي ذي القعدة سنة ست من الهجرة، خرج صلى اللّه عليه وآلِه وسلم وأصحابه لأداء العمرة، وكان يتوقع من المشركين شرا، فاستنفر مَن حوله من الأعراب فأبطأوا عنه لسوء نواياهم التي أفصح عنها قوله تعالى: «(سيقول لك المخلَّفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل فمن يملك لكم من اللّه شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا، بل كان اللّه بما تعملون خبيرا، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا)» ﴿الفتح، آية: 11﴾ فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم بمن معه من المهاجرين والأنصار، ومن لحق به من العرب، وكانوا ـ كما قال البراء ـ ألف وأربعمائة أو أكثر، حتى إذا كانوا بذي الحليفة (على ستة أميال من المدينة وهو ميقات أهلها، ويسمى الآن: آبار علي) قلّد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الهدْي، وأشعره، وأحرم بالعُمرة وبعث بين يديه عينًا من خزاعة يخبرهُ عن قريش[2]. وسار صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى إذا كان قريبا من عُسفان، جاءه عينُه فقال: إن قريشا جمعوا لك جموعا من الأحابيش (جماعات حلفاء لقريش من قبائل شتى، اجتمعوا أول أمرهم عند جبل يسمى حبيش فسموا بذلك، وليسوا مماليك من الحبشة كما فهم بعضُهم)، وهم مقاتلوك وصادُّوك عن البيت، فأشار صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابَه، فقال أبو بكر: إنهم جاءوا معتمرين ولم يأتوا لِقتال، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم فَرُوحوا إذًا،

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي (رقم: 2795) ـ ومسلم في القسامة (رقم: 3163).
(2) : رواه البخاري ـ المغازي (رقم: 3860).

وساروا حتى إذا كانوا ببعض الطريق، بلغ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن خالد بن الوليد بالغميم (موضع قريب من مكة) في خيل لقريش طليعة، فخالف صلى اللّه عليه وآله وسلم الطريق حتى كاد يلحقهم، فانطلق خالد يركض منذرًا لقريش، وبلغ صلى اللّه عليه وآله وسلم الثنية في طريق الحديبية، فبَرَكت راحلته ولم تقم، قال الناس: خلأت القَصواء (بَرَكَت وحَرَنت من غير علة)، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما خلأت، وما كان لها بخُلق، ولكن حَبَسَها حابسُ الفيل (أي حبسها ما حبس فيل أبرهة عن دخول مكة)، ثم زجرها فوثبت، فعدل صلى اللّه عليه وآله وسلم عنهم، حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء، لم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم العطش، فانتزع سهما من كنانته، ثم أمرهم أن يجعلوه فيه، فواللّه ما زال يجيش لهم بالريَ حتى صدروا عنه[1]، وبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نَفَر من قومه خزاعة، وكانوا أهل نصح لرسول اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وسلم وأبلغوه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن قريشا خرجوا في العُدة والعَدد ليصدوه عن البيت، ولما كان صلى اللّه عليه وآله وسلم حريصا على إسلام قريش، راغبًا في السلم، قال: يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني اللّه عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ واللّه إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني اللّه له، حتى يظهره اللّه أو تنفردَ هذه السالفة[2] (صفحة العنق)، وليُنفذَن اللّه أمره، فقال بُديل: سأبلغهم ما تقول، وذهب حتى أتى قريشا فأخبرهم، فقال عروة بن مسعود: أنا لكم كالوالد فهل تتهمونني؟ قالوا: لا، قال: إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها ودعوني آته، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يكلم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم نحوا من قوله لبُدَيل، فقال عروة عند ذلك: يا محمد، أرأيتَ إن استأصلت أمر قومك، هل سمعتَ بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني واللّه لا أرى وجوها (يعني: الأشراف والأعيان) وإني لأرى أشوابا (أخلاطا) من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك، فقال له أبو بكر رضي اللّه عنه: أمصُصْ بَظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟ فقال: من ذا؟ قالوا: أبو بكر. قال: أما والذي نفسي بيده، لولا يد[3] كانت لك عندي لم أجزك بها، لأجبتُك، قال: وجعل يكلم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فكلما تكلم كلمة أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على

---

(1) : رواه البخاري ـ الشروط (رقم: 2529).
(2) : رواه أحمد في المسند (323/4) بسند حسن.
(3) : اليد: النعمة.

رأس النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ومعه السيف، وعليه المغفَر، فكلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ضرب يده بنعل السيف، قال له: أخّر يدك عن لحية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فرفع عروةُ رأسَه فقال: مَن هذا؟ قال: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غُدَرُ، ألست أسعى في غَدرتك؟ (وكان المغيرة صحب قومًا في الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم)، فقال النبي: أما الإسلام فأقبَل، وأما المال فلستُ منه في شيء، ثم إن عروة جعل يرمق صحاب النبي بعينه، قال: فواللّه ما تنخم رسول اللّه نُخامة إلا وقعت في كف رجل منهم، فدَلك بها وجهه وجلده، فإذا أمَرَهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضَوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يَحدون إليه النظر تعظيما له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قومَ، واللّه لقد وفدتُ على الملوك، ووفدت على قيصَر، وكسرى، والنجاشيَ واللّه إن رأيتُ مليكا قط يعظمه أصحابُه ما يعظمَ أصحابُ محمد محمدا صلى اللّه عليه وآله وسلم، واللّه ما إن يتنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدَلك بها وجهَه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيما له، وأنه قد عرض عليهم خُطة رشد فاقْبَلوها[1]. ورغم ما قام به رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من بيان هدفه، وإنه الزيادة فقط، وذلك بواسطة رُسُل أرسلهم إلى قريش وكان جواب قريش: إن كان إنما جاء لذلك، فلا واللّه لا يدخلها أبدًا علينا، ولا تتحدث بذلك العرب[2]. وأخيرًا أرسل صلى اللّه عليه وآله وسلم عثمان بن عفان إلى قريش، فأجاره أبانُ بن سعيد بن العاص حتى أبلغهم رسالة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد أخرته قريش، وسمحت له بالطواف فأبى أن يسبق رسول اللّه به. وظن المسلمون أنه قُتل لتأخره، فدعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى البيعة تحت شجرة سَمُرة بالحديبية (وهي اسم بئر تبعد باثنين وعشرين كيلو متر إلى الشمال الغربي من مكة، وتسمى الآن: الشميسي)، فبايعه المسلمون كلهم ما عدا الجد بن قيس لنفاقه. وكانت البيعة على الصبر، وعدم الفرار، وعلى الموت. وكان أول من بايع: عبدُ اللّه ابن وهب الأسدي وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم عندها لأصحابه: أنتم خير أهل الأرض، لا يدخل النارَ إن شاء اللّه من أصحاب الشجرة أحد الذين بايعوا تحتها[3]، ورفع صلى اللّه عليه وآله وسلم يده اليمنى وقال: هذه يد عثمان، وضرب بها على يده الأخرى، لكونه كان محبوسا عند قريش، ولكنه رجع بعد

(1) : رواه البخاري في المغازي والشروط. وأحمد في المسند (328/4)
(2) : رواه أحمد في المسند (324/4) بسند حسن.
(3) : رواه البخاري رقم: 4154 ومسلم رقم: 2496.

البيعة مباشرة. ولما علمت قريش بذلك، أرسلت رجالًا للتفاوض، منهم: عروة بن مسعود كما تقدم، والحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش، فلما أقبل أمر صلى اللّه عليه وآله وسلم أصحابه أن يُلبُّوا ويرسلوا أمامه الإبل مُشعَرة، لأنهم قوم يعظمون ذلك، فلما رجع أخبرهم بما رأى وقال: ما أرى أن يصدوا عن البيت، فقالوا له: اجلس إنما أنت أعرابي لا علم لك[1]، ثم أرسلوا مكرّز بنَ حفص، وأردفوه بسُهيل بن عمرو، ولما رآه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال متفائلا: لقد سُهل لكم أمرُكم[2]، لقد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل. وأكدت قريش على سهيل أن يرجع المسلمون دون عمرة هذا العام، وجرت مفاوضات طويلة بين النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وسهيل، وانتهت بعَقد الصلح الذي تولى كتابته علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وأراد أن يكتب بأمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم البسملة (بسم اللّه الرحمن الرحيم)، فأبى سهيل وقال: اكتب: باسمك اللهم، وأراد أن يكتب: هذا ما قاضى عليه محمد رسول اللّه، فأبى سهيل وقال: لو كنا نعلم أنك رسول اللّه ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب: محمد بن عبد اللّه، فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: واللّه إني لرسول اللّه وإن كذبتموني، اكتب محمد بن عبد اللّه، فقال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على أن تخلوا بيني وبين البيت فنطوف به، فقال سهيل: واللّه لا تتحدث العرب أنا أخذنا ضغطة قهرا، ولكن ذلك العام المقبل، فكتب، وتم الاتفاق على وضع الحرب بين الطرفين عشر سنين. ومن أتى رسول اللّه بغير إذن وليّه، رد عليهم، ومن أتى قريشا ممن مع رسول اللّه لم يردوه عليه، وقبل أن يتم كتب المعاهدة، جاء أبو جندل بن سُهيل بن عمرو يَرسُف في قيوده مسلماً، حتى رمَى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا أول مَن نقاضيك عليه يا محمد، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إنا لم نقض الكتاب بعدُ، فقال سهيل: واللّه إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: فأجزه لي، فقال: ما أنا بمجيزه لك، قال المسلمون: سبحان اللّه، كيَف يرد للمشركين وقد جاء مسلمًا، فرده صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى مكة، وقد جعل اللّه أمره فرجا حين لحق بأبي بصير الذي فر إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالمدينة، فرده صلى اللّه عليه وآله وسلم فقتل حارسه في الطريق، ورجع إلى المسلمين ثم خرج إلى سِيف البحر ولحق بهما من فر من المسلمين.

ومن بنود المعاهدة: أن من أحب أن يدخل في عهد محمد دَخَل، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دَخل. وهنا تواثبت خُزاعة وقالوا: نحن مع عقد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم

---

(1) : رواه أحمد في المسند (324/4) بسند حسن.

(2) رواه البخاري رقم: 2731.

وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم.

ومن بنود المعاهدة: أن يرجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولا يدخل مكة عامه هذا، وفي العام المقبل يدخل وأصحابُه وسيوفهم في القرَب، بعد أن تخرج قريش منها، ويمكث فيها المسلمون ثلاثة أيام[1]. هكذا تمت المعاهدة رُغم تذمر المسلمين وغَضَبهم، فهذا عليٌّ رضي اللّه عنه امتنع أن تمسح كلمة (رسول اللّه) لاحتجاج سهيل، فأخذ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الكتاب فكَتَب[2] (وقد أخذ بظاهر هذه الرواية: أبو الوليد الباجي، فزعم أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآلهِ وسلم كتب بيده، وهو خطأ مخالف للقرآن، والصواب: أنه أمر بكَتب: محمد بن عبد اللّه)، وهذا عمر رضي اللّه عنه غضب منَ هذه الشروط المجحفة، قال: أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقلت: ألست نبي اللّه حقاً؟ قال: بلى، قلتُ: ألسنا على الحق، وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قلتُ: فلمَ نُعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: إني رسول اللّه، ولستَ أعصيهَ، وهو ناصري، قلت: أو ليس كنتَ تحدثنا أنا سنأتي البيتَ فنطوف به؟ قال: بلى، فأخبرتُك أنك تأتيه العامَ؟ قال: لا، قال: فإنك آتيه ومُطوّف به[3]، وذهب عمر إلى أبي بكرٍ رضي اللّه عنهما، فأعاد عليه الكلام، فقال أبو بكر: يا عمر إلزم غرزه، (كناية عن شدة التمسك وعدم المفارقة) حيث كان، فإني أشهد أنه رسول اللّه، قال عمر: وأنا أشهد[4]، وقال عمر نادما على ما فعل: ما زلتُ أصوم، وأتصدق، وأعتق، من الذي صنعتُ مخافة كلامي الذي تكلمتُ به يومئذ، حتى رجوَت أن يكون خيراً[5].

وهكذا انتهى ترددُ المسلمين واعتراضُهم إلى الإيمان والتسليم، لعلمهم بأن تصرف رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إنما هو وحي من اللّه لا مجال للرأي فيه. ولم يكفَّ المشركون حتى في أثناء المفاوضة عن التحرش بالمسلمين، واستفزازهم، ومحاولة اغتيال الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، ووقع منهم أسرى في يد المسلمين، فأمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بتسريحهم، وأنزل اللّه في ذلك: «(هو الذي كف أيديهم عنكم، وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم)» ﴿الفتح، آية: 24﴾. ولما لحق بالمسلمين من أذى المشركين وتعنتهم، ولتطلعهم إلى ما يرجون من العمرة بعد أن مُنعوا منها ظلمًا، وإلى ما ينقض هذا الصلح بتدبير اللّه تعالى، ترددوا في تنفيذ أمر الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بنحر الهَدي، والحلق، رغم تكراره ثلاثًا حتى غضبَ، فأشارت

---

(1) : رواه البخاري رقم: 1731 وأحمد في المسند (325/4).
(2) : رواه البخاري رقم: 4251.
(3) : رواه البخاري رقم: 2731.
(4) : رواه أحمد في المسند (325/4).
(5) : رواه أحمد في المسند (325/4).

عليه أم سلمة صلى اللّه عليه وآله وسلم بالإقدام على النحر والحلق. ولما رأى المسلمون ذلك بادروا إلى النحر والحلق حتى كادوا يقتتلون من الإسراع غما[1]، فنحروا سبعينٍ من الإبل، كل بدنةٍ عن سبعة، ونحر صلى اللّه عليه وآله وسلم جملا كان لأبي جهل، غَنمه المسلمون ببدر ليَغيظ به الكفار. وكان النحر في الحديبية وهي في الحل، ودخل بعضٍ الهَدي الحرم فنُحر[2]. ودعا صلى اللّه عليه وآله وسلم للمحلقين ثلاثا وللمقصرين مرة[3]. وبعد أن أقام المسلمون بالحديبية عشرين يوما، انتهت بالتحلل من الإحرام بالنحر والحلق بعد أن أحْصروا، عزموا على العودة إلى المدينة. وفي الطريق نزلت سورة الفَتح «(إنا فتحنا لك فتحا مبينا)» وفرِح رسول اللّه صلى اللّهِ عليه وآله وسلم لنزولها، وقال: أنزلت علي الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس[4]، وقال الصحابة: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل اللّه تعالى: «(ليُدخل المومنين والمومنات جنات تجري من تحتها الأنهار)» ﴿الفتح، آية: 5﴾. ولما بلغوا كُراع الغَميم، قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآلِه وسلم على الصحابة وهو راكب: سورة الفتح، فقال رجل: يا رسول اللّه أفتحٌ هو؟ قال: نعم والذي نفسي بيده، إنه لفتح، ففرِح المسلمون وذهب ما كان بقي في نفوسهم من حزن، وعلموا أن الخير قدره اللّه، وأن الواجب التسليم لأمر اللّه ورسوله.

عبر وفوائد وأحكام من صلح الحديبية

وقد ظهرت بعد ذلك حكم ونتائج باهرة لهذا الصلح، وهذا بعض ما يستفاد من صلح الحديبية من عبر وفوائد ومسائل: منها: إذنه صلى اللّه عليه وآله وسلم لكعب بن عَجرة أن يحلقَ رأسه لأذى أصابه، وكان محرمًا بعمرة. فأنزل اللّه تعالى: «(فمن كان منكم مريضا أو به أذى مِن رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك)» ﴿البقرة، آية: 196﴾، فأمره صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يذبح شاة، أو يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين[5]، وأذن صلى اللّه عليه وآله وسلم للصحابة أن يصلوا في رحالهم للمطر[6]، وطبق مرة أخرى: مبدأ الشورى، فأخبر برأي أبي بكر رضي اللّه عنه في الرجوع عن العزم على القتال، وأخذ برأي زوجه أم سلمة رضي اللّه عنها في المبادرة إلى نحر الهَدي والحلق. وفي القصة: مشروعية الصلح، ومعاهدة الكفار، ولو على شروط فيها إجحاف، إذا رأى أولو الأمر المصلحة

(1) : رواه البخاري رقم: 2731.
(2) : رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (242/2) بسند صحيح.
(3) : رواه أحمد (34/2-151) بسند صحيح.
(4) : رواه البخاري رقم: 4177.
(5) : رواه البخاري رقم: 1686 ومسلم رقم: 2081
(6) : رواه ابن ماجة رقم: 936. بإسناد صحيح.

في ذلك. ولم يفته صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يبين الحق، ولا سيما فيما يتعلق بالعقيدة. وفي هذه الظروف الصعبة، فكفّر مَن يقول: مُطرنا بنوء كذا، وإنه كافر باللّه، مؤمن بالكوكب. كما تفاءل صلى اللّه عليه وآله وسلم لما جاءه سُهيل بنُ عمرو وقال: سُهل أمرُكم، فظهر بهذا جوازُ التفاؤل بالكلمة الطيبة ونحوها. كما يؤخذ من أحداث القصة: جواز التبرك بآثاره صلى اللّه عليه وآله وسلم لازدحام الصحابة على بقية وضوئه، وتدلّكهم بالنّخامة منه، ولكنهم لم يفعلوا هذا بغيره، فظهر أنه خاص به صلى اللّه عليه وآله وسلم[1]، على أنه أشار عليهم في موقف آخر إلى أن الأولى بهم: الصدق في الحديث، والوفاء بالوعد، لا التبرك بمثل هذا. ومما حدث في طريق العودة: أن نام المسلمون فلم يوقظهم إلا حر الشمس، فصلوا الصبح بعد الوقت لعُذر النوم[2]. كما ظهرت معجزات للرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم في تكثير الطعام والماء، ألمعنا إلى بعضها، وسارعتْ خزاعة ـ دون خوف من قريش ـ إلى التحالف مع المسلمين، وكانت قبل هذا تميل إلى المسلمين، فظهر صدق تعاطفها في الحديبية. وفي هذا تقوية المسلمين، وإتاحة الفرصة لهم للتفرغ لليهود، والدعوة إلى الإسلام في سلام، فكان من أثر ذلك أن دخل من الناس في الدين مثل مَن كان في الإسلام قبل ذلك، كما قال الزهري[3]. وكذلك قويت معنوياتُ المستضعَفين من المسلمين بمكة، فأخذوا يفرون إلى المدينة، كما فعل أبو جندل قبل ذلك، فما أن وَصَل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى المدينة حتى جاءه أبو بَصير مسلمًا، فأرسلت قريش رجلين في طلبه، فسَلمه رسول اللّه إليهما. وفي الطريق قتَل أبو بصير أحدَ الرجلين بحيلة، وفر الآخر، وتبعه أبو بصير حتى جاء النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال له: قد واللّه أوفى اللّه ذمتَك، قد رددتني ثم نجاني اللّه منهم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ويل أمه مسعر حرب، لو كان له أحد. فلما سمع ذلك، عرف أنه سيرده عليهم، فخرج حتى أتى سيفَ البحر[4]، وانضم إلى أبي جندل وأبي بصير مَن فر من المستضعَفين من مكة، فكوَّنوا عصابة أخذت تُغير على قوافل المشركين، فتستولي عليها وتقتل حَرَسها، حتى ضاقت قريش بهم ذرعا، وأرسلت إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم تناشده اللّه والرحم أن يكفهم عنهم، وَمَن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم، وكانوا بناحية العيص، فقدموا عليه وهم بين الستين والسبعين[5]، (هناك رواية ذكرها موسى بن عقبة دون سند، أوردها ابن عبد البر في

(1) : الإعتصام لأبي إسحاق الشاطبي (8/2).
(2) : رواه البخاري رقم: 311. ،مسلم رقم: 1100. وأبو داود رقم: 372.
(3) : ابن هشام (322/3).
(4) : رواه البخاري رقم: 2731.
(5) : رواه البيهقي في السنن الكبير (227/9) بسند فيه ضعف إلا أنه يحسن لمتابعاته.

الاستيعاب)، تقول: بأن أبا بصير توفي هناك، وأن صاحبه دَفَنه وبنى على قبره مسجدا. وقد احتج الشيخ أحمد بن الصديق في (إحياء المقبور) بها على استحباب بناء المسجد على القبر، إلا أنه حذف قول ابن عبد البر: (وقال موسى بن عقبة) وساق الأثر مَسَاقا واحدا ليتم له الاستدلال، وهذا تدليس وخيانة. انظر: (تحذير المساجد) لشيخنا ناصر الدين الألباني.

وهذه القصة المثيرة، وما جرى خلَالها مما يعد أمثلة رائعة في الثبات والإخلاص، ويعد أصلا للفدائية المؤمنة، وانطلاقة أولى لحرب العصابات في الإسلام، كانت بلا شك عملا مشروعا، لإقرار رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إياهم عليه. وقد كان بوسعه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يأمرهم بالكف عنهم، ولكنه أشار عليهم به، وشجَّعهم عليه من طرف خفي، يستفاد من وصفه أبا بصير، بأنه: (مُسعر حَرب لو كان معه رِجال). وثبت أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي مُعَيط فرت هي الأخرى مع غيرها وهي عاتق، فجاء أهلها يسألون النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يرجعها إليهم فلم يفعل، إما لأن النساء لم يدخلن في بنود الصلح، ففي لفظه عند البخاري: وعلى أن لا يأتيك منا رجال، أو لما أنزل اللّه فيهن: «(إذا جاءك المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن، اللّه أعلم بإيمانهن، فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار، لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن)» ﴿الممتحنة، آية 10﴾. وقد أشرنا آنفا إلى أن المشركين تنازلوا عن شرط إعادة المسلمين الفارين منهم إليهم عندما أرسلوا يناشدون النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كفَّ أبي جندل وأبي بصير وأصحابهما عن التعرض لقوافلهم. ولعله في هذه الأثناء، كانت هجرة خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص إلى المدينة وإسلامهما، ولم يعرف أن قريشا طالب بهما.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أن من فوائد صلح الحديبية: أن تفرغ المسلمون لشؤون الدعوة ونشر الإسلام، من ذلك:

دعوة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الملوك إلى الإسلام

وهكذا فبعد أن وصل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينة، أرسل دحية بن خليفة الكلبي رضي اللّه عنه بكتابه إلى هرقل في آخر سنة ست. قال أنس رضي اللّه عنه: كتب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى كل جبار يدعوهم إلى اللّه تعالى وسمى منهم: كِسرى، وقيصَر، والنجاشي، قال: وليس بالنجاشي الذي أسلم[1]. وكتبه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الملوك والرؤساء خارج الجزيرة العربية، تطبيق عملي لعموم رسالته، وعالمية دينه. ومما يجب التنبيه عليه هنا: أن كتبه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى الرؤساء،

(1) : رواه مسلم رقم: 1397.

لا يصح منها طبقَ شروط المحدثين، إلا كتابه لهرقل[1]، وهذا نصه: بسم اللّه الرحمن الرحيم، من محمد عبد اللّه ورسوله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى. أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تَسلم، يؤتك اللّه أجرك مرتين، فإن توليتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيّينَ. . (الفلاحين) ﴿يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبَينكم أن لا نعبدَ إلا اللّه ولا نشرك به ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون اللّه. فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾[2].

وقد أثير إشكال حول الكتاب، وهو: أن الآية المذكورة به، نزلت في وفد نَجران، وقدومُه كان في العام التاسع، والكتب إلى هرقل كان في السادس، والجواب الصحيح: أن الآية لم يصح أنها نزلت في وفد نجران، وإنما نزلت في يهود المدينة قبل إجلائهم، وكان آخره بعد الخندق في السنة الخامسة. وأشار البخاري إلى كتاب كسرى، وأن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أرسله مع عبد اللّه بن حُذَافة السهمي، وأمره أن يدفعه إلى حاكم البحرين، ليدفعه إلى كسرى الذي مَزَّقه بعد أن قرأه، فدعا عليهم صلى اللّه عليه وآله وسَلم أن يُمزّقهم اللّه كلَّ ممزق[3]. وقد استجاب اللّه نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقَتَل كسرى ابنُه، واستولى على عرشه، وتمزقت الإمبراطورية الفارسية، وانمحت من الوجود. ولم يذكر نص الكتاب، ولم يثبت عند غيره، كما ثبت كَتب النبي إلى النجاشي، ولكنَّ النص لم يثبت كما لم تثبت سائر النصوص المرسَلة إلى الرؤساء، وليس معنى هذا أنها لم تقع، ولكنَّ نصوصها لم تثبت علمياً إلا نص هرقل الماضي، وكتاب عمير ذي مران، ويمكن أنَ يتخذ كتاب هرقل نموذجا يحتذى لغيره واللّه أعلم ويفهم من هذا ـ بطبيعة الحال ـ: أن وثائق العهد النبوي السياسية لا تصحُّ حديثيًا، وعليه فلا يمكن اعتمادُها للتشريع، وإن كان يستأنس بها تاريخياً. ولما أراد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يكتب إلى هرقل، قيل له: إنهم لن يقرأوا كتابك إذا لم يكن مختوما، فاتخذ صلى اللّه عليه وآله وسلم خاتما من فضة، ونقشُه: محمد رسول اللّه. وتصرفه صلى اللّه عليه وآله وسلم هذا، يدل على اتباع التقاليد المحَدثة المفيدة، والاستفادة منها إذا كانت لا تتعارض مع أحكام الشريعةَ. وقد اكتُشف في العصور الأخيرة: صكوك رسائل نبوية، يوجد بعضها بتركيا، وبعضها بروسيا، ولكنَّ الشك يحوم حولها واللّه أعلم بِحالِها.

غزوة ذي قَرَد

وقد حدثت أعمال عدوانية في فترة الصلح، لم تحل دون التفرغ

---

(1) : السيرة النبوية الصحيحة للعمري (456/2).
(2) : رواه البخاري الفتح (126/8).
(3) : رواه أبو داود (38/2).

للدعوة، منها: أن عبد الرحمن بن عيينة الفزاري أغار على إبل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأخذها وقتل الراعي، فلحقه سَلمة بن الأكوع بعد أن أنذر المسلمين، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم فوَجَد سَلمة قد خلّص النياقَ منهم، وهربوا، وبلغ صلى الله عليه وآله وسلم إلى ماء ذي قَرَد، ورجع للمدينة، وسميت الغزوةُ باسم الماء. وتفاصيل الغزوة عند البخاري في المغازي.

غزوة خَيبر

وفي السنة السابعة للهجرة، في المحرم منها، وبعد ثلاث ليال من ذي قرَد، وقعت غزوة خيبر، وكان الإلماع إليها في سورة الفتح التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم مُنصرَفه من الحديبية، التي لم يقع فيها غزو ولا غنيمة، وكان منها قوله تعالى: «(وعَدَكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعَجَّل لكم هذه)» ﴿الفتح، آية: 20﴾ يعني خيبر، فقَدم صلى الله عليه وآله وسلم المدينة، ولم يلبث أن خرج إلى خيبر[1]، واستخلف على المدينة سباع بن عَرفطة. قال سلمة بن الأكوع: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى خيبر، فسرنا ليلا، فقال رجل من القوم لعامر: يا عامر ألا تسمعنا من هناتك وكان عامر رجلا شاعرًا فنزل يحدو بالقوم ويقول: (رَجز)

اللهم لولا أنتَ ما اهتدينا ولا تصدقنا و لا صَلّينا
فاغفر فداءً لك ما اتقينا وثبت الأقدامَ إن لاقينا
وألقِينْ سكينةً علينا إنا إذا صِيحَ بنا أبينا
وبالصياح عولوا علينا

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: من السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع، قال: (يَرحَمُه الله)، قال رجال من القوم: وجبت يا نبيَّ الله لولا أمتعتَنا به[2].

ولما كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالصهباء، وهي أدنى من خيبر، صلى العصر ثم دعا بالأزواد، فلم يؤت إلا بالسويق فأمر به فثري، فأكل وأكلنا، ثم قام إلى المغرب فمضمض ومضمضنا، وصلى ولم يتوضأ صلى الله عليه وآله وسلم[3]، وأتى صلى الله عليه وآله وسلم خيبرَ ليلا، وكان إذا أتى قومًا بليل لم يقربهم حتى يُصبح، فلما أصبح، خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد والله، محمد والخميس: (الجيش)، فقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: الله أكبر، خَربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباحُ المنذَرين، قالها ثلاث مرار[4]. وأصابت النبي صلى الله عليه

---

(1) : فتح الباري (464/7).
(2) : رواه االبخاري في المغازي رقم: 6383. وللقصة ألفاظ وروايات.
(3) : رواه البخاري ـ الوضوء رقم: 202.
(4) : رواه البخاري المغازي رقم: 3876.

وآله وسلم شَقيقة (الصداع) فلم يخرج إلى الناس، وتقدم أبو بكر رضي اللّه عنه براية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقاتل قتالا شديدا، ثم رجع[1]، وتقدم عمر رضي اللّه عنه وانهزم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لأعطينَّ هذه الراية غدًا رجلا يفتح اللّه على يديه، يحب اللّه ورسوله، ويحبه اللّه ورسوله. فبات الناس يَدُوكون ليلتهم: أيهم يعطاها، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول اللّه يشتكي عينه، قال: فأرسوا إليه، فأتي به، فبَصَق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في عينيْه ودعا له خيرًا حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول اللّه، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللّه فيه، فو اللّه لأن يهدي اللّه بك رجلا واحدًا خير لك من أن يكون لك حُمرُ النّعم[2]. وخرج مرحب رئيس يهود وفارسهم، يخطر بسيفه ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاحِ بطل مجرب
إذا الحروب أقبلت تلهَّبُ

وانبرى له عامر عمٌّ سلمة بن الأكوع مرتجزا:

قد علمت خيبر إني عامر، شاكي السلاح بطل مغامرُ

فاختلفا ضربتيْن ورجع سيف عامر على نفسه فقطع أكحَله، فكانت فيها نفسُه، فقال ناس: بطل عمل عامر، قتل نفسَه، فرد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على مَن قال ذلك، وقال: كذب مَن قال ذلك، بل له أجرُه مرتين. وتصدى له علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه قائلا:

أنا الذي سمتْني أمي حَيدرة كليث غابات كريه المنظرة
أوفيهمُ بالصاع كيل السندرة[3]

وضربه عليٌّ على رأسه فقَتَله، ثم كان الفتح على يديه[4]. واختلف في قاتل مرحب، والصحيح الذي عليه الأكثر: أن قاتله عليٌّ لا محمد بن سَلمة. وقد قالت أم سلمة، وكانت حضرت خيبرَ: سمعتُ وقع السيف في أسنان مَرحبَ[5].

بعض ما وقع في غزوة خيبر

ومما وقع في خيبر: أن سلمة بن الأكوع أصيبَ في ساقه قال: فأتيت النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكت حتى الساعة[6].

(1) : رواه الحاكم في المستدرك ـ المغازي رقم: 4309، وصححه وسكت عنه لذهبي.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي (رقم: 3888).
(3) : حيدرة: من أسماء الأسد، والسندرة مكيال واسع.
(4) : رواه مسلم ـ الجهاد رقم: 3372.
(5) : مجمع الزوائد (152/6) وقال: رجاله ثقات.
(6) : رواه البخاري، المغازي، باب غزوة خيبر رقم: 3884.

ومن مشاهد الإيمان فيها: أن أعرابيا جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فآمن به واتَّبعه وقال: أهاجر معك، فأوصى به النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعضَ أصحابه، فلما كانت غزوة خيبر أو حُنين، قَسَم النبي له من الغنيمة، فجاؤه وكان يرعى ظهرهم، ودفَعوا إليه قسمهُ، فجاء به إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال: ما هذا؟ قالَ: قسمتُه لك، قال: ما على هذا اتبعتك ولكني اتَّبعتُك على أن أرمَى إلى ها هنا ـ وأشار إلى حَلقه ـ بسَهم فأموت، فأدخل الجنة، فقال: إن تصدُق الله يصدقك، ثم نهضوا للقتال، فلم يلبث أن جيء به محمولا قد أصابه سهم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أهُو هُو؟ قالوا: نعم، قال: صَدقَ اللَّه فصَدَقَه، ثم كفنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في جُبَّته، وقدَّمه فصلى عليه، فكان فيما ظهر من صلاته: اللهم هذا عبدك، خرج مهاجرًا في سبيلك، فقتل شهيداً، أنا شهيد على ذلك[1].

ومن المشاهد في ذلك: أن رجلا أبلى البلاءَ الحَسن في القتال، فأُخبر به النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أما إنه من أهل النار، فأعظم ذلك، فلازَمه رجل يراقب تحركاته، فجُرح الرجل جرحا شديداً، فاستعجل الموت وانتحر، فجاء الرجل مُسرعا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قائلا: أشهد أنك رسول الله، قال: وما ذاك؟ قال: الرجل الذي قلتَ آنفا: إنه من أهل النار راقبتُه عن كَثَب، فجُرحَ فاستعجَل الموتَ وانتحر، فقال صلى الله عليه وآله وسلم عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة[2].

ومن مشاهد الغزوة أن رجلًا توفي بيومها فذكر للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: صلوا على صاحبكم، فتغيرت وجوه الناس لذلك فقال: إن صاحبكم غل في سبيل الله. ففتشنا مَتَاعَه فوجدنا خرَزًا من خَرَز يهود لا يساوي درهمين[3]. وأصاب عبد الله بن مُغَفل جرابًا فيه طعام وشحم، فوثبتُ لآخذه، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاستحييتُ منه، وفي رواية أنه قال: لا أعطي اليومَ أحدًا من هذا شيئا، سمعه صلى الله عليه وآله وسلم فتبسم. وهذا يفيد إباحة الطعام الخفيف في المغازي[4]. ونهى صلى الله عليه وآله وسلم يومَ خيبر عن مُتعة النساء، وعن أكل لحم الحمُر الإنسية. وانتهت المعركة بالصلح على جلاء اليهود، ولهم ما حملت ركابهم، ولرسول صلى الله عليه وآله وسلم الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة)

---

(1) : رواه النسائي في المجتبي ـ الجنائز رقم: 1972.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي، باب غزوة خيبر رقم: 3881.
(3) : رواه أبو داود في الجهاد رقم: 2335، وغيره، وسنده صحيح.
(4) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3892.

والحلقة (السلاح) فاشترط عليهم صلى اللّه عليه وآله وسلم أن لا يكتموا شيئا، وإن فعلوا فلا ذمة لهم، فسأل صلى اللّه عليه وآله وسلم عن مَسك (الجلد) فيه مال وحلي ليحيى بن أخطب، كان حمله معه من النضير، فقالوا: أذهبته النفقات والحروب، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم العهد قريب، والمال أكثر من ذلك، فأبوا، فعذب عم حُيي ِسُعية فقال: رأيت حييًا يطوف بخربة ها هنا، فذهبوا فوجدوا المسَك في الخربَة، فقَتَل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوجُ صَفية بنت ِحيي، وسبى صلى اللّه عليه وآله وسلم نساءَهم وذراريهم، وقسم أموالهم، لخيانتهم ونكثهم، وأراد إجلاءهم، فطلبوا إبقاءهم للقيام على الأرض وإصلاحها، فقبل صلى اللّه عليه وآله وسلم ذلك، لعدم من يقوم بذلك، وأعطاهم أرض خيبر على لهم الشطر من النخل والزرع، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يبعث عبد اللّه بن رواحة كل عام للخَرص وضمان الشطر، فشكوا إلى رسول اللّه شدته، وأرادوا أن يرشوه فقال: يا أعداء اللّه، أتطعموني السحت؟ واللّه لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغض الناس إلي، ولا يحملني بغضي إياكم وحبي إياه، على أن لا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض.[1]

زواج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بصفية

وكان في السبي صفية، فخرجت في سهم دحية الكلبي، وكانت عَروسًا قُتل زوجها، ووُصف لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم جمالها، فبعث إلى دحية وأعطاه بها ما أراد. قال أنس: ثم دفعها إلى أمي فقال: أصلحيها، وبنى بها صلى اللّه عليه وآله وسلم بسد الصهباء، ثم صنع حيسًا في نطع صغير، ثم قال لي: آذن من حولك، فكانت تلك وليمته على صفية، ثم خرجها إلى المدينة، فرأيت صلى اللّه عليه وآله وسلم يُحَوّي لها وراءه بعباءةو ثم يجلس عند بعيره، فيضع ركبته، وتضع صفية رجلها على ركبته حتى تركب. وقال المسلمون: إن حجَبها فهي إحَدى أمهات المؤمنين، وإن لم يحجبها فهي ما ملكت يمينه، فلما ارتحل واطأ رحله، ومد الحجاب[2]. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم أعتقها، وجعل عتقَها صداقها، ورأى بعينيها خضرة فقال: يا صفية ما هذه الخضرة؟ فقالت: كان رأسي في حجر ابن أبِي الحقيق وأنا نائمة، فرأيت كأن قمرا وقع في حجري، فأخبرتُه فلطمني، وقال: تمنين مَلك يثرب، قالت: وكان رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من أبغضِ الناس إليَّ، قتل زوجي وأبي، فما زال يعتذر إليّ ويقول: إن أباك ألب علي العرب، وفعل، وفعل، حتى ذهب ذلك من نفسي. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم

(1) : رواه مالك في الموطأ رقم: 1198.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3891.

يعطي كل امرأة من نسائه ثمانين وسقًا من تمر كل عام، وعشرين وسقًا من شعير، فلما كان زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه غش يهود المسلمين، وألقوا بابن عمر من فوق بيت، ففدعوا بيديه ورجليه، فقال عمر: من كان له سهم من خيبر فليحضر حتى نقسمها بينهم، فقسمها بينهم، وقال رئيسهم: لا تخرجنا دعنا نكون فيها كما أقرنا رسول الله وأبو بكر، فقال عمر لرئيسهم: أتراه سقط عني قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: كيف لك إذا رقصت بك راحلتك تخوم الشام يومًا ثم يومًا ثم يومًا، وقسمها عمر بين من كان شهد خيبر من أهل الحديبية[1].

ومن الأحداث التي وقعت بخيبر: أن يهودية أهدت للنبي صلى الله عليه وآله وسلم شاة مسمومة، فتناول منها قليلا، وكان معه بشر بن البراءو فأكل منها فمات بعد ذلك، فجمع صلى الله عليه وآله وسلم يهود، فسألهم فقالوا: أردنا إن كنت كذابًا أن نستريح منك، وإن كنت نبيا لم يضرك. وهذا دليل على أن المرأة فعلت بأمر من يهود، وأنها مؤامرة، ولم يقتل صلى الله عليه وآله وسلم المرأة حينئذ، وقال لها: ما كان الله ليسلطك علي. ولما مات بشر متأثرًا بالسم، دفعها صلى الله عليه وآله وسلم إلى أوليائه فقتلوها به، وتأثر صلى الله عليه وآله وسلم بتلك اللقمة التي تناول فقال لعائشة في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة، ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم[2].

وقسم صلى الله عليه وآله وسلم غنائم خيبر: سهمين للفارس، وسهمًا للراجل، وقسم الخمس بين بني هاشم، وبني المطلب، وقال: إنما هما واحد، وأعطى صلى الله عليه وآله وسلم العبيد، ولم يسهم لهم والنساء.

ومما حدث يومئذ: أن الحجاج بن علاط قال: يا رسول الله، إن لي بمكة أهلا ومالا، وأنا أريد أن آتيهم، فائذن لي إن نلت منك، قال: قل ما تشاء، فقدم مكة وأتى امرأته، وقال: اجمع لي ما عندك، فإني أريد أن أشتري من غنائم محمد وأصحابه، فإنهم استبيحوا، وأصيبت أموالهم، فشاع الخبر، وانقمع المسلمون، وفرح المشركون، وبلغ الخبر العباس فعُقر حتى لا يستطيع القيام، واستلقى ووضع ابنه قثم وهو صغير على صدره وهو يقول:

حبي قثم، حبي قثم شبيه ذي الأنف الأشم
نَبِي رب ذي النِّعَم برغم أنف من رَغِم

ثم أرسل إلى الحجاج: ويلك ما جئت به، وما تقول؟ فما وعد الله خير مما جئت به. قال الحجاج لغلامه: سلم على أبي الفضل وقل

---

(1) : رواه أبو داود - الخراج، وابن حبان وأحمد وغيرهم، وسنده صحيح، وهو في الصحيحين مختصرا وانظر سيرة العمري ص 332 وسبل الهدى والرشاد للشامي (205/5) ط هر
(2) : رواه البخاري رقم: 340.

له ليخل لي بعضَ بيوته لآتيه، فإن عندي ما يسره، فأسرع الغلام ونادى: أبشر يا أبا الفضل، فوثب العباس حتى قبَّل بين عينيه، فأخبره الخبر فأعتقه، ثم جاء الحجاج فأخبره بانتصار النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وسبي ذراري يهود وأخذ أموالهم واقتسامها، واختيار رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم صفية بنت حُيي، وخيّرها بين العتق والزواج أو اللحاق بأهلها، فاختارت العتق والزواج به، وقال: إنما جئتُ لما كان لي هنا من مال أردتُ جمعه، فأذهب به، فاستأذنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في هذه الحيلة فأذن لي، فأخف عني ثلاثًا، ثم قل ما بدا لك. وجمعت له امرأته ما كان عندها منَ حلي ومتاع فذَهَب به، ولما كان بعد ثلاث، أتى امرأة الحجاج فقال: ما فعل زوجك؟ فأخبرته بذهابه يومَ كذا وقالت: لا يخزيك اللّه أبا الفضل، لقد شق علينا الذي بلغك، قال: أجل، لا يخزيني اللّه، ولم يكن بحمد اللّه إلا ما أحببنا: فَتَح اللّه خيبر، وغنم المسلمون واقتسموا، واصطفى صلى اللّه عليه وآله وسلم صفية لنفسه، فإن كان لك حاجة في زوجك فالحقي به، قالت: أظنك واللّه صادقا، قال: نعمَ، الأمر على ما أخبرتك، ثم أتى مجالس قريش فقالوا: لا يصيبك إلا خير، قال: نعم، وأخبرهم الخبر على وجهه، فصعقوا له، وشاع الخبر، فخرج المسلمون من بيوتهم فرحين، وأذل اللّه المشركين[1].

ومما وقع يومَ خيبر: أن غلاما يسمى مزعم، كان أهداه إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم رفاعة بن زيد، بينما هو يحط رحلا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بوادي القُرى، أصابه سهم عائر فقتَله، فقال الناس: هنيئا له الجنة، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: كلا والذي نفسي بيده، إن الشملة التي أخذها يومَ خيبر من الغنائم لم تصبها المقاسم، لتشتعل عليه ناراً. فلما سمع ذلك الناس، جاء رجل بشراك أو شراكين إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: شراك أو شراكان من نار[2].

ومما حدث للمسلمين منصرفَهم من خيبر: أنهم عرَّسوا[3] فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لبلال: أكلأ لنا الليل، فصلى بلال ونام، ونام الرسول والصحابة، فلم يوقظهم إلا حر الشمس، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم أولهم استيقاظا، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك بأبي أنت وأمي يا رسول اللّه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: اقتادوا، ثم توضأ، وأمر بلالا فأقام الصلاة فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإن اللّه قال: «(أقم الصلاة لذكري)» ﴿طه، آية 14﴾.

---

(1) : رواه أحمد في المسند (138/3) وغيره وهو صحيح، وقد تصرف فيه قليلا للاختصار.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3908 بتصرف.
(3) : التعريس: النزول ليلا.

وتقدم نظير القصة في الرجوع إلى الحديبية، وهذه كانت أكبر، وحدثت أثناءها معجزة حين فقد الناس الماء وعطشوا، فدعا النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بغُمر (قدح صغير) وبالميضأة، وجعل يصب في القدح، وأبو قتادة يسقيهم وهم يزدحمون عليه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أحسنوا[1] الملأ كلكم سيروى، ففعلوا، فجعل صلى اللّه عليه وآله وسلم يصب، وأسقيهم حتى ما بقي غيري وغير رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، ثم صب صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال لي: اشرب، فقلت: لا أشرب حتى تشرب يا رسول اللّه، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن ساقي القوم آخرهم شربا، قال: فشربتُ وشربَ رسول اللّه[2].

ومن أحداث خيبر: أن وفدا من اليمن فيهم أبو موسى الأشعري وهم نيف وخمسون، هاجروا إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فركبوا سفينة، فألقتْهم إلى النجاشي بالحبشة، فوجدوا بها جعفر بن أبي طالب، فطلبوا منا الإقامة معهم، فأقاموا حتى قدموا جميعا، فوافقوا فتح خيبر، فأسهم لهم صلى اللّه عليه وآله وسلم وأعطاهم منها، وما فعل هذا لأحد غاب عن الفتح إلا لهم مع جعفر وأصحابه، وقال ناس لهم: نحن سبقناكم بالهجرة، منهم عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه دخل على ابنته حفصة، فوجد عندها أسماء بنت عُميس، وكانت من أصحاب السفينة. فقال لها: سبقناكم بالهجرة،نحن أحق برسول اللّه منكم، فغضبت وقالت:كذبت يا عُمر، كلا واللّه، كنتم مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في في أرض البعداء البغضاء(تعني الحبشة مع النصارى) وذلك في اللّه وفي رسوله، وأيم اللّه، لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأسأله واللّه لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد على ذلك، قال: فلما جاء النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قالت: يا نبي اللّه، إن عمر قال: كذا وكذا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان، وأتاها أصحاب السفينة أرسالا يسألونها عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هو أفرح ولا أعظم في نفوسهم مما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم[3].

ومما حدث في هذه الوجهة: أن الناس أشرفوا على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إربَعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم.

---

(1) : أي الخلق والعشرة.
(2) : رواه مسلم في المساجد رقم: 1099، وفيه تفصيل.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3905، ومسلم ـ فضائل الصحابة رقم: 4558.

قال أبو موسى: وكنت خلف دابة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقلت: لا حول ولا قوة إلا باللّه، فسمعني وقال: يا عبد اللّه بن قيس، قلتُ: لبيك يا رسول اللّهِ، قال ألا أدلكَ علي كلمة من كنز كنوز الجنة؟ قلت: بلى يا رسول اللّه، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلي باللّه[1].

ومن أحداث هذه الغزوة: أن المهاجرين ردوا على الأنصار منائحهم (جمع منيحة أي عطية) وكانوا اقتسموا أموالهم معهم بعد عملية الإخاء، فلما فتح اللّه على المسلمين خيبر، وكثر الخير بأيديهم، رَدَّ صلى اللّه عليه وآله وسلم على أم سليم أم أنس عذاقها (جمع عذق- النخلة) وكان أعطاها مولاته: أم أيمن، أم أسامَة بن زيد، وعَوضها مكانهن من حائطه (بستانه)[2].

أحكام وفوائد من غزوة خيبر

وأقر صلى اللّه عليه وآله وسلم على خيبر سواد بن غَزية النجَّاري الأنصاري.

ويستفاد من هذه الغزاة العظيمة أحكام وفوائد كثيرة نشير إلى بعضها. منها: جواز قتال الكفار في الأشهر الحرم، والإغارة دون إنذار على مَن بَلغتهم الدعوة كبني المصطلق، وإن فتح خيبر كان عنوة، وفيه صلح مشروط نُقض بمخالفتَهم ما شُورطوا عليه. وإن الغنائم على السهام، وأنه يسهم لمن حضر من عدد الجيش بعد الحرب، بشرط رضى الجماعة به، كوفد أهل اليمن، وجعفرَ وأصحابه، وإن الطعام يؤكل قبل القسمة لمن يحتاج إليه، دون أن يدخره أو يحَوله، ومَن أخذ من الغنيمة شيئا قبل القسمة فإنه لا يملكه، ولو كان أقل من حقه. وإن اللّه حرم يومئذ نكاحَ المتعة إلى يوم القيامة، ولحوم الحمر الأهلية، وأن ما لا يأكل لا يطهر بالذكاة. وأن المساقاة والمزارعة (وهي إعطاء الأرض لمن يسقيها ويقوم عليها، وله نصف الغَلة أو نحوه). وأن الإمام مُخير في أرض العُنوة بين قسمتها بين المجاهدين أو تركها. وأن للإمام إجلاءَ الذميين إذا رأى المصلحة في ذلك. وأنه يجوز البِناء بالأهل في السفَر لمن أراده، والأكل من طعام أهل الكتاب، وقبول هديتهم.

بعض السرايا التي وقعت بعد خيبر

ومن السرايا التي وِقعت بعد خيبر: سرية أبي بكر الصديق رضي اللّه عنه إلى بني فزارة، وقد سبق الإلماع إليها.

ومنها: سرية أسامة بن زيد إلى الحرقات (موضع بقبيلة جهنية) فصبّحهم (أغار عليهم صباحًا) قال: فأدركت رجلًا منهم فقال: لا

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3883.
(2) : رواها البخاري رقم: 2437 ومسلم ـ الجهاد رقم: 3318.

إله إلا اللّه ، فطعنته فوقع في نفسي من ذلك، فذكرته للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: أقال لا إله إلا اللّه وقتلته؟ قال : قلت، إنما قالها خوفا من السلاح، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أفلا سققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أو لا؟ فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمتُ يومئذ[1].

ومنها: سرية غالب بن عبد اللّه الليثي لبني الملوح بالكديد بعثه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأمره أن يغير عليهم، فذهبوا فلقوا بقُديد (بين مكة والمدينة): الحارث بن مالك ابن البرصاء، فأخذوه فقال: إنه مسلم فقالوا: إن كنت صادقا فلن يضرك وثاق يوم وليلة، وإن كنت كاذبا استوثقنا منك، فأوثقوه وكلف به رجل أسود، قالوا له: امكث معه حتى نمر عليك، فإن نازعك فاقطع رأسه، فمضوا حتى بلغوا الكديد، فذهب غالب ربيئة (عَينا) فوصل تلا مشرفا على مساكنهم مع المغرب قال: فانبطحتُ فرآني رجل منبطحًا فقال لامرأته: إني أرى على التل سوادًا ما رأيته أول النهار، فانظري لا تكون الكلاب اجترّت بعض أوعيتك، فنظرت وقالت: لا واللّه ما أفقد شيئًا، قال: ناولني قوسي وسهمين، فناولتْه فرماني بسهم بجنبي فنزعتُه ووضعته ولم أتحرك، ثم رماني بآخر فأصاب رأس منكبي فنزعتُه ولم أتحرك، فقال لامرأته: واللّه لقد خالطته سهامي، ولو كان دابة لتحرك، فإذا أصبحت فابتغي سهميّ فخديهما لا تمضغهما عليّ الكلاب، قال غالب: فأمهَلناهم حتى احتلبوا وسكنوا (ناموا) وذهبت عتمة من الليل، أغرنا فقتلنا منهم واستقنا النعَم، وقام الصريخ، وأسرعنا فمررنا بالحارث وصاحبه، فانطلقنا به، وجاءنا من المشركين ما لا قبل لنا به، حتى إذا لم يكن بيننا وبينهم إلا بطن الوادي، أقبل سَيل بيننا وبينهم بعثه اللّه من حيث شاء، ما رأينا قبل مطرًا ولا حالا، فجاء بما لا يقدر أحد أن يقوم عليه، فلقد رأيناهم وقوفا ينظرون إلينا ما يقدر أحد منهم أن يتقدم، ونحن نحوزها سراعًا حتى أسندناها في المشلل (جبل قريب من قديد) وعجز القوم عنا[2].

ومما وقع في أعقاب خيبر: أن عبد اللّه بن أبي حَدرد قال: بعثنا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى إضَم نفر من المسلمين، فيهم: أبو قتادة الحارث بن ربعي، ومُحلِّم ابن جثّامة بن قيس، فخرجنا حتى إذا كنا ببطن إضم، مر بنا عامر بن الأضبط الأشجعي على قعود له (بعير يركب) مع مُتَيع له (تصغير متاع) ووطب (وعاء من لبن) فسلم علينا بتحية الإسلام، فأمسكنا عنه، وحمل عليه مُحلِّم بن جثّامة فَقتَله لشيء كان بينه وبينه، وأخذ بعيره ومُتَيعه، فلما

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3935. ومسلم في الإيمان رقم: 140. وفيه زيادة.
(2) : رواه أحمد في المسند (3/467) والطبراني، قال في المجمع 3/71: رجاله ثقات وابن إسحاق صرح بالسماع.

قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخبرناه الخبر، فنزل فينا القرآن «(يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلم لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا)» ﴿النساء، آية: 94﴾[1].

ومن الأحداث الواقعة بعد خيبر: سرية عبد الله بن حُذافة السهمي، وكان فيها أبو سعيد الخدري قال: لما كان ببعض الطريق، أوقدنا نارًا ليصطلوا، أو ليصنعوا عليها صنيعًا، فقال عبد الله وكانت فيه دعابة: أليس لي عليكم السمع والطاعة؟ قالوا بلى، قال: فما أنا بآمركم بشيء إلا صنعتموه؟ قالوا: نعم، قال: فإني أعزم عليكم إلا تواثبتم في هذه النار، فقام ناس فتحجزوا، فلما ظن أنهم واثبون قال: أمسكوا على أنفسكم، فإنما كنت أمزح معكم، فلما قدمنا ذكروا ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: مَن أمركم منهم بمعصية فلا تطيعوه[2].

غزوة ذات الرقاع

وبعد خيبر: كانت غزوة ذات الرقاع، سميت بذلك لأن الصحابة نقبت أقدامهم فيها من الحفاء، وسقطت أظفارهم، فكانوا يلفّون على أرجُلهم الخِرَق كما قال أبو موسى الأشعري، فخرج صلى الله عليه وآله وسلم حتى بلغ ذات الرقاع، قبَل نجد، قال جابر: كنا إذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها لرسولَ الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: فجاء رجل من المشركين اسمه غورث بن الحارث حين رأى من المسلمين غرة، حتى قام على رأس رسول الله بالسيف، فقال: من يمنعك منيَ؟ قال: الله عز وجل، فسقط السيف من يده، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: من يمنعك مني؟ قال: كن كخير آخذ، قال: أتشهد أن لا إله إلا الله؟ قال: لا، ولكني أعاهدك أن لا أقاتلك، ولا أكون مع قوم يقاتلونك، فخلّى سبيله، قال: فذهب إلى أصحابه وقال: قد جئتكم من عند خير الناس[3].

وأصيبت في هذه الغزوة امرأة من المشركين، فجاء زوجها وكان غائبا، وحلف ألا ينتهي حتى يقتل بها رجلا من أصحاب محمد، وتبع أثر النبي صلى الله عليه وآله وسلم منصَرَفه من الغزوة، فنزل صلى الله عليه وآله وسلم منزلا وقال: مَن رجل يكلؤنا (يحرسنا)؟ فانتدب رجل من المهاجرين وآخر أنصاري. فقالا: نحن، فقال: كونوا بفم الشعب (الوادي)، فاتفقا على التناوب، فنام المهاجري وقام الأنصاري يصلي، وأتى المشرك فلما رأى شخصَ الرجل، عرف

---

(1) : رواه أحمد في المسند (11/6) وابن هشام (627/2) بسند صحيح.
(2) : رواه ابن ماجة في الجهاد رقم: 2854 بسند صحيح.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3822. مختصرا.

أنه ربيئة القوم (عينُهم)، فرماه بثلاثة أسهم، أصابته كلها، وكلما أصابه نزع الرجل السهم ووضعه، واستمر في صلاته، ثم ركع وسجد، وأيقظ صاحبه قائلا: اجلس فقد أوتيت، فَوَثَب ورأى ما بصاحبه من الدماء، فقال: سبحان اللّه ألا أهببتني؟ قال: كنت في سورة أقرؤها فلم أحبَ أن أقطعها حتى أنفذها، فلما تابع الرمي، ركعت فأريتُك، وأيم اللّه لو لا أن أضيع ثغرا أمرني رسول اللّه بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها وأنفذها[1]. وصلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بالمسلمين في هذه الغزوة صلاة الخوف.

ومما حدث في هذه الغزوة: أن جابر بن عبد اللّه أبطأ به جمله، فمر به صلى اللّه عليه وآله وسلم فسأله فأخبره، فحجنه صلى اللّه عليه وآله وسلم بمحجنه (عصا فيها تعقيف) وقال: اركب، فركبت، فلقد رأيتني أكفه عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم قال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: أتزوجت؟ قلت: نعم، قال: أبكرا أم ثيبا؟ قلت: بل ثيب، قال: فهلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟ قلت: إن لي أخوات، فأحببت أن أتزوج امرأة تجمعهن وتمشطهن وتقوم عليهن، قال: أما إنك قادم، فإذا أقدمت فالكيسَ الكيسَ، ثم قال: أتبيع جملك؟ قلت: نعم، فاشتراه مني بأوقية، ثم قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينة، وقدمت فأتيته، فوجدته على باب المسجد فقال: الآن حين قدمتَ؟ قلت: نعم، قال: فدع جملك وادخل وصل ركعتين، فدخلت وصليت ثم رجعت، فأمر بلالا أن يزن لي أوقية، فوزن وأرجح، فانطلقت وقال لي بلال: ادع لي جابرًا فدعيت فقلت: الآن يرد عليَّ الجمل، ولم يكن شيء أبغض إليَّ منه، فقال: خذ جملك ولك ثمنه. حدث هذا منصرف النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم من خيبر[2].

وفي قصة جابر فوائد، وعبر، ومعجزة للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وقد كان فتح خيبر، وغزوة ذات الرقاع، منطلقا للمسلمين لارتياد المناطق الشاسعة من شمال الجزيرة، فاتحين مجاهدين في سبيل اللّه.

عمرة القضية

وفي ذي القعدة سنة سبع خرج صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد أن نادى في الناس، إلى عمرة القضاء، وبلغ صلى اللّه عليه وآله وسلم أن المشركين قالوا عن المسلمين: إنهم يقدمون عليكم وقد وهنتهم حُمى يثرب، فأمرهم صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يرملوا الأشواط الثلاث، وأن يمشوا بين الركنين. وقال: ارملوا ليرى المشركون قوتكم، والمشركون من قبل قعيقعان[3]، فلما رأوهم قالوا: هؤلاء

---

(1) : رواه أحمد في المسند (344/3) وسنده حسن.
(2) : ابن هشام (206/2) بسند صحيح، وقصة جابر في الصحيحين، [البخاري 1955 ومسلم 2666].
(3) : رواه البخاري في المغازي رقم: 3924 ـ وقعيقعان اسم جبل بمكة.

الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، هؤلاء أجلد من كذا وكذا (وبقي هذا الرَّمَل في طواف القُدوم في الأشواط الثلاثة الأولى، مع الاضطباع من مناسك الحج إلى الآن، تذكيرًا وشكرًا) ودخل صلى اللّه عليه وآله وسلم مكة راكبا محرِمًا، وعبد اللّه بن رواحة يُنشد بين يديه: (رجز)

خلوا بني الكفارِ عن سبيله
قد أنزل الرحمن في تنزيله
بأن خير القتل في سبيله
نحن قتلناكم على تأويلــه
كما قتلناكم على تنزيله

وفي رواية أنه أنشد:

خلوا بني الكفار عن سبيله
اليومَ نضربكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مَقيله
ويُذهل الخليلَ عن خليله

فقال له عمر: يا ابن رواحة بين يدي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفي حَرَم اللّه عز وجل تقول الشعر، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: خَلِّ عنه، فهو أسرع فيهم من نضح النّبل[1]. وقد ستر المسلمون رسول اللّه عن المشركين وغلمانهم خشية أن يؤذوه[2]، وتزوج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في عمرته هذه: ميمونة وهو مُحرم، ودخل بها وهو حلال، وزوجها إياه عباس بن عبد المطلب، وماتت بسَرِف[3]. ولما قضى صلى اللّه عليه وآله وسلم عمرتَه، ومضت ثلاثة أيام - وهي المدة المتفق عليها في صلح الحديبية - أتي المشركون عليًا وقالوا له: قل لصاحبك: أخرج عنا فقد مضى الأجل، فخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم منصرفًا إلى المدينة[4] في ذي الحجة فتبعته ابنة حمزة، تنادي: يا عم، يا عم، فتناولها علي فأخذها بيدها، وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك، احمليها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها هي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمه وخالتُها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي، فقضى بها النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لخالتها وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت منه وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهتَ خَلقي وخُلقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟ قال: إنها ابنة أخي من الرضاعة[5]. وقد أشرتُ قبل إلى إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد. ومن أهل السير مَن يذكر إسلامَهما

(1) : رواه النسائي في المجتبى - الحج رقم: 2824.
(2) : رواه البخاري - المغازي رقم: 3923.
(3) : رواه البخاري - المغازي رقم: 3926.
(4) : رواه البخاري - الصلح رقم: 2501.
(5) : رواه البخاري - النكاح رقم: 3920.

بعد خيبر، وعمرة القضية، وقبل مؤتة. وقد تحدث عَمرو عن قصة إسلامه الطريفة، ولخصها: أنه بعد الخندق، جمع إليه رجالا من قريش وقال لهم: أرى أمر محمد يعلو علوًا منكرًا، فأرى أن نقدم على النجاشي، ونقيم عنده، فإن غلب محمد كنا عند النجاشي، وهو أحب إلينا منه، وإن غلب قومُنا، عرفوا قدرنا، فوافقوه على هذا وجمعوا هدية، وكان أحب ما يهدى إلى النجاشي الأدم (الجلود)، وقدموا عليه، وبينما هم يستعدون للدخول عليه جاء عمرو بن أمية الضمري مبعوثا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى النجاشي في شأن جعفر وأصحابه، فدخل عليه وخرج، فقلت لأصحابي: لو أني طلبت من النجاشي أن يعطيني هذا فضربتُ عنقَه، لاتخذت عند قريش يدًا، فدخل وسجد له كما كان يصنع، فقال النجاشي: مرحبا صديقي، أهديت إلي من بلادك شيئا؟ قلت: نعم، وقدمت إليه أدمًا كثيراً، فسُر به، وقلت: إيها الملك، رأيت رجلا خرج من عندك هو رسول عدونا محمد، فأعطنيه لأقتله، فإنه أصاب من أشرافنا وخيارنا، فغضب النجاشي، وضرب بيده أنفي، حتى ظننت أنه كسره، قال عمرو: فلو انشقت لي الأرض لدخلت فيها خوفا منه، وقلت: أيها الملك، واللّه لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله؟ قال: قلت أيها الملِك، أكذلك هو؟ قال: ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه، فإنه واللّه لعلى الحق، وليظهرن على مَن خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قلت: أتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده فبايعتُه على الإسلام، ثم خرجت إلى أصحابي، وقد تغير رأيي إلا أني كتمتُ أصحابي إسلامي. فلما رجعت عمدت إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأسلم، فلقيت خالد بن الوليد قبيل الفتح وهو مقبل من مكة، فقلت: إلى أين يا أبا سفيان؟ قال: واللّه لقد استقام المنسَم (تبين الطريق). وإن الرجل لنبي، أذهب واللّه فأسلم، فحتَّى متىَ؟ قلت: وأنا واللّه ما جئتُ إلا لأسلم، فقدمنا المدينة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأسلم خالد، وبايع ودنوت فقلت: أبسُط يمينك فلأبايعك، فبسط صلى اللّه عليه وآله وسلم يمينَه، فقبضت يدي فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما لك يا عمرو؟ قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط ماذا؟ قلت: أن يغفر لي، قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله[1].

غزوة مؤتة

وفي جمادى الأولى سنة ثمان، وقعت غزوة مؤتة، وخرج جيش المسلمين من المدينة يرأسهم زيد بن الحارثة، وهم ثلاثة آلاف، وقال

(1) : رواه مسلم في الإيمان رقم: 173. وأحمد في المسند (198/4).

صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن قُتل زيد، فجعفر، وإن قُتل جعفر، فعبد اللّه بن رواحة، قال ابن عمر: التمسنا جعفر، فوجدناه في القتلى، ووجدنا في جسده بضعا وتسعين بين طعنة ورمية[1]، وكان رضي اللّه عنه اقتحم عن فرس له شقراء ثم عقرها فقاتل حتى قُتل وهو يقول: (رجز)

يا حبَّذا الجنةُ واقترابُها — طيبةً وباردًا شرابُها
والرومُ رُوم قد دنا عذابُها — كافرةً بعيدة أنسابها
عليّ إذ لاقيتها ضرابها[2]

ثم أخذ الراية: عبد اللّه بن رواحة، وتقدم على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثم قال: (رجز)

أقسمتُ يا نفسُ لتنزلنّهْ
لتِنزلِن أو لتكرَهنـــهْ
إن أجلب الناس وشدوا الرَّنّهْ
مالي أراكِ تكرَهينَ الجنهْ
قد طالما قد كنتِ مطمئنه
هل أنتِ إلا نطفة في شِنّه

وقال أيضا: (رجز)

يا نفس إلا تقتلي تموتي
هذا حِمام الموت قد صليتِ
وما تمنيتِ فقد أعطيت
إن تَفعلي فعلَهما هُديتِ

يريد صاحبيه: زيدًا وجعفرًا، ثم نزل فأتاه ابن عم له بعَرق لحم فقال: شد بهذا صُلبك، فإنك لقيت في أيامك هٰذه ما لقيت، فأخذه من يده ثم انتهسَ منه نَهسة، ثم سمع الحطمَة في ناحية الناس فقال: وأنتَ في الدنيا. ثم ألقاه من يده، وتقدم بسيفه فقاتل حتى قُتل، ثم اصطلح الناس على خالد بن الوليد، فدافع القوم، ثم انحاز وانحيز عنه حتى انصرف بالناس[3]، قال خالد: انقطعت في يدي يومَ مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية[4]، وصعد النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم المنبر وهو بالمدينة، وخطب فأخبر باستشهاد زيد، وجعفر، وابن رواحة، وطلب من الناس أن يستغفروا لهم فاستغفروا، ثم أخبرنا بأخذ خالد بن الوليد اللواء ورفع أصبعيه وقال: اللهم هو سيف من سيوفك، فانصره، فانتصر به، وسمي خالد يومئذ: سيف اللّه، ثم قال صلى اللّه عليه وآله وسلم، انفروا فأمدوا إخوانكم ولا يتخلفن أحد، فنفر الناس في حر

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3927.
(2) : فتح الباري (511/7) وحسنه.
(3) : مجمع الزوائد (160/6).
(4) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3932.

شديد مشاة وركباناً[1]. واختلف أهل السير في نهاية المعركة وما أسفرت عنه، والصواب: أنها كانت لصالح المسلمين، بدليل نعي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لرؤساء الجيش، الواحد تلو الآخر، وعيناه صلى اللّه عليه وآله وسلم تذرفان، ثم قال: حتى أخذ الراية سيف من سيوف اللّه حتى فتح اللّه عليهم[2]، ووقوع الغنيمة والسلب فيهما هو دليل الانتصار. وقد حزن صلى اللّه عليه وآله وسلم لمقتَل أصحابه. وخصوصًا جعفر بن أبي طالب. وبشر بمثواهم في الجنة، وأن اللّه عوض جعفرًا بيديه اللتين قطعتا: جناحين في الجنة يطير بهما، ولهذا قيل له: جعفر الطيار[3]. وكان ابن عمر إذا حيّى ابنَ جعفر قال: السلام عليكم يا ابنَ ذي الجناحيْن. ولما جاء نعي جعفر قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: اصنعوا لآل جعفر طعامًا فإنه قد جاءهم ما يشغلهم، وأمهلهم ثلاثاً لا يأتيهم ثم أتاهم فقال: لا تبكوا على أخي بعد اليوم. ادعوا إلي بني أخي. قال عبد اللّه بن جعفر: فجيء بنا كأننا أَفرُخ، فقال: ادعوا إلي الحلاق فَحَلق رؤوسنا ثم قال: أما محمد فشبيه عمنا أبي طالب، وأما عبد اللّه، فشبيه خَلقي وخُلقي، ثم أخذ بيدي فأشالها (رفعها) فقال: اللهم أخلف جعفرًا في أهله وبارك لعبد اللّه في صفقة يمينه، قالها ثلاث مرات، قال: فجاءت أمنا تفرح له، فقال: العَيلَة تخافين عليهم وأنا وليهم في الدنيا والآخرة[4].

سرية ذات السلاسل

وفي جمادى بعد غزوة مؤتة: وقعت سرية ذات السلاسل، وكانت إلى بطون من قضاعة عُذرة، وبني القين، وغيرهم، وأمَّر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على السرية: عمرو بن العاص، وفيها أبو بكر وعمر رضي اللّه عنهما قال عمرو رضي اللّه عنه: بعث إلي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أن خذ عليك ثيابك وسلاحك وائتني، فأتيته وهو يتوضأ، فصعّد فيّ النظر ثم طأطأ فقال: إني أريد أن أبعثك على جيش فيسلمك اللّه ويغنمك، وأرغب لك من المال رغبة صالحة، فقلت: يا رسول اللّه، ما أسلمت من أجل المال، ولكني أسلمت رغبة في الإسلام، وأن أكون مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال: يا عمرو، نعم المال الصالح، للمرء الصالح[5]. وخرج الجيش، وكان الجو باردًا، فسألوه أصحابه أن يوقدوا نارًا فمَنعهم، وكلمه أبو بكر فقال: لا يُوقد أحد منهم نارًا إلا قذفتُه فيها، ولما لقوا العدو هزموهم، فأراد المسلمون أن يتبعوهم، فمنعهم، فلما رجعوا

(1) : رواه أحمد في المسند (291/5).
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3929.
(3) : رواه البخاري ـ فضائل الصحابة رقم: 3433.
(4) : رواه أحمد في المسند (402/1) بسند صحيح.
(5) : رواه أحمد في المسند (197/4) بسند صحيح.

ذكروا ذلك للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فسأله، فقال: كرهت أن يرى العدو قلتهم إن أوقدوا نارًا، فكرهت أن يتبعوهم فيكون لهم مردِ، فحمد النبَي صلى اللّه عليه وآله وسلم أمره، فقال عمرو: يا رسول اللّه، مَن أحب الناس إليك؟ قال عائشة، قلت: ومن الرجال، قال: أبوها، قلت: ثم مَن، قال: عمر، فعد رجالا فسَكت مخافة أن يجعلني في آخرهم[1]. قال عمرو: واحتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل، فأشفقت إن اغتسلت أن أهلك، فتيممت ثم صليت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: يا عمرو، صليت بأصحابك وأنت جُنب، فأخبرتُه بالذي منعني من الاغتسال وقلت: إني سمعت اللّه يقول: «(ولا تقتلوا أنفسكم إن اللّه كان بكم رحيما)» ﴿النساء، آية: 29﴾ فضحك صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم يقل شيئا.

فتح مكة

وبعد هذه الغزوة، نقضت قريش الصلح، فوثبت بنو بكر - أحلاف قريش - على خُزاعة أحلاف المسلمين بماء قريب من مكة يقال له: الوتير، وكان ذلك ليلا غَدرًا، وأعانتهم قريش بالكراع والسلاح، وقالت: ما يعلم بنا محمد، وهذا الليل وما يرانا أحد فركب عمر بن سالم قائد خزاعة، حتى قدم المدينة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأخبره الخبر وأنشده: (رجز)

يا رب إني ناشدٌ محمــــدا
حلفَ أبينا وأبيــه الأتلــدا
قد كنتُم وُلدًا وكنَا والـــدا
ثِمتَ أسلمنا فلم ننزع يـــدا
فانصر رســـــول اللّه أعتدا[2]
وادْعُ عبادَ اللّه يأتوا مــــددا
فيهم رســـول اللّه قد تجردا
إن سِيمَ خَسفا[3] وجهه تربدا[4]
في فيلق كالبحر يَجرِي مُزبدا
إن قريشا أخلفوك الموعـدا
ونقضوا ميثاقَك المؤكـــدا
وزعموا أن لستُ أدعوا أحدا
فهم أذل وأقل عَـــدَدَا
قد جعلوا لي بكدَاء مَرصَـدا

---

(1) : رواه مسلم ـ فضائل الصحابة رقم: 4396، والترمذي ـ المناقب رقم: 3820.
(2) أي حاضرا.
(3) : الخسف: الذل.
(4) : تربد: تغير.

هم بيّتونا بالوَتير هُجّـــدا

وقتلونا ركعا وسجـــــدا

فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: نصرتَ يا عمرو بن سالم، فما برح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى مرت عَنانة في السماء فقال: إن هذه السحابة لتسهتل نصر بني كعب[1].

كانت غزوة فتح مكة سنة ثمان من الهجرة في رمضان، إذ خرج في عاشره، ودخل مكة لتسع عشرة خلت منه. وقبل الإعداد للخروج، أرسل صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى قريش يُخَيّرهم بين دفع دية قتلى خُزاعة أحلافه، أو البراءة من حلف بكر، أو القتال، فاختارت القتال، ثم نَدمتَ وأوفدت أبا سفيان إلى المدينة تطلب تجديد المعاهدة، لكنهَ لم يلق أذُنا صاغية[2]. واستنفر صلى اللّه عليه وآله وسلم القبائل. ولم يخبر وجهته حرصًا على السّرّية. حتى لا تستعد قريش للقتال، وقدم المتطوعون المدينة، ومَنهم من لحق بالطريق، وخرج المهاجرون والأنصار كلهم[3]، وبلغ عدد المجاهدين بضعة آلاف، وأرسل حاطب بن أبي بَلتعة (وهو بدري) كتابًا إلى قريش يخبرها باستعداد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم للغزو وحمّله عجوزًا دسّته في عفاصها، فأطلع اللّه رسوله على الأمر، فأمَر عليًا، والزبيرَ، والمقداد بَلحاق المرأة، فأمسكوها بروضة خاخ على بعد اثنى عشر ميلا من المدينة، وهددوها، فأخرجت الكتاب، فلما قرئ قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: يا حاطب، ما هذا؟ قال: يا رسول اللّه، لا تعجل علي، إني كنتُ امرءًا ملصقًا في قريش، كنت حليفًا ولم أكن منها، وكان مَن معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتَني ذلك من النسَب فيهم، أن أتَّخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني، ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أما إنه قد صَدَقكم، فقال عمر: يا رسول اللّه دعْني أضربْ عنق هذا المنافق، فقال إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل اللّه اطّلع على مَن شهد بدرًا، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، فأنزل اللّه تعالى: «(يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء، تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق فقد ضل سواء السبيل)» ﴿الممتحنة، آية: 1﴾[4]. وبذلك شرع اللّه عدواةَ الكفار ومصارحتَهم، ومنَع موالاتَهم وصداقتَهم. ويستفاد من هذه القصة: حكمُ الجاسوس، وجواز هتك سره، إلا أنه لا يكفّر بهذه الكبيرة، واستخلف صلى اللّه عليه وآله وسلم على المدينة أبا رهم كَلثوم بن حُصين الغِفاري،

---

(1) : رواه ابن هشام بسند صحيح. والبيهقي في الدلائل (5/5)

(2) : المطالب العالية لابن حجر (243/4) من مرسل صحيح.

(3) : رواه ابن إسحاق بإسناد حسن.

(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3939، ومسلم في الفضائل رقم: 4550

وخرج المسلمون صيامًا، ولما بلغوا كُدَيدا (عين ماء تبعد عن مكة ستة وثمانين كيلومَتر) أفطروا، وبلغوا إلى مَر الظهران دون أن تعلمَ قريش بحركتهم، وقدم أبو سفيان بن الحارث أخو رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من الرضاعة، وعبد اللّه بن أبي أمية بن المغيرة على رسول اللّه بالأبواء، فأسلما، وكانا شديدي العداوة للإسلام، ظل الأول عشرين سنة يهجو المسلمين، ويحارب الإسلام، إلى أن قَذف اللّه في قلبه الإسلامَ، فأسلم وحسُن إسلامه، وكان ممن أبلى البلاءَ الحسن في غزوة حُنين، حين فر الناس، كما سيأتي إن شاء اللّه تعالى. وأما الثاني فلقى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بين السقيا والعَرْج، فأسلم وحسُن إسلامُه، وشهد فتح مكة، واستُشهد في حصار الطائف[1]، وهو أخو أم سلمةَ أم المؤمنين رضي اللّه عنها لأبيها. ولقي العباس عمّ رسول اللّه: النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأعلن إسلامَه، وكان أسلم قبل فتح خيبر[2]. إلا أنه أخفى إسلامَه ليتمكن من حماية المسلمين المستضعَفين بمكة، وموافاة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بأخبار قريش. وعَسكر المسلمون بمَر الظهران، وخرج أبو سفيان ومن معه، يتحسسون الأخبار، وفي الطريق لقوا العباس، وكان يريد إرسال مَن يطلب من قريش المبادرة للصلح قبل أن يدخل المسلمون عليهم مكة، وكان أبو سفيان يظن أن الجيش لخزاعة. فأخبره العباس بأنه للمسلمين، فطلب منه رأيه. فأمره بالذهاب معه إلى معسكر المسلمين، فذهبا وقابلا الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم فدعا أبا سفيان إلى الإسلام، فتلطف في الكلام، وتردد، فأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم العباس أن يأخذه إلى خيمته، ويحضره في الصباح، فأسلم أبو سفيان في اليوم التالي، وأطلعه العباس على قوة المسلمين، واستعرض الجيش أمامه، فرأى أبو سفيان ما لا قِبَل لقريش به، ومرت بهما كتيبة المهاجرين والأنصار، وفيهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال أبو سفيان: واللّه لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيما اليوم، فقال له العباس: ويحك إنها النبوة، قال: فَنَعم إذًا، وذهب إلى مكة مخبرًا قريشا بقوة المسلمين، وناهيا لهم عن المقاومة[3]. وسمع أبو سفيان سعد بن عبادة عند مروره به في الاستعراض حاملا راية الأنصار يقول: اليومَ يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، فشكا أبو سفيان إلى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم ما قال سعد، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: كذب سعد، ولكن هذا يوم يعظم اللّه فيه الكعبة، ويوم تُكسى فيه الكعبة. ومعنى قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: كذَب سعد: أخطأ، وأخذ صلى اللّه عليه وآله وسلم الراية من سعد، فدفعها إلى ابنه قيس، ثم ردها إلى سعد

(1) : الاستيعاب لابن عبد البر. (261/1)
(2) : رواه عبد الرزاق في المصنف (466/5) وسنده صحيح.
(3) : المطالب العالية (244/4).

بطلبِ منه، وقرر صلى اللّه عليه وآله وسلم الزحف إلى مكة، ونظَّم الجيشَ، ووزَّع الرايات، وجمعت قريش من جهتها جموعًا جموعًا قصدَ حماية نفسها، فإن انتصروا أعانتهم الجموع، وإلا صالحوا المسلمين، ودَخَل المسلمون مكة حتى انتهوا إلى الصفا، وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بقتال مَن اعترضهم، وكان دخولهم من جهة كَدَاء، إلا خالد بن الوليد، فإنه دَخَلها من أسفلها، وكانت مقاومة قريش ضعيفة، والتحم خالد مع بعض المشركين فوَقَعَ قَتلى قليلون من الطرفين، بلغوا من المشركين أربعة وعشرين[1]، حتى قال أبو سفيان: يا رسول اللّه، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعدَ اليوم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم عندها: مَن دَخَل دار أبي سفيان فهو آمن، فلجأ المشركون إليها، وأغلق آخرون أبوابَهم، وخاف الأنصارُ من تأمين الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم قريشًا أن يكون راغبا في البقاء بمكة مع قومه، فطمأنهم وقال: المحيا محياكم، والمماة مماتُكم[2]، وأعلن صلى اللّه عليه وآله وسلم الكفَّ عن القتال، وأمّن الناس إلا أربعة: عبدَ اللّه بن خطل، ومِقْيَس بن صبابة، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد اللّه بن سعد بن أبي سَرح، فقُتل الأول وهو متعلق بأستار الكعبة[3]، وكان أسلم ثم قتل مسلماً وارتد، وفي قتله وهو متعلق بأستار الكعبَة: دليل على أن الكعبة لا تُعيذ مستحقا لحد شرعي، وقُتل مقيَس في سوق مكة، أما الآخران فتمكنا من الوصول إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأسلما فحَقنا بذلك دماءهما[4]. وقد أهدر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم دماءَ غير هؤلاء الأربعة، بلغوا: سبعة عَشَر بين رجال ونساء، لبليغ أذاهم، وعظيم عدائهم للمسلمين[5]، وعفا عن الباقين رغم ما فعلوا، ورغم قدرة المسلمين على استئصالهم، فاجتمعوا حول الكعبة ينتظرون حكمَ الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم فيهم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لا تثريب عليكم اليوم يغفر اللّه لكم[6]. واشتُهر على الألسنة أنه قال لهم: اذهبوا فأنتم الطلقاء، فسموا من يومئذ الطلقاء، ولكن هذا لا يثبت. وفي هذا نزل قوله تعالى: «(وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به وإن صبرتم لهو خير للصابرين)» ﴿النحل، آية: 126﴾، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: نصبر ولا نعاقب[7] ولما لمكة المكرمة من مكانة، اختصت بأحكام تُضفي عليها ضمنَ الحرم

---

(1) : رواه البيهقي في السنن الكبير (120/9).
(2) : رواه مسلم (95/2).
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3949.
(4) : رواه مسلم (570/1).
(5) : رواه النسائي في المجتبى (105/7) والفتح (11/8).
(6) : أبو عبيد في الأموال رقم: 268. من مرسل حسن، وله شواهد من طرق يتقوى بها.
(7) : رواه أحمد في المسند (135/5) وغيره.

قدسيةً خاصة، حتى اختلف العلماءُ في بيع أرضها، وإجارة بيوتها، لأنها لجميع المسلمين بين مانع ومُجيز، والصواب: الجوازُ وبه جرى عمل المسلمين لقوة الأدلة، وضعف أدلة المانعين. وكان نزول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بقبة ضُربت له في الحجون، وسأله أسامة: هل سينزل بَيتَه حيث وُلد؟ فقال: وهل تَرك لنا عَقيل من رباع أو دور[1]، وكان ورث أخاه أبا طالب، وباع الدور كلها، ولم يرث علي وجعفر أباهما، لأنهما مسلمان، وهو مات كافرا

ودخل صلى اللّه عليه وآله وسلم مكة خاشعًا، متواضعًا، شاكرًا ربَّه على فتحه، يقرأ سورة الفتح، ويُرجع في قراءتها وهو على راحلته، وطاف بالكعبة راكبا، واستلم الركن بمحْجَنه تعليمًا للأمة، وكراهةَ الازدحام، وأكد صلى اللّه عليه وآله وسلم حُرمة مكة، وأنها لا تُغزى بعد هذا الفتح[2]، ونوهِ بقريش وقال: لا يُقتل قرشي صبرًا إلى يوم القيامة[3]. وكانت حول الكعبة وفوقها أصنام كثيرة بلغت ثلاثمائة وستين صنما، فأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بتحطيمها، وشارك في ذلك، مشيرًا إليها بقوسيه، وهو يقرأ: «(وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا)» ﴿الإسراء، آية: 81﴾[4] فتتساقط، ووجد صلى اللّه عليه وآله وسلم بداخل الكعبة: صورة إبراهيم وابنه: إسماعيل، وإسحاق عليهم السلام وهم يستقسمون بالأزلام، فقال: قاتلهم اللّه، ما كان إبراهيم يستقسم بالأزلام، كما وَجَد صورة مريم عليهَا السلام، فأمر بالصوُّر فلطخت بالزَّعْفَران، ومحيت، ودَخَل الكعبة وصلَّى فيها، ثم خرج فدَعَا عثمان بن طلحة من بني شيبة، وأعطاه مفتاح الكعبة تأكيداً لاستمرار الحِجابة فيهم، وما زالت إلى الآن، واستلم صلى اللّه عليه وآله وسلم الحجَر وطاف، وكان غير محدم، وكان على رأسه المغفر، ثم تعمم بالسواد، وفِعله صلى اللّه عليه وآله وسلم يدل على جواز دخول مكة لغيرَ المحرم إذا لم يُرد حَجًا ولا عُمرة. وأنزل اللّه تعالى في هذا الفتح: ﴿سورة النصر﴾: «(إذا جاء نصر اللّه والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين اللّه أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان ترابا)». وهكذا عاد بت اللّه الحرام إلى قُدسيته وطهَارته التي دَنَّسها المشركون بشركهم وطواغيتهم مآت السنين، حتى أذن اللّه تعالى بالفتح الذي كان ينتظر به العرب نهاية الصراع بين الحق والباطل، فكان هو انطلاقا لسائر قبائل العرب وجموعهاو إذ أقبلوا خفافًا وثقالا يدخلون دين اللّه أفواجا. وبأثر الفتح أرسل النبي صلى اللّهَ عليه وآله وسلم أصحابه لهدم طواغيت العرب، فهدمَ خالد بن الوليد: العزى

(1) : رواه البخاري مع الفتح (15/8).
(2) : رواه أحمد في المسند (412/3).
(3) : رواه أحمد في المسند (412/3).
(4) : البخاري ـ المغازي رقم: 4351. ومسلم رقم: 3333.

بنخلة، وهدَّم عمرو بن العاص: سُواع طاغوتَ هُذَيل، وسَعْد بن زيد: مناة بالمشلَّل. وهذه كانت رموز الشرك بتلك النواحي، سماها اللّه تعالى بقوله: «(أفرأيتم اللاة والعزى ومناة الثالثة الأخرى)» ﴿النجم، آية: 19﴾. وخطب صلى اللّه عليه وآله وسلم بمكة أربعَ مراتٍ، كانت الأولى على باب الكعبة، بينَّ فيهاأحكاماً، وقعَّد قواعد وأصولا، منها: تحريم مكة، وإبطال أحلاف الجاهلية الظالمة، وأن لا هجرةَ من مكة إلى المدينة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإن لولي القتل الخيار بين أخذ الدية أو القصاص[1]، وإن أمانَ المرأة جَائز لإمضاء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إجارة أم هانئ رجلين من أحمائها، وأن مُتعة النساء حرام إلى يوم القيامة بعد أن أبيحت يوم خيبر، وحُرمت يَومه، ثم أبيحت يومَ فتح مكة ثلاثَة أيام، ثم حُرمتِ إلى الأبد[2]، وحرم بيعِ الخمر، والميتة، والأصنام، وأن الوصية بأكثر من الثلث لا تجوز، وأن الوَلد للفراش وللعاهر الحجَر، وأن المشرك إذا أسلمت زوجُه، ثم أسلم هَو داخل العدةَ، فإن نكاحهمَا قائم، وأن الصوم والفطر في السفر جائز، ومشروعية صلاة الضحى لأنه صلى اللّه عليه وآله وسلم صلاَّها ثماني ركعات خفيفة[3]، وإن الأحقَّ بإقامة الصلاة: أكثر المصلين حفظا للقرآن، وأن الشفاعة في حدود اللّه حرام، وإقرار مبدأ المساواة بين الناس في أحكام اللّه، إلى غير ذلك من الأحكام.

غزوة حنين

وبعد الفتح: تزعمت قبيلتا هَوازن، وثقيف: بقايا المشركين لحرب الإسلام، ومناهضة المسلمين، فكان من آثار ذلك: غزوة حُنين، أو هوازن، وتعتبر أكبَر المعارك، وأكثَرها خطورة في عصر النبوة، لكثرة جندها، ووفرة غنائمها، وما تتخللها من دروس وعبَر، وحنين اسم واد يبعد عن مكة بعشرين كيلومتر، وتعرف الآن بالشرائع. أما هوازن: قبيلة عربية مُضَرية، من فروعها ثقيف، التي استوطنت مدينة الطائف التي تبعد عن مكة بتسعين كيلومتر، وفي ديارهم أسواق العرب التجارية والأدبية: عكاظ بين نخلة والطائف، وهي مشهورة باحتضان الشعراء والخطباء، وذو المجاز، قرب عرفات، سوق مَجنّة بمَر الظهران، وكانت مصالحهم مشتركة مع قريش بحكم الجوار والمصاهرة القديمة، وكانت الطائف مصطاف القُرَشيين، امتلكوا فيها الدور الضِّياع، حتى سميت بستان قريش، وفيها يقع الوهْط: بستان عمرو بن العاص الشهير بأعنابه الجيدة، وبستان عتبة وشيبة ابني ربيعة

---

(1) : رواه البخاري رقم: 1703.
(2) : رواه مسلم بشرح النوري (553/3).
(3) : رواه البخاري رقم: 1105. ومسلم رقم: 1177 ـ الصلاة.

القرشيين[1]، وغيرهما.

ولا شك أن انتصارات المسلمين على المشركين كانت تصلهم، وتُحز في نفوسهم، لأنهم كانوا يتتبعون عن كثَب كل ما يَجري في الساحة، وإنما لم يشاركوا بفعالية، لاطمئنانهم إلى قوة قريش، ولكتمان المسلمين لخططهم، ولا تنسِ لجوء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إليهم في الطائف، ودعوتَه إياهم إلى الإسلام، واستكتامه إياهم أمرَه حتى يخرج من بينهم، وإباءهم ذلك بإعلان العداء، وإغراء صبيانهم وسفهائهم به صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى رموه بالحجارة، وكذلك سوء رد زعيمهم: ابن عبد ياليل في العقبة، حين عرض صلى اللّه عليه وآله وسلم الإسلام عليه، فاغتم لذلك حتى ذهب بعيدا عن مكة مسيرةَ يوم وليلة، لا يدري أين يتوجه لفرط الهم[2]، وقد كان صلى اللّه عليه وآله وسلم يدرك أهمية إسلام ثقيف، لعلاقتها الوثيقة بقريش، ولمكانتها الاقتصادية والعسكرية، ولما فتحت مكة، وسقطت زعامة قريش، بادرت ثقيف وهوازن إلى حمل راية الشرك، والتعبئة العامة لمواجهة الموقف، وعندما تحرك المسلمون من المدينة، توهموا أنهم المقصودون، لا سيما والمسلمون لم يكتفوا بالفتح، بل وَاصلوا نشاطهم ببعث السرايا لهدم الطواغيت، فخرجت سرية خالد بن الوليد نحوَ نخلة، لهدم العُزَّى فهُدّمت، وهي في أرض ثقيف كما تقدم، وخرجت سرية سعد بن زيد الأشهلي إلى هدم مَناة بالمُشَلَّل وتسمَّى الآن: القديدية، فهدمت وكانت صنم الأنصار قبل الإسلام، كما خرجت سرية أخرى برئاسة خالد في شهر شوال - وهو شهر المعركة- في ثلاثمِائة وخمسين رجلا من المهاجرين والأنصار، إلى بني جَذيمة في يَلَمْلَم -تبعد عن مكة جنوبا بثمانين كيلومتر- يدعوهم إلى الإسلام، فلما وصلهم ودعاهم لم يُحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا - وهي كلمة ذم، كانت قريش تُطلق على كل من أسلم أنه صبأ - ففهم خالد خطأً أنهم مُصرون على الكفر، فقَتَل منهم وأسر، ثم أمر بقتل الأسرى، وتوقف بعضُ مَن معه من الصحابة عن القتل، حتى قدموا على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فتبرأ مما صنع خالد مرتين[3]. ويروى أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم وَدَى قَتْلَهُم وزادهم تطييبًا لأنفسهم، وهذا لا يصح. وخالد إنما فعل ما فعل خطأً بدليل أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لم يعاقبه وإنما تبرأ مما عمل.

وهذه الأحداث كانت تقع بأرض ثقيف وهوازن وبعد أيام من فتح مكة، وبمرأى من عيونهم، فلا غرو أن بادروا إلى جمع الجموع بزعامة مالك بن عوف النصري الذي أرادها موقعة حاسمة، فأمر

---

(1) : ابن هشام (709/1).

(2) : الصحيحان ـ المغازي. [البخاري رقم: 2992. ومسلم رقم: 3352]

(3) : رواه البخاري (131/5).

بإخراج الأموال والنساء والأولاد، حتى يستميتوا في الدفاع عن الأموال والحرُمات، وانضمت إليهم قبائل كَغَطفان وغيرها[1]. ولم يستمع مالك إلى من أنكر عليه إخراج النساء والأطفال والمال، لأن المنهزم في رأيه لا يرده شيء، ورتب مالك جموعَه أحسن ترتيب، فقدم الخيلِ، ثم الرجالة، ثم النساء، ثم الغنم والإبل[2]، وكان عددهم ضعف عدد المسلمين وأكثر، وبلغ جيش المسلمين اثني عشر ألفا[3]، وأخذ المسلمون أهبتهم، واستعدوا بعد أن أرسل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عبد اللّه بن أبي حدرد الأسلمي عينًا لمعرفة أمر المشركين، فمكث فيهم يومًا أو يومين، ثم عاد إلى المسلمين يخبرهم[4]، واستعار صلى اللّه عليه وآله وسلم مائة درع من صفوان بن أمية، وكان إذ ذاك مشركًا، فقال للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: أغصبا أم عارية؟ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: بل عارية، وقد ردها عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد الغزوة وشكر له صنيعه[5]. وهناك روايات عن استقراضه صلى اللّه عليه وآله وسلم من حويطب بن عبد العُزّى أربعين ألف درهم، وقبول إعانة نوفل بن الحارث بن عبد المطلب بثلاثمائة رُمح، وهي وإن لم تصح، فلا مانع منها، لأنه صلى اللّه عليه وآله وسلم استعان بصفوان وهو مشرك، ولأن الإسلام كان من الرسوخ بحيث لا تؤثر فيه إعانة مشركينَ قدمت له اختيارًا دون قيد ولا شرط، وهكذا خرج المسلمون إلى وادي حنين - وقد سبق إليه المشركون- في مساء العاشر من شوال سنة ثمان من الهجرة[6] موافق فبراير سنة 630 م، واستخلف صلى اللّه عليه وآله وسلم على مكة عتاب بن أسيد أميرًا على مكة[7]، وأسرع المسلمون السير في أول خروجهم، وكلما اقتربوا من حنين، أبطأوا حذرين، وجاءه صلى اللّه عليه وآله وسلم رجل فقال له: إني انطلقت بين أيديكم حتى طلعتُ جبل كذا وكذا، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم، بظعُنهم ونَعَمهم وشائهم، اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء اللّه[8]. واهتم صلى اللّه عليه وآله وسلم بحراسة الجيش عند صلاة العشاء، وعند النوم، وتطوع أنس بن أبي مَرثَد الغَنَوي بالحراسة ليلا إلى الفجر بمنتهى اليقظة والحذر، فوعده صلى اللّه عليه وآله وسلم الجنة[1]. وحَدَث في أثناء ذلك من بعض الطلقاء -وقد بلغوا

---

(1) : رواه البخاري (130/5).
(2) : رواه مسلم (236/2).
(3) : فتح الباري (29/8).
(4) : رواه الحاكم في المستدرك (48/3) وصححه.
(5) : إرواء الغليل للألباني (344/5).
(6) : فتح الباري (562/2).
(7) : التاريخ لخليفة بن خياط ص 88.
(8) : رواه أبو داود (391/1) سند صحيح.

في الجيش نحو الألفين، وهم حديثو عهد بالإسلام- أَن رأوا هناك في الطريق شجرة تعرف بذاتِ أنواط، كان المشركون يعلقون عليها أسلحتهم، فقالوا: يا رسول اللّه، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: سبحان اللّه، قلتم كما قال قوم موسى: اجعل لنا إلاها كما لهم آلهة، والذي نفسي بيده لتركبُنَّ سَنَنَ مَن قبلكم[2]. ولم يعنفهم صلى اللّه عليه وآله وسلم، لعدم تخلص نفوسهم من رواسب الجاهلية والشرك وآثاره، إلى ما في طلبهم من نزوع إلى التشبُّه بالمشركين، مما لا يليق بصحيح الإيمان. كما كان من الآثار القبيحة لهم ومنهم: إعجابُهم بكثْرة الجيش حتى أيقنوا بالانتصار لمجرد ذلك، فقال قائلهم: لن نُغلب اليوم من قلة، وفي رواية عند ابن هشام: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم هو الذي قال ذلك، ولا تصح، فعاتَبهم اللّه تعالى إذ أعجبوا بقوتهم، ولم يتكلوا على اللّه ويستنصروه فينصرهم، فقال: «(ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتُكم فلن تغني عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحُبت ثم وليتم مدبرين، ثم أنزل اللّه سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودًا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين، ثم يتوب اللّه من بعد ذلك على من يشاء واللّه غفور رحيم)» ﴿التوبة، آية: 25﴾ أما رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فدعا ربه ولجأ إليه وحده وقال اللهم بك أحاول، وبك أصاول، وبك أقاتل، وحكى لهم قصة نبي أعجبته كثرة أمته، فسلط اللّه عليهم الموت. وفي أثناء سير المسلمين، ضبط جاسوس مشرك، فقَتَله سلمة بن الأكوع. ولنَستمع إلى سَلمة يحكي قصته قال: غزونا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم هوازن فبينما نحن نتضحّى مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إذ جاء رجل على جمل أحمر، فأناخه ثم انتزع طلقًا من حقبه، فقيد به الجمل، ثم تقدم يتغذى مع القوم وجعل ينظر، وفينا ضعفة ورقة في الظهر، وبعضنا مشاة، إذ خرج يشتد فأتى جمله فأطلق قيده، ثم أناخه وقعد عليه فأثاره، فاشتد به الجمل، فاتّبعه رجل على ناقة ورقاء، قال سَلمَة: وخرجت أشتد، فكنت عند وَرك الناقة، ثم تقدم حتى كنت عند ورك الجمل، ثم تقدمت حتى أخذت بخطام الجمل فأنختُه، فلما وضَع ركبته على الأرض، اخترطت السَيف فضربتُ رأسَ الرجل فندر، ثم جئت بالجمل أقوده، عليه رَحله وسلاحُه، فاستقبلني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والناس معه فقال: مَن قتل الرجل؟ قالوا: ابن الأكوع، قال: له سلبه أجمع[3].

سبق أن المشركين أخذوا مواقعهم في وادي حنين، ونصبوا

---

(2) : رواه أبو داود (210/1) بسند صحيح.

(3) : رواه الترمذي (321/3) بسند صحيح.

(4) : رواه مسلم ـ الجهاد والسير رقم: 3298.

الكمائن، وبعثوا العيون، وأحكموا خططهم، وكان الوادي منحدراً شديدًا ذا شعاب وعرة، ومنعطفات صعبة، وقد قال مالك النصري لجموعه: إن أعداءهم لم يلقوا مثلهم شجاعة، وكثرة عدد، ومعرفة، مما قوى معنوياتهم، ودفعهم إلى إنفاذ مباغتة المسلمين بالنبال عند توغلهم في الوادي، حسب خطتهم المدروسة. وقبل انبلاج الفجر تقدم المسلمون، في طليعتهم الخيالة، بقيادة خالد بن الوليد، على رأسها بنو سليم[1]، ثم سائر الجيش في صفوف منتظمة، وتراجعت أمامَهم طلائع المشركين، تاركين بعضَ الغنائم، فظنها المسلمون الهزيمة النهائية. وأقبل الطلقاء على الغنائم يجمعونها، فباغتهم الأعداء يمطرونهم بالسهام من كمائنهم من جنبات الوادي، وكان بعض المسلمين تعجلوا الخروج دون سلاح، ومنهم من لم يستكمل لباسه، فكانوا حاسري الرؤوس، لم يحسبوا للأمر حسابَه، واستمر الحال هكذا يومًا وليلة، والحر شديد، والأرض رملية، والغبار يتصاعد فيعمي الرؤية حتى قال بعضهم: ما منا أحد يبصر كفه[2]، والرشق بالسهام قوي، حتى ما يكاد يسقط للمشركين سهم، فانكشفت خيالة المسلمين، يتلوهم المشاة والطلقاء والأعراب، ولم يبق ثابتا في الميدان إلا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم راكبًا بغلتَه البيضاء دُلدُل والبغال لا تصلح للكر والفر وهو صلى اللّه عليه وآله وسلم يمتلك الخيل، ولكنه أراد أن يلقن أصحابَه درسًا في الصمود والثبات، ومعه فئة قليلة من المسلمين، ولما شاهد صلى اللّه عليه وآله وسلم الهزيمة أخذ يدعوا المسلمين متقدما ببغلته وهو يقول:

أنا النبيُّ لا كذب أنا ابنُ عبد المطلب.

وأبو سفيان بن الحارث آخذ بركاب البغلة وعمه العباس آخذٌ بزمامها[3]، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، في نحو اثنى عشر محيطون به، ثم تراجع قليل من المسلمين يسيرًا، كانوا نحو الثمانين أو المائة. أما الباقي فولوا الأدبار، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يركض بغلتَه قبلَ الكفار. قال العباس: أنا آخذ بلجامها أكفها إرادة ألا تسرع، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أي عباس، ناد أصحاب السمرة، الشجرة التي بايعوا تحتَها بيعة الرضوان، قال العباس - وكان صَيّتا - فقلت بأعلى صوتي: أين أصحابِ السمُرة؟ قال: فواللّه لكأن عطفتَهم حين سمعوا صَوتي عطفةُ البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك يا لبيك، ثم نادى العباسُ غيرَهم فتلاحقوا، وقاتلوا هوزان[4]، حتى من لم يستطع العودَ ببعيره، نزل عليه وتركه، فأقبل بسلاحه، والصحابة يحتمون برسول اللّه إذا اشتد البأس، وهو

---

(1) : رواه البخاري (130/5).
(2) : رواه أحمد في المسند (276/5).
(3) : رواه مسلم (1398/3).
(4) : رواه أحمد في المسند (121/3).

يدعو ربه ويقول: إنك إن تشأ لا تُعبدُ بعد اليوم[1]. وإذا غشيه العدو، ترجَّل عن دابته وقاتل. ولما تكاثر المتلاحقون اشتد القتال، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لما شاهد ذلك وهو على بغلته كالمتطاول: هذا حين حَمي الوطيس، ثم أخذ ترابا أو حصيات، فرمى بهن وجوه الكفار وهو يقول: شاهت الوجوه، انهزموا ورب محمد، فما خلق اللّه منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة[2]، «(ثم أنزل اللّه سكينَتَه على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا)» ﴿التوبة، آية: 26﴾، وانهزم المشركون في هذه الجولة الثانية هزيمة نكراء، لم يذوقوا مثلها، تاركين وراءَهم أموالا عظيمة، وسلاحًا، ووقعوا في فوضى في أثناء انسحابهم لانفراط عقد نظامهم، فقُتل من شراذمهم، وقضي عليهم بسهولة، أكثر مَن قتل في المعركة، وأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بتعقب فلولهم وقتلهم حتى لا يعودوا لمثلها، وقال: جُزّوهم جزًا وأومأ بيده إلى الحلق[3]، وأباح صلى اللّه عليه وآله وسلم سَلب المشرك لقاتله[4]، ونهى عن قتل النساء لما رأى امرأة مقتولة وقال: ما كانَت هذه تقاتل[5]، كما نهى عن قتل الذراري لما بَلغه أن بعض المسلمين يقتلونهم، وقال لمن ذَكر أنهم أولاد المشركين: أوَ هَل خيارُكم إلا أولاد المشركين؟ والذي نفس محمد بيده، ما من نَسَمة تولد إلا على الفطرة، حتى يُعرب عنها لسانُها[6]، ولم يعنف صلى اللّه عليه وآله وسلم أحدًا ممن فر، ولما طلبت أم سليم أن يقتل الطلقاء الذين تسببوا في الهزيمة، وكانت تحمل خنجرا، ولما سألها عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم قالت: اتخذتُه إن دنا مني أحد من المشركين بَقَرتُ به بطنه، فقال لها صلى اللّه عليه وآله وسلم: يا أم سليم: إن اللّه قد كفى وأحسن[7]، وخرج صلى اللّه عليه وآله وسلم لما بلغه أن خالدًا جُرح في المعركة يسأل عن رحله، فدُل عليه، فنظر إلى جرحه وحسبت ـ يقول عبد الرحمن بن أزهر ـ أنه نفث فيه[8].
واعتصم بعض الفارين بأوطاس، فبعث صلى اللّه عليه وآله وسلم أبا عامر عبيد بن سليم الأسلمي في أثرهم فلقى دريد بن الصمة فقتله، وهزم اللّه أصحابه. فقال أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه: وكنت في جيش مع أبي عامر، فرمى أبو عامر في ركبته، رماه جُشَمي بسهم فأثبته في ركبته، فانتهيت إليه فقلت: يا عم مَن رماك؟ فأشار

---

(1) : رواه أحمد في المسند (121/3).
(2) : رواه مسلم ـ غزوة حنين رقم: 3328.
(3) : رواه البزار في المسند، قال في المجمع (181/6): رجاله ثقات.
(4) : رواه أبو داود (65/2).
(5) : رواه أبو داود (65/2).
(6) : رواه أحمد في المسند (435/3).
(7) : رواه مسلم في الجهاد والسير رقم: 3374.
(8) : رواه أحمد في المسند (44/4) وسنده صحيح.

إلى مَن رماه، قال أبو موسى: فقصدتُّ له فاعتمدته فلحقته، فلما رآني ولى عني هاربا، فأتبعته وجعلتُ أقول له: ألا تستحيي؟ ألست عربيا؟ ألا تثبت؟ فكف، فالتقيت أنا وهو، فاختلفنا ضربتين أنا وهو فقتلتُه، ثم رجعت إلى أبي عامر فقلت: قد قَتَل اللّه صاحبَك، قال: فانتزع هذا السهم فنزعتُه، فنزا منه ماء (جرى) فقال: يا ابن أخي انطلق إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأقرئه عني السلام، وقل له: يستغفر لي، وبقي أبو عامر يسيرًا ثم مات، فرجعت إل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فوجدته على سرير مرمل، وعليه فراش، وقد أثر رمل السرير في ظهر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وجنبه، فأخبرته وقلت: أبو عامر يرجو أن تستغفر له، فدعا صلى اللّه عليه وآله وسلم بماء فتوضأ ثم رفع يديه فقال: اللهم اغفر لأبي عامر عبدك، حتى رأيت بياض إبطيه، ثم قال: اللهم اجعله يومَ القيامة فوق كثير من خلقك، أو من الناس، فقلت: يا رسول اللّه، ولي فاستغفر، فقال: اللهم اغفر لعبد اللّه بن قيس ذنبَه، وأدخله يومَ القيامة مُدخلا كريما. قال أبو بردة: إحداهما لأبي عامر، والأخرى لأبي موسى[1]. أما مالك بن عامر النصري زعيم المشركين، فقد فر إلى الطائف متحصنا بها. وبعد الفراغ من تعقب الفارين: إلى أوطاس ونخلة، والقضاء عليهم، وأحصيت القتلى فبلغت المآت ولم تصح الرواية في تحديدهم إلا أن الزبير بن العوام ومَن معه قتلوا بأوطاس ثلاثمائة[2]. وقتل أبو طلحة وحده عشرين رجلا. وأخذ أسلابهم[3]. واستحَرَّ القتل في بني نصر، وبني رئاب وهم من هوزان، فقُتل منهم المآت، هذا إلى الجرحى وهم كثيرون، وبلغ السبي من النساء والأبناء فقط: ستة آلاف[4]، حتى قال الزهري: مُلئت عُرش مكة منهم. أما الأموال من أواقي الفضة، والإبل، والبقر، والغنم، والخيل، والحمير، فكانت أكثر من أن تحصى، لذلك اختلفت الروايات في عدها على أنها دون إسناد، إلا أنها دون شك: آلاف مؤلفة. وقد أمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بحبْسها في الجعْرانة حتى يعود من حصار الطائف، أما خسائر المسلمين: فكانت طَفيفة من جراح خفيفة، شفوا منها، ولم يستشهد إلا أربعة، سماهم ابن إسحاق، ومن الجرحى: الخلفاء الأربعة، وعبد اللّه ابن أبي أوفى، وخالد بن الوليد. ويدل على أن المصاب كان خفيفا: مطاردة المسلمين المشركين إلى مسافات بعيدة، ثم اتجاههم مباشرة إلى حصار الطائف دون استراحة من تعب القتال والمطاردة في هذه الغزوة الكبرى، التي تشبه في نتائجها غزوة بدر الكبرى، لأن

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3979.
(2) : في حديث حسنه ابن حجر في الفتح (42/8).
(3) : رواه أبو داود (65/2) وحسنه.
(4) رواه ابن سعد في الطبقات (152/2) والطبري (82/3) وسنده حسن.

الطرفين قدَّموا لها جميعَ قوتهما، كما أن قبائل الأعراب، ومن لم يدخل في الإسلام بعدُ، كانوا ينتظرون نهاية المعركة لتحديد موقفهم النهائي من الإسلام. فلما أسفرت عن انهزام المشركين، دخل الناس في دين اللّه أفواجا.

غزوة الطائف

وتوجه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمون بعد هذا إلى حصار الطائف، التي فر إليها مالك النصري ومن معه، وهي بلدة حصينة بأسوارها، وحصونها، وموقعها الجبلي، لا منافذ لها إلا الأبواب وقد أغلقها المشركون عليهم بعد ادخار الأقوات والسلاح، حتى يصمدوا عامًا إن لزم الأمر، وَوَصَلها المسلمون في العشرين من شوال، ودام حصارها بضع عشرة ليلة[1]. أما روايات الشهر، والأربعين يومًا فلا تصح، ولا تتفق مع تاريخ الأحداث، فإن الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وصل إلى المدينة في أواخر ذي القعدة، بعد أن مكث بالجعْرانة بضعَ عشرة ليلة لقسم الغنائم، وسلك المسلمون الطِريقَ القديم حتى وصلوا الطائف جنوبًا، لاستحالة اقتحامها شمالاً، وللحيلولة دون وصول المدَد إليها. ونزل المسلمون قريبا من الحصون، فنالهم سهام الأعداء، وأصيب بعضهم، فتحولوا إلى حيث بُني المسجد، وهو المعروف اليومَ بمسجد ابن عباس، واستعمل المسلمون لأول مرة في حصارهم: الدبابة - وهِي آلة خشبية مكسوة بالجلِود، تسير على عَجَلات - للإحتماء داخلها مِن النبال، حتى يمكنهم ثقب السور، ولكن المشركين ألقوا عليهم قطع الحديد المحماة فأحرقت الآلة، وخرج منها المسلمون، فأصابَتهم السهام[2]. وكانت الدبابات والمجانيق تصنع بجرش اليمانية في أعلى وادي بيشة[3]. فأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بحَرق بساتين النخيل والعنب في ضواحي الطائِف، وناشده المشركون أن لا يفعل، فتركَها. وقد أثر حادث الحرق في نفوسهم على أنه لم يكن في نية الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم فتحُ الطائف، وإنما كان يرمي إلى إضعاف معنوياتهم، وخضد شكوكتهم، وإفهامهم أنهم لا بد أن يسلموا أو يستسلموا، طال الزمان أو قصر. وأن بلدهم لابد أن يفتح إن لم يكن الآن فغداً، فإنه وهم محاطون بالإسلام من جمع الجهات، لذلك ولما كثر في المسلمين من الجراح، واستشهاد اثنى عشر رجلا، أمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بفك الحصار، وقال: إنا قافلون غدا إن شاء اللّه، فقال المسلمون: أنرجع ولم نفتحه؟ فقال: اغدوا على القتال غدا، فأصابتهم جراح، فقال: إنا قافلون غداً إن

(1) : الطبري (82/3) والبيهقي في الدلائل (47/3).
(2) : ابن هشام (478/2).
(3) : المناسك للحربي ص 285.

شاء اللّه، فأعجبهم ذلك، فضحك صلى اللّه عليه وآله وسلم[1] على أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم كان يطمح لإسلام ثقيف، ويعيرها اهتمامه منذ العصر المكي، لفطنتهم وغنائهم، ودعا لهم بالهداية لما رفضوا دعوته وآذوه المرة الأولى. ولما قال له المسلمون هذه المرة: يا رسول اللّه، أحرقتنا نبال ثقيف، فادع اللّه عليهم، قال: اللهم اهد ثقيفا[2]، وقد استمالهم صلى اللّه عليه وآله وسلم فنادى مناديه: أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم: أبو بكرة نُفيع بن مسروح الثقفي، فأسلموا فأعتقهم صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم.
وبعد فك الحصار: ارتحل المسلمون إلى الجعرانة، فوَصَلوها خامسَ ذي القعدة. وانتظر صلى اللّه عليه وآله وسلم قبل قسمة الغنائم بضعَ عشرةَ ليلة إلا بعض الفضة قسَمها بمجرد وصوله. قدومَ هوازن عليه، ودخولها في الإسلام، لما لم تفعل قام صلى اللّه عليه وآله وسلم بقسمة الغنائم. والشأن فيها: أن الخمس يؤخد منها، يتصرف فيه الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم كما أمره اللّه، وأربعة أقسام توَزع على المقاتلين، سهم للراجل، وثلاثة أسهم للفارس له ولفرسه، هذا في الأموال المنقولة. أما غيرها فللإمام ـ بعد المشاورة ـ أن يقسمها أو يقفها ملكا للدولة. والأموال المقسومة هي التي تحاز بالقتال، أما التي يُستَولى عليها وتُحاز دون قتال، فهي فيء، والأمر فيها لإمام المسلمين، يصرفها في المصالح العامة. ومن أحكام الإسلام: أن للإمام أن يشجع بعض من أبلى البلاء الحسن من المجاهدين، ببعض العطاء من الغنيمة قبل القسم. وهكذا فعل صلى اللّه عليه وآله وسلم فأعطى بعض المؤلفة قلوبُهم مما خفيت حكمتُه على بعض المسلمين، خصوصا الأنصار، فوقع منهم ما سيأتي، فأعطى مائة من الإبل لزعماء من قريش وغيرهم، منهم: أبو سفيان، صفوان بن أمية، إلى اثنين وخمسين رجلاً. وتجلت حكمته صلى اللّه عليه وآله وسلم في تصرفه فيما بعد، ففعل في نفوس القوم ما رغَّبهم في الإسلام، فدخلوا فيه وأبلوا البلاءَ الحسنَ، في نشره والدفاع عنه بأموالهم وأنفسهم إلا القليل منهم، كعيينة بن حصن الفزاري، فإنه لم يزل مغموزًا في إسلامه. أما الأقرع بن حابس، زعيم تميم: فقد استشهد مع عشرة من بنيه في معركة اليرموك. وذهبت عينُ أبي سفيان في هذه المعركة. قال أنس بن مالك رضي اللّه عنه: إن كان الرجل ليسلمُ ما يريد إلا الدنيا، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها[3]. واسمع إلى صفوان بن أمية ـ وهو الذي استعار منه صلى اللّه عليه وآله وسلم الدروع كما سبق ـ يقول:

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3981.
(2) رواه الترمذي في المغازي رقم: 3877. وحسنه.
(3) : رواه مسلم (1801/4).

لقد أعطاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ما أعطاني وإنه لأبغض الناس إلي، فما برح يعطيني حتى إنه لأحب الناس إلي[1]، وكان يحب المزيد من العطاء، فوعظه صلى اللّه عليه وآله وسلم فاتّعظ، ورغب عن العطاء كله، حتى حقه السنوي من بيت المال. فانظر ما فعل الإسلام بنفوس هؤلاء. ومن الطرائف: أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم أعطى عباسَ بن مِرْداس السُّلمي الشاعر (وهو جد بني الحاج بالأندلس والمغرب) دوَن المائة، وكان أعطى أقرانَه المائة كاملة فقال: (المتقارب)

أتجعل نهبي ونهب العبيـــــد
بين عيينة والأقـــــــرعِ ؟
فما كان بدر ولا حــــــابس
يفوقان مِرداسَ في المجمع
وما كنت دون امرئ منهما
ومن تخفض اليومَ لا يرفع

فأتم له صلى اللّه عليه وآله وسلم مائة[2]، ونال صلى اللّه عليه وآله وسلم يومئذ من جفاء الأعراب وسوء أدبهم لشدة طِمعهم وشَرهِهم مَا لا يحتمل، حتى قال قائلهم: واللّه إن هذه لَقسمة ما عُدِل فيها، وما أريد فيها وجه اللّه. قال ابن مسعود وقد سمعَ الرجل: واللّه لأخبرن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قال: فأتيته فأخبرتهِ، فتغير وجهُ رسول اللّه وقال: فمن يعدل إن لم يعدل اللّه ورسوله، ثم قال: يرحم اللّه موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر. قال ابن مسعود: لا جَرَم لا أرفع إليه بعدها حديثا[3]. وجاءه صلى اللّه عليه وآله وسلم أعرابي فقال: ألا تنجزني ما وعدتني؟ فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: أبشر، فقال: قد أكثرت عليَّ من: أبشر، فأقبل صلى اللّهِ عليه وآله وسلم على أبي موسى وبلال كهيئةِ الغضبان فقال: رَدَّ البشرى فاقْبَلا أنتما، قالاّ: قبلنا. ثم دعا بقَدَح ماء، فَغَسل يديه ووجهَه فيه، ومجَّ فيه، ثم قال: اشربا منه وافرغا على وجوهكما ونحوركما، وابشرا، فأخذا القدحَ ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأمكما، فأفضَلا منه لها طائفة[4]. وقال ذو الخويصرة التميمي لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد رأى صنيعَه في القسم: أعدل، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: شَقيت إن لم أعدل. وغضب عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه من كلام ذي الخويصرة، فاستأذن رسول اللّه في قتله فأبى عليه، وقال: معاذ

(1) : رواه مسلم (1801/8).
(2) : رواه مسلم ـ الزكاة رقم: 1757.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 5861.
(4) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3983.

اللّه أن يتحدث الناسُ أني أقتلُ أصحابي[1]. ولا غرو أن يفعل جُفاة الأعراب هذا، وأغلبهم إنما خرجَ طمعًا في الغنائم، وقد ازدحموا عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو يَقسم حتى ألجأوه مرة إلى شجرة، فعلق رداؤه بغصن منها فقال: أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة ـ شجرٍ شائك كان يملأ المكان ـ نَعَمًا لقسمتُه بينكم، ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوبًا ولا جبانًا[2]. وأخَذ وَبرة من سنام بعير بين أصبعيه وقال: واللّه ما لي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلاّ الخمس. والخمس مردود عليكم. وأخبرهم بتحريم الغُلول ـ وهو الأخذ من الغنيمة قبل القسم ـ فجاء رجل من الأنصار بخيوط شَعَر مكببة فألقاها، وكان أخذها قبل القسم، ولما مات مولاه صلى اللّه عليه وآله وسلم كركرة قال: هو في النار، ففتشوا متاعَه فوَجدوا عَباءة غلَّها. وهذا كله احتياط للأموال العامة، وصيانة لها. ولما علم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بتأثر بعض المسلمين وخصوصاً الأنصار بسبب حرمانهم، وإيثار الطلقاء والمؤلفة قلوبهم عليهم، حتى قال قائلهم: يغفر اللّه لرسول اللّه، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم[3]. لم يجد صلى اللّه عليه وآله وسلم بُدًا من شرح الموقف، والإشارة إلى حكمة فيه، فقال: واللّه إني لأعطي الرجل، وأدع الرجل، والذي أدع أحبِ إلي من الذي أعطي، ولكن أعطي أقوامًا لما أرى في قلوبهم من الجزَع والهَلع، وأكل أقوامًا إلى ما جعل اللّه في قلوبهم من الغنى والخير، إني أعطي رجالا حُدثاء عهد بكفر أتألفهم، إني لأعطيَ الرجل وغيرُه أحبّ إلي مخافةَ أن يكبه اللّه في النار[4]. فلما سمع القومُ هذا وَوَعوه، كفوا وأيقنوا أن الخيرَ فيما فعل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم. وقال آخرون منهم وكانوا كثرت فيهم القالة، حتى قال بعضُهم: لقي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قومُه ـ وهي كلمة سوء ـ فأمر صلى اللّه عليه وآله وسلم بجَمعهم في حظيرة أو قبة أدَم، وقال: أفيكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، إلاّ ابن أخت لنا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إنَّ ابنَ الأخت منهم، وجاء رجال من المهاجرين فدخلوا، وجاء غيرهم فردوا، وخطبَهم صلى اللّه عليه وآله وسلم فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال: يامعشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالا فهداكم اللّه بي؟ وعالةً فأغناكم اللّه بي؟ ومتفرقين فجمعكم اللّه بي؟ وأعداء فألف اللّه بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، اللّه ورسوله أمن وأفضل؟ قال: فما حديثِ بلغني عنكم؟ قال له فقهاء الأنصار: أما ذوو الرأي فينا يا رسول اللّه، فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانُهم، فقالوا : يغفر

(1) : رواه مسلم (2/740).
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 2915.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3986.
(4) : رواه البخاري رقم: 26.

اللّه لرسوله: يعطي قريشا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إني أعطي رجالا حديثي عهد بكفر أتألفهم، وجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعاعة[1] من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا، ووكلتم إلى إسلامكم، أفلا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول اللّه إلى رحالكم، فو الذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنتُ امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشعبًا لسلكت وادي الأنصار وشعبهم، الأنصار شعار، والناس دثار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار، ثم قال لهم: إنكم ستلقون بعدي أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض، قالوا: سنصبر. قال أنس: فلم نصبر، ثم قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ألا تجيبوني - يعني على قوله لهم السابق؟ ألم أجدكم ضلالة فهداكم اللّه بي الخ... فقالوا: بماذا نجيبك يا رسول اللّه؟ للّه ولرسوله المن والفضل، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أما واللّه لو شئتم لَقُلْتم، فلصَدقتم ولصُدِّقتم، أتيتنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك، فبكوا عند سماع كلامه هذا. وقالوا: رضينا برسول اللّه قسمًا وحظا[2]، وحقق اللّه حدْسَ رسوله صلى اللّه عليه وآله وسلم وتطلعَه إلى قدوم هوازن مسلمين، فما أتم قسم الغنائم - وكان أخَّره انتظارًا لقدومهم، فلما أبطأوا أنفذه - حتى قدم وفدُهم معلنًا إسلامَهم، طالبًا رد الأموال والسبي إليهم. ولما كان القَسم تم، وأصبحت الغنائمُ من حق أصحابها، خير صلى اللّه عليه وآله وسلم هوازن بين المال والسبي، فقالوا: خيرَّتنا بين أحسابنا وأموالنا، نختار أبناءنا، فقام صلى اللّه عليه وآله وسلم خطيبًا، فحمد اللّه وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاؤنا تائبين، وإني رأيت أن أرد عليهم سبيَهم، فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، وقال: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وقال المهاجرون: ما كان لنا فهو لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وقالت الأنصار: مثل ذلك. وقال عيينة من بدر: أما ما كان لي ولبني فزارة فلا، وقال الأقرع بن حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عباس بن مرداس: أما أنا وبنو سُليم فلا، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: أيها الناس ردوا عليهم نساءَهم وأبناءهم، فمن تمسك بشيء من الفيء فله علينا ستة فرائض من أول شيء يُفيئه اللّه علينا، ثم قال: إنا لا ندري من أذن منكم في ذلك ممن لم يأذن، فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمرَكم، فرجعوا وكلمهم عرفاؤهم فأخبروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أنهم قد طلبُوا بذلك وأذنوا.

ومما يتعلق بسَبْي ثقيف وهوازن: أن الشيماء بنت الحارث،

---

(1) : بقلة خضراء ناعمة. ويقصد بها البقية اليسيرة.

(2) : الصحيحان ـ المغازي. [البخاري 3992 ومسلم 1754]. وأحمد رقم: 11305.

كانت ممن وقع في الأسر، فادعت أنها أخت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من الرضاعة، فقال لها صلى اللّه عليه وآله وسلم: وما علامة ذلك؟ قالت: عضة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، فعرف صلى اللّه عليه وآله وسلم العلامة، فمتعها وردها إلى أهلها كما طلبت، وكذلك قدمت عليه مرضعتُه حليمة السعدية يومئذ، وبسط لها ثوبه لتجلس عليه[1].

وفرح صلى اللّه عليه وآله وسلم بإسلام هوازن، وسأل عن مالك ابن عوف، ووعد أن يرد عليه أهله وماله، ويكرمه بمائة من الإبل إن أسلم- ولعله كان يخشى القدومَ لما بدر منه ومن قومه في حصار الطائف- ولكنه اطمأن إلى تأمين رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ووعده، فقدم مسلمًا، فأكرمه صلى اللّه عليه وآله وسلم وأمّره على قومِه وعلى بعض القبائل، فحسُن إسلامه. ومن عجيب صُنع اللّه: أن مالك هذا عاد يقاتل قومَه في الطائف، ويضيق عليهم الخناق، حتى فكروا في الاستسلام خصوصًا وأن الإسلام أحاط بهم فلَم يستطيعوا معه حركة. وأسرع عروة بن مسعود الثقفي وهو من زعمائهم، فلحق برسِول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو في طريقه إلى المدينة بعد قسم الغنائم والعمرة، فأعلن إسلامَه وعاد إلى الطائف شجًى في حُلوق بقايا المشركين، ودعاهم إلى الإسلام فلم يقبلوا، ومن صلابته في دينه: أنه أذَّن للصلاة فوق سطح منزله، فرموه بالسهام فأصابوه، فطلب من قومه أن يدفنوه مع شهداء المسلمين في حصار الطائف[2]، وبقي مشركو الطائف يعانون من الخوف، ويتوقعون الغزو والحصار، حتى أرسلوا وفدًا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في رمضان بعد عودته من تبوك، فلقيهم المغيرة بن شعبة قبل المدينة بيسير، وعلم قصدَهم، فعلَّمهم تحية الإسلام، وأدبَ خطاب الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، وأخبر المغيرة أبا بكر الذي بشر رسول اللّه بقدومهم، فأنزلهم في قبة في ناحية المسجد، ليستمعوا القرآنَ ويشاهدو الصلاة، وأعلنو إسلامَهم، وكتب لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كتابا[3]. ومن الجدير بالذكر: أنهم طلبوا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم مطالب تدل على قلة فهمِهم للإسلام وطبيعته، منها: تأخيرُ هدم (اللاّة) طاغية ثقيف ثلاث سنين، خشية غضب قومهم، فلم يجبهم صلى اللّه عليه وآله وسلم إلا أنه لم يكلفهم هدمَها، وأمر بذلك أبا سفيان، والمغيرة بن شعبة، فذهبوا إليها وباشروا هدمَها. والمشركون يتوقعون أن تثأر لنفسها. ومن الطرائف: أن المغيرة رَمَى مِعوله

---

(1) : هذا الأثر وما قبله رويا بأسانيد ضعيفة وحسنة تكفي لإثبات حدث تاريخي كهذا. انظر الإصابة لابن حجر 16/4.

(2) : رواه ابن هشام (137/2).

(3) : لا تصح رواية الكتاب، وفيه: تحريم وَج، وهو واد بالطائف.

وركض، فقالوا: ثأرت الربة، فضحك منهم، ونصحهم بتوحيد اللّه، وعاد فأنجز عمله، وبذلك سقطت اللاة إلى الأبد، كما سقط غيرُها وللّه الحمد. وطلبوا إعفاءَهم من الصلاة، لأنهم يرونها مَهانة، لما فيها من السجود والركوع للّه تعالى- ونسُوا سجودهم للطواغيت وهي أحجار وأخشاب، فرد عليهم صلى اللّه عليه وآله وسلم: **لا خيرَ في دين ليس فيه ركوع**[1]. وسألوه أن يُسقط عنهم الوضوء، لأن بلادهم باردة، وأن ينتبذوا الدباء (القرْع) وأن يعيد إليهم أبا بكرة الثقفي، (وسبق أنه خرج فارًا إجابة لنداء رسول اللّه العبيدَ أن يخرجوا من الطائف ليحرروا فخرج وحرره صلى اللّه عليه وآله وسلم ولم يُعده إلى قومه) فأبَى عليهم ذلك كله. كما اشترطوا إعفاءَهم من الزكاة والجهاد، فوافقهم صلى اللّه عليه وآله وسلم ظاهرًا، قال جابر بن عبد اللّه: سمعته صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: **سيتصَدَّقون ويجاهدون إذا أسلموا**[2]. ومكث الوفد بالمدينة خمسة عشر يوما، ثم عادوا إلى الطائف ومعهم أبو سفيان، والمغيرة لهَدم اللات. وقد تمت عملية الهَدم، ونساء ثقيف حولها يبكون، وأخذ أبو سفيان ما كان لها من ذَهَب وجَزَع[3]، وكان عثمان بن أبي العاص أحرصَ القوم على تعلم القرآن والتفقه في الدين، وكان أصغرَهم سنًا فأمَّره صلى اللّه عليه وآله وسلم عليهم[4]، وسأل القوم رسول اللّه كثيرًا عن الدين، وسألوا الصحابة عن تقسيم القرآن إلى أحزاب، ومما يدل على صدقهم، أنهم صاموا ما بقي عليهم من شهر رمضان[5].

فوائد وعبر وأحكام من غزوة الطائف

ويستفاد من هذه الغزوة من الفوائد والعبر والأحكام:

1) معرفة أن النصر بيد اللّه وحده، وأنه لا يُنال بكثرة ولا قلة، إنما سبيله: الإخلاص، والصبر، واستنصارُ اللّه تعالى. ففي غزوة بدر: انتصر المسلمون وهم قلة عدداً وظهرًا. وفي هذه الغزوة هُزموا في أولها، ولم تغن كثرتُهم شيئا، ولقّنوا درسًا لم ينسوه. وكان بسبب تهافت الأغمَار التي ما حَضَروا إلا لأجلها. ولولا ثبات الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم ومن معه وهم نحو المائتين من الصابرين المخلصين، لما تم النصر، ونزلت السكينة، وأيدهم اللّه بجُنده، كما قال تعالى في آية التوبة المذكورة.

2) استبراء السبايا قبل الوطء، فقد أذَّن مؤذن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن **لا توطأ حامل حتى تضع، ولا غيرُها حتى**

(1) : رواه ابن هشام (538/4) بسند ضعيف.
(2) : رواه أبو داود (146/2) بسند حسن.
(3) : رواه ابن هشام (541/2) والجزع بالفتح خَرَز فيه سواد وبياض يتزين به النساء. مصباح.
(4) : رواه أحمد في المسند (218/4) ومسلم (342/1).
(5) : رواه ابن هشام (540/2).

يُستبرأ رحمُها بحَيضة. وهؤلاء السبايا كن متزوجات، فبطل زواجهن بوقوعهن في الأسر، وأصبحن من الغنيمة، وفي هذا نزول قوله تعالى: «(والمحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم..)» ﴿النساء، آية: 24﴾.

3) تحريم قتل النساء، والأطفال، والعجزة، والأُجَراء، والعبيد ممن لا يشاركون في القتال. أما إذا شاركوا في القتال: فإنهم يُقتلون مقبلين لا مدبرين، وكذلك إذا تترّس الكفار بهم، ولم يمكن رد ضرَرهم إلا بذلك.

4) جواز خروج النساء مع الرجال في الغزو، لمداواة المرضى، وسقي العطاش، لا للمشاركة في القتال إلا في حالة مداهمة العدو للبلد، فإن الدفاع حينئذ يجب على كل قادر. وقد استأذن النساء رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في الجهاد فلم يأذن لهن، وقال لهن: جهادُكن: الحج كما في السنن. ولما بوّب البخاري على غزو النساء وقتالهن. وروى بعض الأحاديث، تعقبه الحافظ في الفتح بقوله: لم أرَ في شيء من ذلك (أي ما رَوَى من الأحاديث) التصريح بأنهن قَاتَلن. وحديث أم سليم المذكور، وحملها الخنجر، إنما كان للدفاع عن النفس كما صرحت به. وما عمت بهَ البلوَى الآن في كثير من الدول الإسلامية، من تجنيد النساء وتخريجهن ضابطات ونحو ذلك، إنما هو تقليد صرف للنصارى واليهود وتشبّه بهم فيما لا يجوز.

5) جواز اتخاذ العيون (الجواسيس) لمعرفة أحوال العدو وحركاته، وربما كان ذلك واجبا في بعض الأحيان، وقد أمر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عبد اللّه بن أبي حَدْرد الأسلمي بالقيام بذلك في هذه الغزوة، كما سبق.

6) جواز الاستعانة بالمشركين إذا دعت الضرورةُ إلى ذلك. وقد كانت ممنوعة أولا، وقد قال صلى اللّه عليه وآله وسلم لمن عَرض عليه ذلك منهم: اذهب فأنا لا أستعين بمشرك، كما تقدم، ثم استعان صلى اللّه عليه وآله وسلم في هذه الغزوة بأدراع صفوان، ورماح غيره، فدل على الجواز بشرط الثقة، والأمن من الضرر، وعدم سيطرتهم على المسلمين بسبب ذلك.

7) منع المخنثين (وهم من لا إربة لهم في النساء) من الدخول على الأجنبيات، فقد سمع صلى اللّهَ عليه وآله وسلم أحدَهم، ويسمى: هيت، وهو يصف لعبد اللّه أخي أم سلمة: بادية بنت غيلان الثقفي، بأنها تُقبل بأربع، وتُدبر بثمان، حاشا له أن لا تفوتَه، وذلك قُبيل حصار الطائف، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لا يدخُلن هؤلاء عليكن[1]، وذلك احتياطاً للأخلاق، وغيرةً على الحُرُمات.

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 3980.

8) إقامة الحد في الغزو، فقد جَلَد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم شارب الخمر يوم حُنين[1].

9) إعطاء السلب للقاتل، لقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: (مَن قَتَل قتيلاً فله سَلبه)، كما تقدم. وقد حصل هذا، فأخذ صحابة أسلابَ قتلاهم، واختلف: هل يحتاج ذلك إلى إذن الإمام، أم هو عام مطلق؟ والظاهر: العموم.

10) امتلاك المجاهدين للغنائم يكون بعد القَسم. أما قبلَه فهي موكلة إلى نظر الإمام، وتحقيق المصلحة العامة، وهذا في المنقولات، كما تقدم.

11) جواز إعطاء المؤلفة قلوبُهم من الغنيمة قبل القَسم، لاستمالتهم إلى الإسلام، أو دفع أذاهم ومعَرتهم، أو جلب نَفع.

12) تشريع الإحرام بالعُمرة من الجعْرانة، وهي على بعد عشرين كيلو متر من مكة، كما فعل صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد قسم الغنائم، فإنه اعتمر ليلاً، وعاد فبات بالجعْرانة، ولذلك خَفيت هذه العمرة على عبد اللّه بن عمر فأنكرها كما يأتي.

13) رحمة الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم بعباد اللّه، وحرصُه على إنقاذهم ونجاتهم، وإشارته أن الجهاد إنما شُرع لإصلاح الناس، ودعوتهم إلى الخير، لا للانتقام والتفشي والطمع، كما هو دَيدن الإستعمار والمستعمرين، ولذلك امتنع صلى اللّه عليه وآله وسلم من قتل الطُّلقاء، ودعا لثقيف بعد نكايتها في المسلمين، وقد طلب منه الدعاء عليها، فقال: اللهم اهْد ثَقيفا، زاد في رواية: وائْتِ بهم، كما سبق. وقد تقدم أنه طُلب منهَ الدعاء على كفار قريش، وقد أمعنوا في الاضطهاد والتعذيب، فقال: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون، وقال في موقف آخر مبينا سبب امتناعه عن الدعاء عليهم: لعل اللّه يخرج من أصلابهم مَن يُوَحد اللّه ويعبده، أو كما قال.

14) امتناعه صلى اللّه عليه وآله وسلم من تأخير هَدم الطواغيت التي تُعبد من دون اللّه. فبمجرد قدوم هوازن عليه راغبين في الإسلام، أرسل أبا سفيان، والمغيرة لهدم اللاة رغم توسلهم إليه أن يؤخر ذلك خوفا من غضب مشركي الطائف. وهكذا كان صلى اللّه عليه وآله وسلم يفعل متى أمكنته الفرصة. وفي معنى هذا: هدم المشاهد، والأضرحة، والأنصاب المقصودة في بلاد دار الإسلام للاستغاثة بها، وعبادة أهلها بالدعاء، والطواف، والذبح، والنَّذر، ونحوها مما عمَّت به البلوى في العالم الإسلامي، وتمكنت به غربة الإسلام بين أهله. ومن غريب المفارقات ما وقع في أفغانستان من عزم حكومة طالبان هدم تماثيب بوذا المنحوتة في الصخر وقيام العالم بمحاولة منع ذلك، وذهاب وفد ممن يسمون العلماء إلى المسؤولين ثمة لصدهم عن ذلك

(1) : رواه أحمد في المسند (350/4) وأبو داود ـ المغازي رقم: 3891.

بحجة أن ذلك آثار تاريخية؟!

15) فضل الأنصار، وإخلاصُهم وبكاؤهم لخطاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في ذلك الموقف الأثير المؤثِّر، الذي يحتضن فوائدَ وأحكامًا، منها: إقامة الحجة على الخصم وإفحامُه، وحسن أدب الأنصار في المحاورة، وبليغ حيائهم، مع أن الاعتراض إنما حصل من بعض شبابهم الأغرار. ومنها: ثناء الرسول عليهم ذلك الثناء البليغ الذي انفردوا به، ودعاؤه لهم ولأبنائهم وأحفادهم بعد عتابه اللطيف لهم، مما يُغبَطون عليه. ومنها: أمره صلى اللّه عليه وآله وسلم لهم بالصبر، وإخباره لهم أنهم سيَلقَون بعده أثرة، أي استئثارَ الغَير بحقوقهم دونَهم، وفي هذا عَلم من أعلام النبوة، لأنه وقع كما أخبر. ومنها: أنه لا حرج على مَن طلب حقه من الدنيا، وإن للإمام أن يُعطي الغني للتأليف والمصلحة. ومنها: مشروعية الخطبة للحاجة خاصة أو عامة. ومنها: تسلية مَن فاته شيء من الدنيا بما يحصل له بفضل اللّه من ثواب الآخرة، إلى غير ذلك من الفوائد[1].

وممَّا حَدَث بين غزوة حنين وتبوك؛ عمرتُه صلى اللّه عليه وآله وسلم مَن الجعْرانة، هذه العمرة التي أنكرها عبد اللّه بنُ عمر لما ذُكرت عندَه، وقال مولاه نافع: لم يعتمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ولو اعتمر لم يَخْفَ على عبد اللّه[2]. والصواب: أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم اعتمر، والمثبت مقدَّم على النافي. وقد وردت من حديث أنس وابن عباس. والسبب في خفائها على ابن عمر وغيره: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم خَرَج ليلًا معتمرًا، فدخل مكة ليلًا فقَضَى عمرتَه ثم خرج من ليلته فأصبح بالجعرانة كبائت. وفي حديث محرش الكعبي: ومن أجل ذلك خَفيت عمرتُه على الناس[3]. وقد اعتمر صلى اللّه عليه وآله وسلم أربعَ عُمَر، كلهن في ذي القعدة إلا التي كانت مع حجته: عمرة من الحديبية، وأخرى من العام القابل، وثالثة من الجِعْرانة، حيث قَسم غنائمَ حنين، وعمرة مع حجته.

ومما حدث يومئذ: أن رجلًا جاءه صلى اللّه عليه وآله وسلم وهو بالجعرانة، وعلى الرجل جبة عليها خَلوق وأثر صُفرة، فقال للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: كيف تأمرني أن أصنعَ في عمرتي؟ قال: وأنزل على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الوحي، فسُتر بثوب. وكان يعلى بن منَبه راوي الحديث يقول: وددتُّ أني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد أنزل عليه الوحي- قال: فرفع عمر طرف الثوب عنه، فنظرت إليه، فإذا له غطيط قال: أحسبه،

---

(1) : فتح الباري (52/8).
(2) : الصحيحان ـ الحج [البخاري 2911 ومسلم 3129].
(3) : أحمد (رقم: 14966) والترمذي (رقم: 857) عن أنس - وحسنه أبو عيسى.

قال: كغطيط البَكر. فلما سُري عنه قال: أين السائل عن العمرة؟ اغسل عنك الصفرة، أو قال: أثر الخلوق، واخلع عنك جُبتك، واصنع في عمرتك ما أنت صانع في حجتك. وأتى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يومئذ رجل قد عض رجلًا فانتزع يده فسقطت ثنيتا الذي عضه قال: فأبطلها النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: أردتَّ أن تقضمه كما يقضم الفحل(1).

ووقعت قبل تبوك سرايا وأحداث، إلا أن أسانيدَها مدخولة، فلنذكر بعض ما اشتُهر منها مختصرًا.

سرية الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين

فمنها: سرية الطّفيل بن عمرو إلى ذي الكفين: صنم عمرو بن حُمَمَة الدَّوسي ليهدمَه، فذهب إليه في أربعمائة من قومه وهدَّمه وأحرقه، فوافى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالطائف.

إسلام كعب بن زهير

ومنها: إسلام كعب بن زهير بن أبي سُلمَى المزَني، وهو وأبوه شاعران مخضرمان مشهوران، وأبوه صاحب معلقته السائرة، وملخصها: أن بُجَيرًا أخا كعب قدم على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأسلم، فلما بلغ إسلامُه أخاه كعبا، هجاه وهجا النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فأهدر النبي دمه، فكتب إليه أخوه يُعلمه وينصحه بالهَرَب، ثم كتب إليه: أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لا يأتيه أحد مسلمًا إلا قبل منه، فأقبل كعب متسترًا حتى مثل بين يدي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالمسجد فأسلم، وأنشده لاميته الشهيرة ومطلعها: (الطويل)

بانت سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متيم إثرَها لم يُفدَ مكبول

قال موسى بن عقبة في مغازيه: إن كعبا لما بلغ قولَه في لاميته:

إن الرَسولَ لَنور يستضاءُ بـــــه
مهند من سيوف اللّه مسلول
في فتية من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لمَّا أسلموا: زولوا

أشار صلى اللّه عليه وآله وسلم بكفه إلى الخلق ليأتوا فيسمعوا منه، قال أبو بكر ابن الأنباري - كما في المواهب اللدنية للقسطلاني: إن كعبًا لما وصل في إنشاده قوله: إن الرسول لنور يستضاء به، البيت، رمى عليه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بردة عليه، وأن معاوية بذل فيها عشرة آلاف فقال: كعب: ما كنت لأوثر بثوب رسول

(1) : رواه الشيخان [البخاري 2751 ومسلم 1650].

اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أحدًا. فلما مات كعب بعث معاويةُ إلى ورثته: عشرين ألفًا، فأخذها منهم: وهي البردة التي كانت عند السلاطين العثمانيين إلى اليوم، فقال أبو أويس: وما زالت قطعة منها بمتحف (طب كَبي) بإصطنبول إلى الآن. وكان سلاطين بني عثمان يلبسونها تبركًا يوم تتويجهم. قال الحافظ العراقي عن هذه القصة: رويت من طُرُق لا يصح منها شيء[1] وقد رواها ابن إسحاق بسند منقطع. قال الحاكم لما رواها في المستدركِ: هذا حديث له أسانيد، قد جمعها إبراهيم بن المنذر الحزامي وسكتَ عنه الذهبي، وقال ابن كثير في البداية والنهاية[2] عَن رواية إعطاء البني صلى اللّه عليه وآله وسلم بردته لكعب: هذا من الأمور المشهورة جدًا، ولكن لم أر ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فاللّه أعلم. قال أبو اريس: من حيث قصة إسلامه، ونظم قصيدة المديح، يكتفي بتلك الأسانيد المرسلة، ولكن سماع الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم القصيدة، ودعوته الناس إلى سماعها، وخلع البردة على كعب، يحتاج إلى سند صحيح سليم تَثبُت بهَ، لما يؤخذ منها من أحكام.

بعث النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم جباة لجمع الزكاة

ومنها: بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عددًا من جُباة الصدقة: الزكاة إلى جهات مختلفة في مطلع العام التاسع. ذكر ابن سعد في الطبقات[3] وشيخُه الواقدي في المغازي[4] أسماءَهم، وأسماء الجهات التي بُعثوا إليها، ولكن بأسانيد ضعيفة، إلا ابن اللُّتبية الأزدي فقد استعمله النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على الصدقة، وبعثه إلى بني ذبيان، فلما قدم على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالزكاة قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام صلى اللّه عليه وآله وسلم على المنبر، فحمد اللّه وأثنى عليه وقال: ما بال عامل أبعثه فيقول: هذا لكم وهذا أهدي لي، أفلا قَعَد في بيت أبيه، أو بيت أمه، حتى يَنظر أيهدى إليه أم لا، والذي نفس محمد بيده، لا ينال أحد منها شيئًا إلا جاء به يومَ القيامة يحمله على عنُقه، إن كان بعيرًا له رُغاء، أو بقرةً لها خوار، أو شاة تيعر، ثم رفع يديه حتى رأينا عُفرتي إبطيه ثم قال: اللهم هل بلغت؟ مرتين

بعث النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عيينة بن حصن إلى بني العنبر

ومنها: بعث النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عيينةبن حصن إلى

---

(1) : نيل الأوطار للشوكاني (159/2).
(2) : البداية والنهاية 419/4.
(3) : الطبقات 106/2.
(4) : المغازي 973/3.

بني العنبر من تميم، بسبب أنهم أغاروا على ناس أرادوا أداء الزكاة إلى المصدّق، فأخرجوهم من محالّهم، وتحرشوا بهم، فعاد المصدّق وأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بفعلتهم، فبعث إليهم عيينة في خمسين فارسًا، ليس فيهم أحد من المهاجرين والأنصار، فلما وصلوا إليهم ورأوهم، هَرَبوا فأخذ عيينة أحد عشر رجلا، وإحدى عشرة امرأة، وثلاثين صبيًا، وساق الجميع إلى المدينة، فحُبسوا بأمر الرسول بدار رَملة بنت الحارث، فقدم جماعة من رؤسائهم في شأنهم ولما رأتهم نساؤهم وذراريهم بكوا، فعَجلوا وجاؤا باب النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ونادوا: يا محمد يا محمد، اخرج إلينا، فخرج وتعلقوا به يكلمونه، فوقف معهم، ثم مضى وأقام بلال صلاة الظهر فصلى، ثم جلس في صحن المسجد، فتقدم أحدُهم يخطب وأجابه آخر، وفيهم نزل قوله تعالى: «(إن الذين ينادونك وراء الحجُرات أكثرهم لا يعقلون)» ﴿الحجرات، آية: 4) فرد عليهم صلى اللّه عليه وآله وسلم السبي والأسرى[1]. وعلق البخاري عن ابن إسحاق: ما يفيد أن عيينة أصاب منهم ناسًا، وسبى منهم نساء، ويؤيده: ما رواه البخاري مسندًا بعد التعليق السابق عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: لا أزال بني تميم بعد ثلاث سمعتهم من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقولها فيهم: هم أشد أمتي على الدّجّال، وكانت فيهم سبية عند عائشة رضي اللّه عنها فقال: اعتقيها فإنها من وَلد إسماعيل، وجاءت صدقاتهم فقال: هذه صدقات قوم أو قومي. ومنها: قصة إسلام عدي بن حاتم، وذلك أنه في ربيع الآخر من تاسع الهجرة، وصلت خيل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى محلة آل حاتم الطائي، وكان ابنه عدي بعقرب أو عقرباء ـ موضع باليَمامة ـ فبلغه الخبرُ فهَرَب، فأخذ المسلمون عَمَّتَه ـ سُمِّيَت في بعض المصادر: سفانة ـ وناسًا، فلما أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قالت: يا رسول اللّه، نأى الوافد، وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة ما بي من خدمة، فمن عليّ مَنَّ اللّه عليك، فسألها عن وافدها، فقالت: عديَ بن حاتم، فقال: الذي فرَّ من اللّه ورسوله، فمنَّ عليها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وجهّزها، فأتت ابن أخيها عَديًا وهو هارب بالشام، وأخبرته خبرَ الرسول، وطلبت منه أن يأتيه راغبًا أو راهبًا، فأتاه فأسلم، فسُرَّ بذلك النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم[2]. ولنستمعّ إلى عدي نفسه يحكي قصتَه قال: لما بعث اللّه تعالى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فررتُ منه حتى كنت في أقصى أرض المسلمين مما يلي الروم، فكرهتُ مكاني الذي أنا فيه، وقلت: لآتين هذا الرجل، فواللّه إن كان صادقا لأسمعنَّ منه، وإن كان كاذبا ما هو بضائري، قال: فأتيتُه واستشرفني الناس وقالوا:

(1) : علقه البخاري في المغازي رقم: 4018، ورواه ابن سعد في الطبقات (160/2).
(2) : رواه أحمد (الفتح الرباني (189/21) بسند حسن.

عدي بن حاتم، عدي بن حاتم، قال: فقال لي: يا عدي، أسلم تَسلَم، قال: فقلت إني من أهل دين، قالها ثلاثًا، قال: أنا أعلم بدينك منك، قلت: أنت أعلم بديني مني؟ قال: نعم، أليس ترأس قومَك؟ قال: بلى، فذكر محمد الركوسية وقال: ألست من الركوسية؟ (وهي دين النصارَى والصابئين)[1] وأنت تأكل مرباعَ قومك، (المرباع: رُبع الغنيمة. كان الرئيس في الجاهلية يأخذَه وحدَه)؟ قلت: بلى، قال: فإن هذا لا يحل لك في دينك، قال عدي: فلما قالها تواضعتُ لها، قال: وإني أعلم ما الذي يمنعك من الإسلام، تقول: إنما اتبعه ضَعَفَةُ الناس، ومن لا قوةَ له، وخصاصة تراها ممن حَولي، وقد رمتْهم العرب والناس علينا إلبًا واحدًا، هل تعرف الحيرة؟ قلت: قد سمعت بها ولم آتها، قال: لَتُوشِكن الظعينةُ أن تخرجَ منها بغير جوار، حتى تطوف بالكعبة، ولتوشكن كنوز كِسرى بن هُرمُز تُفتَح، قلتِ: كسرى بن هُرمُز؟ قال: كسرى بنُ هُرمُز ثلاث مرات، وليبذلن هَذا المالِ حتى لا يقبله أحَد، أو ليُوشكن أن يَبْتَغي مَن يقبل ماله منه صدقة فلا يجد، قال عدي: فلقد رَأيت اثنين، قد رأيت الظعينةَ تخرج من الحيرة بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وكنتُ في الخيل التي أغارت على المدائنَ، وأيم اللّه لتكونَن الثالثة، إنه لحديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حدثنيه[2]. قال أبو أويس: وقد تحققت الثالثة. فقد ذُكر في مناقب عمر بن عبد العزيز: أن بعضَ عُماله كتب إليه فيما يفعل، ولم يجد بعمالته مَن يقبضُ منه الصدقة، وعدي بن حاتم رضي اللّه عنه هو الذي دَخَل على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في موقفه هذا على ما تقتضيه الحال، وفي عُنقه صليب من ذَهَب، قال: فقال لي صلى اللّه عليه وآله وسلم: يا عدي بن حاتم، ألق هذا الوثَن من عنقك، قال: وانتهيتُ إليه وهو يقرأ سورة البراءة، حتى أتى على هذه الآية «(اتخَذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دون اللّه)» ﴿التوبة،آية: 31﴾، قال: قلت يا رسول اللّه، إنا لم نتخذهم أربابًا، قال: بلى أليس يُحلون لكم ما حُرم عليكم فتحلونه، ويُحَرمون ما أحَل اللّه لكم فتحرمونه؟ فقلت: بلى، قال: تلك عبادتُهم[3].

ومنها: أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم استعمل عبدَ اللّه بنَ حُذافة السهمي على سرية، وأمَرهم أن يطيعوه فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حَطبًا. فجمعوه، وأمرهم فأوقدوه ثم قال: ألم يأمركم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن تسمعوا لي وتطيعوا، قالوا: بلى، قال: فادخُلوها، فنظر بعضُهم إلى بعض وقالوا: إنما فررنا إلى رسول اللّه من النار، فسكن غضبُه، وطفئت النار، فلما قدموا

---

(1) : النهاية لابن الأثير 627/2.
(2) : أحمد في المسند (377/4) وغيره بسند حسن.
(3) : الترمذي في التفسير (رقم: 3020). والطبري (رقم: 16632)، وهو حسن.

علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ذكروا له ذلك فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها، إنما الطاعة في المعروف[1]، وفيه نزل قوله تعالى «(يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)» ﴿النساء، آية: 59﴾.

وذكر علماء المغازي والسيَر عددًا من السرايا وقعت في هذه السنة بين حُنين وتبوك، منها: سرية قطبة بن عامر إلى تَبالة قرب الطائف.

ومنها: سرية الضحاك بن سفيان الكِلابي إلى القرطاء: بطنٍ من بني كلاب.

ومَنها: سرية علي بن أبي طالب إلى فُلْس -صنم بطَيّء- ليهدمه فشنوا الغارةَ على أهله وهدَّموه، وهرب عدي بن حاتم بسبب ذلك إلى الشام.

ومنها: سرية عكّاشة بن محصَن إلى الجناب بقبيلة عُذرة وبَلي. إلى سرايا أخرَى وأحداث وقعت فيها، إلَا أنها جميعها من رواية الواقدي وابنٍ سعد كاتبه عنه وهو متروك، فلذلك أضربنا عن إيرادها مفصلّة.

غزوة تبوك

وفي رجب من صيف عام تسع للهجرة/ق أبريل سنة 630م بعد الانتهاء من الطائف، وما بعده من سَرايا وأحداث بنحو ستة أشهر، وقعت غزوة تبوك أو العُسرة، وهي من أكبر المغازي وأجَلها، وسميت: تبوك باسم المدينة التي تقع شمال الحجاز، وتبعد سبعمائة وثمان وسبعين كيلومتر عن المدينة، وكانت من قبيلة قُضاعة الواقعة تحت سيطرة الروم، لقربها من الشام، كغيرها من القبائل المنتصّرة، والخاضعة لدولة الروم، التي كانت يومئذ في أوْج عظمِتهَا إذ دَحَرت دولة الفرس التي كانت تقاسمها النفوذ وحكمَ العالم المعروف آنذاك. وقع ذلك سنة سبع للهجرة، وذهب هِرَقل من حمص إلَى إيلياء (بيت المقدس) ماشيًا شكرًا لله، وقد فُرِشت له البُسَط والرياحين يمشي عليها حاملا الصليبَ الذي اسْترده من الفُرس. وبعده بسنتين وقعت هذه الغزوة. وقد سمَّى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تبوك فقال لأصحابه وقد قربوا منها: ستأتون غدًا إن شاء الله عينَ تبوك وإنكم لن تأتوها حتى يضحَى النهار، فمن جاءها منكم فلا يمسّ من مائها شيئًا حتى آتي. قال معاذ: فجئناها وقد سبَقَنا إليها رجلان، والعين مثل الشراك (يعني أن ماءها قليل جدا) تبضّ بشيء من الماء، قال: فسألهما رسول الله صلى الله عليه وآله وسَلم هل مسستما من مائها شيئا؟ قالا: نعم، فسَبَّهما النبي

---

(1) : رواه البخاري، الأحكام (رقم: 6612). ومسلم، الإمارة (رقم: 3425).

صلى الله عليه وآله وسلم وقال لهما ما شاء الله أن يقول، قال: ثم غَرَفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، قال: وغسل رسول الله فيه يديه ووجهَه، ثم أعاده فيها، فَجَرَت العين بماء منهمر، أو قال: غزير، حتى استقى الناسُ، ثم قال لمعاذ: يوشك يا معاذ إن طالتِ بك الحياة أن ترى ما هنا قد ملئ جنانا[1]. وفي هذا الحديث علم من أعلام النبوةِ، فعين تبوك ما زالتِ على الآن في منتهى الغزارة، وأصبح ما حول تبوك جنانًا مخضرَّة، وبساتين يسير الراكب بينها مسافة.

وتسمى الغزوة غزوة العُسرة. انتزاعًا من قوله تعالى: «(لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة...)» ﴿التوبة، آية: 117﴾ لأنها وقعت في بدء الصيف، والحر شديد، والأرض قاحلة، والماء قليل، وبلغ المسلمون من الجهد أنهم كانوا يقسمون التمرة بين الرجلين، بل كان النفر يتناولون التمرة بينهم، يمصها هذا، ثم يشرب عليها من الماء، ثم هذا، ثم هذا[2]، ولاشك أن توقيتَ الخروج للغزو في هذا الوقت الصعب، قبل جني الثمار، وجمع المحاصيل، كان بإذن الله تعالى، وليس له من سببٍ وَدَاعٍ إلا الرغبة في إرهاب الأعداء، وبعث الرعب في نفوسهم. وقد بلغ المسلمون من ذلك بعضَ الهدف في غزوةِ مؤتة، إذ أروا الرومَ أنهم قوةٌ يُحسب لها حسابُها، وأنهم على دين وخُلق جعل منهم أمة مرهوبة الجانب، طموحة إلى الفتح والسيطرة، غيرَ هيابة ولا وَجلة مهما كان عدوها قويا، وليسوا كالعرب المتنصرين الخانعين تحَت سيطرتهم. وليس صحيحًا: أن سبب الغزوة عزمُ الروم بقيادة هرَقْل، بعد أن جَمع الجموعَ من الروم والأعراب والعرب الموالين له على غزوهم[3]، ولا أنه كانت للثأر لمقتَل جعفر بن أبي طالب، كما لا صحةَ لما يقال بأن سببها: إشارةُ يهود على المسلمين بالخروج إلى الشام، لأنها أرض المحشر، ومثوَى الأنبياء، تغريرًا بهم لإخراجهم من المدينة. ومواجهة خطر الروم، وأنه نزل في ذلك قوله تعالى: «(وإن كانُوا ليستفزّونك من الأرض ليخرجوك منها)» ﴿الإسراء، آية: 76﴾ والآية مكية[4]. ويلاحظ أن المغازي التي سبقتنا كلها إلا مؤتة كانت توجه إلى مشركي العرب، واليهود، وكذلك السرايا، والصواب: أنها كانتِ تحقيقا لفريضة الجهاد، وغزو الرومِ لأنهم جيران المسلمين، وأولى الناسِ بالدعوة إلى الإسلام، امتثالا لقوله تعالى: «(يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليَجِدُوا فيكم غلظة، واعلموا أن اللّهَ مع المتقين)» ﴿التوبة، آية:

---

(1) : رواه مسلم رقم 706 بتصرف.
(2) : جامع البيان للطبري (55/13).
(3) ابن سعد (155/2) عن الواقدي، وهو متروك. وأوردها اليعقوبي الشيعي في تاريخه بدون سند.
(4) : تفسير ابن كثير (210/5).

123﴾ خصوصًا وأن نظرةَ العرب إلى الروم كانت نظرة إعظام وتهيُّب، يدل على ذلك أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لما كتَب إلى هِرَقْل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام مع دحية الكلبي، اهتم بكتابَ النبي ومَال إلى الإسلام، لولا خوفه من قَومه، وحرصُه على عرشه، ودَعَا جماعة من قريش يتقدمهم أبو سفيان، وسأله في حوار عجيب طويل عن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ودين الإسلام، وطبيعًة الدعوة، فكان مما قال هرَقل: إن كان نبيكم كما تقول فسيملك ما تحت قدميَّ هاتين، وقَال أبو سفيان بعد ذلك: أمر أمرُ ابن أبي كبشة -يعني النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم- إنه يخافَ مَلك بنيَ الأصفر، قال: فما زلتُ موقنا أنه سيظهر حتى أدخل اللّه عَليَّ الإسلام[1]، وقال عمر بن الخطابَ رضي اللّه عنه في حادثة إيلاء النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم من أزواجه سنة ثمان: كان لي صاحب من الأنصار إذا غبتُ أتاني بالخبر، وإذا غاب كنتُ آتيه بالخبَر، ونحن يومئذ نتخوف مَلكا من ملوك غسان ذُكر لنا أنه يريد أن يسيرَ إلينا، وقد امتلأتَ صدورُنا منه، فأتى صاحبي الأنصاري يدق عليَّ البابَ وقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغساني؟ وكان إنما جاءه بخبر الإيلاء. فانظر كيف كانوا يتوقعون غزوَ الروم، ونصارَى العرب، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد فرغ من قمع المشركين، وطردِ اليهود من المدينة وخيبر، كان لا بد وأن يوجه عنايتَه إلى الرومِ النصارَى، وقد مُسخت المسيحية، وفقَدت روحَها، وحُرفت تعاليمُها، واختَلف أهلها في المسيح، وعقدوا لذلك المؤتمرات، واتفق أكثرُهم بإشراف قُسطنطين على أن المسيحَ أحد الأقانيم الثلاثة التي يتكون منها الإله (الأبَ، والإبن، والروحُ القدُس)، وكانت فرقة (المنوفستية، ويسميهم المسلمون: اليعاقبة) تعتقد أن المسيح إله مستقل، ذو طبيعة واحدة، وكانوا بمصر والشام، فاضطهدتهم لذلك إمبراطورية الروم، ونَفَت كثيًرا من رُهبانهم، وفر آخرون، هذا بالنسبة للدين الذي لم يعد هناك فرق بينه وبين الوثنية، أما الدنيا: فقد استشرى الفساد في الحكم، وأرهق الناسُ بالضرائب، واستعبدوا بالظلم والاستبداد، وتحكم الروح الطبقية، فجللّت الناسَ سَحائبُ هذه الظلمات التي بعث اللّه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بالإسلام ليُخرجهُم منها بإذنه، كما نطق القرآن في عدة آيات، ولذلك أمر اللّه بجهاد أهل الكتاب والمشركين، إلا أنه بالنسبة للأولين أمَر بجواز احتفاظهم بدينِهم، نظرًا إلى أصله الصحيح، ورغبة في اهتدائهم إذا أدوا الجزية للمسلمين، وخضَعوا لحكمهم، فقال تعالى: «(قاتلوا الذين لا يؤمنون باللّه ولا باليوم الآخر ولا يُحَرمون ماحرم اللّه ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب

(4) : رواه البخاري في أول الصحيح رقم: 6.

حتى يعطوا الجزية وهم صاغرون)» ﴿التوبة، آية: 29﴾ أما الوثنيون المشركون، فلم يَقبل منهم جزية، بل لا بد أن يُسلموا وإلا قُتلوا، قال تعالى: «(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)» ﴿التوبة، آية: 5﴾. وبهذا التوجه إلى اكتساح النصرانية بالشام، بعد اليهودية والشرك بالجزيرة، يكون الإسلام دَخَل مرحلة جديدة لتحقيق أهدافه في تحرير الإنسان والأرض، وإعلاء كلمة الله، ومطاردة الكفر والظلم، وإرساء قواعد العدل والإنصاف، وكان من دأب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنه قلما يخرج في غزوة وإلا ورَّى بغيرها، يعني يخبر بغير الوجه الذي يقصد، إلا هذه الغزوة، فإنه ذكرها بالإسم، وذلك لبعد الشقة، وشدة الزمان، وكثرة العدو، وقلة الزاد والظهر. قال جابر رضي الله عنه: كان العشرة يعتقبون البعير بينهم، وكان النفر يمصون التمرة ويشربون عليها الماء كما تقدم، وقال عمر رضي الله عنه: خرجنا في قيظ شديد، فنزلنا منزلا أصابنا فيه عطش شديد، حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى إن الرجل لينحر بعيره فيعصر فَرثَه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع لنا، قال: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فرفع صلى الله عليه وآله وسلم يديه فلم يرجعها حتى أظلمت السماء، ثم سَكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر، واستأذنوه صلى الله عليه وآله وسلم في نحر إبلهم للأكل والإدهان فأذن لهم، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله، إن فعلوا قل الظهر ـ وهو قليل ـ ،لكن ادعهم بفضل أزوادهم، فادع الله عليها بالبركة، لعل الله يجعل فيها البركة، قال: نعم، ثم دعا بنطع فبُسط، ثم دعا بفضل الأزواد، فجعل الرجل يجيء بكف ذرةَ، ويجيء الآخر بكف تمر، ويجيء الآخر بكسرة، حتى اجتمع من ذلك في النطع شيء يسير، قال أبو هريرة رضي الله عنه: فحَزرتُه فإذا هو قدر رَبضة العنز، فدعا صلى الله عليه وآله وسلم بالبركة ثم قال: خذوا في أوعيتكم، فأخذوا في أوعيتهم حتى والذي لا إله إلا هو لم يبق في العسكر وعاء إلا ملأه، وأكل القوم حتى شبعوا، وفضلت فضلة، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غيرَ شاكٍ فيهما فيحجبَ عن الجنة[1]. وقد تجاوز عدد المجاهدين ثلاثين ألفا، ولم يجتمع مثل هذا العدد من قبل فكانت هذه الغزوة آخر المغازي، استخلف النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيها على المدينة علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، تخلفني

(1) : رواه مسلم رقم: 39.

في النساء والصبيان؟ فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: أما ترضى أن تكونَ مني بمنزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي بعدي[1]. واستنفر اللّه تعالى المؤمنين للخروج، ووعدهم خيرًا كثيرا، كما عاتب المتثاقلين فقال: «(يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل اللّه تثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة، وما متاع الدنيا في الآخرة إلا قليل)» ﴿التوبة، آية 28﴾، وقال: «(انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل اللّه، ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون، ولو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون باللّه لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم، واللّه يعلم إنهم لكاذبون)» ﴿التوبة، آية 41﴾ فلا غرو أن يسارع المسلمون إلى الخروج امتثالا لأمر اللّه تعالى، ورغبة فيما عنده، ويتسابقوا في التجهيز والنفقة والإيثار بشكل لم يسبق له نظير، ولم يتخلف إلا الأعراب والمنافقون، ومَن عَذر اللّه تعالى سوى ثلاثة لم يكن لهم عذر كما يأتي. ومن مواقفهم، رضي اللّه عنهم، في ذلك: أن أبا خيثمة الأنصاري قال: تخلفت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فدخلت حائطا لي، فرأيت عريشا قد رُش بالماء، ورأيت زوجتي فقلت: ما هذا بإنصاف، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في السموم والحرور، وأنا في الظل والنعيم، فقمت إلى ناضح لي وتمرات فخرجت، فلما طلعت على العسكر ورآني الناس، قال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: كن أبا خيثمة فجئت فدعا لي[2]. وجاء الأشعريون - على رأسهم أبو موسى الأشعري - يطلبون من النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الظهر، فاعتذر إليهم، ولم يحصل لهم إلا ستة من الإبل. وبلغ الأمرُ ببعض الفقراء حد البكاء شوقا إلى الجهاد، والخروج مع رسول اللّه، ورغبة في الشهادة، وتحرجًا من القعود حتى سموا البكائين. ومنهم عُلبة بن زيد الذي كان يصلي من الليل ويبكي، وسُمع يدعو ويقول: اللهم إنك قد أمرتَ بالجهاد، ورغَّبت فيه، ولم تجعل عندي ما أتقوَّى به مع رسولك، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في جسد أو عرض، فأخبره النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أنه قد غُفر له[3]. وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا للّه ورسوله ما على المحسنين من سبيل واللّه غفور رحيم ولا على الذين إذا ما آتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا، ألّا يجدوا ما ينفقون)» ﴿التوبة، آية: 91﴾. وقد طيب صلى اللّه عليه وآله وسلم خاطر هؤلاء المعذورين، ممّن حسُنت نياتُهم، وتنامت أشواقهم

---

(1) : رواه البخاري - المغازي رقم: 4064.
(2) : رواه مسلم رقم: 4973 - انظر الفتح (17/8).
(3) : الإصابة لابن حجر (546/4).

بقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم عندما خرج: إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم، قالوا: يا رسول اللّه وهم بالمدينة؟ قال: وهم بالمدينة، حبَسهم العذر[1]. أما المنافقون والأعرابِ منهم، فقد أبدوا صفحتَهم، وأعلِنوا بنفاقهم، وجاسوا خلال الديار يثبطون الناسَ، ويشيعون بينهم قالةَ السوء، وخرج بعضُهم مع المسلمين للغزو، للتخذيل والكيد والإرجاف، واستأذن بعضهم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم في التخلف معتذرين، فأذن لهم، فنزل في ذلك قوله تعالى: «(فَرِح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول اللّه وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل اللّه وقالوا لا تنفروا في الحر، قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون، فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون، فإن رجعك اللّه إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبدا ولن تقاتلوا معي عدوا إنكم رضيتم بالقعود أول مرة، فاقعدوا مع الخالفين، ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره، إنهم كفروا باللّه ورسوله وماتوا وهم فاسقون، ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد اللّه أن يعذبهم بها في الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون، وإذا أنزلت سورة أن آمنوا باللّه وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون، لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم أولئك لهم الخيرات، وأولئك هم المفلحون، أعد اللّه لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم، وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا اللّه ورسوله، سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم)» ﴿التوبة، آية: 81.. 90﴾. ووصف اللّه منافقي الأعراب بقوله تعالى: «(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل اللّه على رسوله)» ﴿التوبة، آية: 97﴾، وقوله تعالى: «(وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم)» ﴿التوبة، آية: 101﴾. وهكذا تكون سورة التوبة التي احتضنت هذه الآيات وغيرها تسمى الفاضحة، لأنها كشفت القناع عن أحوالهم وأفاعيلهم، وعرفهم المسلمون بسيماهم، فعاملوهم عَلى ضوء هذه الآيات، فامتنع صلى اللّه عليه وآله وسلم من الصلاة على موتاهم، وكان صلى على عبد اللّه بن أبَى بن سَلول رأس المنافقين، مراعاة لابنه المسلم، فأنزل اللّه تعالى: «(ولا تصَل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقُم على قبره)» ﴿التوبة، آية: 84﴾ كما امتنع صلى اللّه عليهِ وآله وسلم من الصلاة بمسجد الضّرار الذي بناه المنافقون قبيلَ الغزوة، زاعمين أنهم فعلوا توسعة على المسلمين، وهم إنما

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4071.

أرادوا به التفرقة والإضرار بالمسلمين، والكيد لهم، وأمرصلى اللّه عليه وآله وسلم بحَرقه، ونزل فيه قوله تعالى: «(والذين اتخذوا مسجدًا ضرارا وكفرًا وتفريقًا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب اللّه ورسولهَ من قبل، وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى، واللّه يشهد إنّهم لكاذبون، لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه، فيه رجال يحبون أن يتطهروا، واللّه يحب المطّهرين)» ﴿التوبة، آية: 107﴾. وأمر اللّه تعالى بالإنفاق في سبيل اللّه، وحث رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على النفقة، ووعد المنافقين أجرًا عظيمًا، فضرب المسلمون أغنياؤهم وفقراؤهم أروع الأمثلة في الإيثار، والسخاء بالموجود، مما يعز نظيره في غيرهم، فما أن سمعوا الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: من جهّز جيش العُسرة فله الجنة حتى تسابق المسلمون في أريحية فريدة، فجاء عثمان بن عفان رضي اللّه عنه بألف دينار ذهبًا، فصبّها في حجر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والنبي يقول: ما ضر ابنَ عفان ما عمل بعدَ اليوم، ورددها صلى اللّه عليه وآله وسلم مرارًا[1]، وشارك زيادة على هذا بإبل وعَتاد، وأنفق عبد الرحمن بن عوف أربعة آلاف درهم، وهي نصف أمواله يومئذ[2]، وآثر الفقراء على أنفسهم وأولادهم ابتغاء مرضاة اللّه، فجاهدوا بجهد المقل. قال أبو مسعود الأنصاري رضي اللّه عنه: لما أمرنا بالصدقة، كنا نتحامل، فجاء أبو عقيلٍ بنصف صاع، وجاء إنسان بأكثر منه، فقال المنافقون: إن اللّه لغني عن صدقة هذا، وما فعل هذا الآخر إلا رياءً، فنَزَل قوله تعالى «(الذين يَلمزون المطوّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهَدهم فيسخرون منهم سخر اللّه منهم ولهم عذاب أليم)» ﴿التوبة، آية: 79﴾.

وأشرنا فيما تقدم إلى أن المتخلفين عن هذه الغزوة، لم يكونوا إلا المنافقين والمعذورين من المرضَى، والعجزة، والأطفال، والنساء. إلا ثلاثة تخلفوا دون عذر، وهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع العَمري، وهلال بن أمية الواقفي من الأنصار، المعروفين بصلابة دينهم، وقصتهم كانت فلتة، وقاهم اللّه شرّها، وأظهر من خلالها من مواقف إيمانهم، وآثار يقينهم ما انطوى على أجل الفوائد، وأجمل العَوائد. فَلنستمع إلى كعب بن مالك رضي اللّه عنه يحكي قصته في سياق غاية في الصدق والبلاغة، قال: لم أتخلف عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غيرَ أني قد تخلفتُ في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلف عنه، وإنما خرج رسول اللّه والمسلمون يريدون عيرَ قريش، حتى جمع اللّه بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُّ مع رسول

---

(1) : رواه أحمد في المسند (53/5) والترمذي في المناقب رقم: 19713، وهو حسن.
(2) : جامع البيان للطبري 383/14 في تفسير الآية.

اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ليلةَ العَقَبة (يعني عقبة منًى، حيث بايع الأنصارُ فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على الإسلام، وأن يأووه وينصروه، وقد تقدمت) حين تواثقنا (يعني تعاهدنا) على الإسلام، وما أحب أن لي بها مشهدَ بدر، وإن كانت بدر أذكرَ في الناس منها. وكان من خبري حين تخلفت عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلفت منه في تلك الغزوة. واللّه ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتها في تلك الغزوة، فغزاها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومَفازًا (أرض مخوفة قليلة الماء) واستقبل عدوًا كثيرًا، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم (يعني يستعدوا ويتزودوا زادًا وسلاحًا) فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كثير، لا يجمعهم كتاب حافظ (يعني لكثرتهم لا يحصيهم ديوان) فقلَّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيُخفي له، ما لم ينزل فيه وحي من اللّه تعالى، وغزا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فإنا إليها أصعَر (يعني أميل) فتجهز رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم فأرجعُ ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر الناس بالجد، فأصبح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم غاديا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي شيئًا، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقض شيئا، فلم يزل ذلك يتمادَى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو (يعني خرج الغزاة وسبَقوا) فهممتُ أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يقدَّر ذلك لي، فطفقتُ - إذا خرجتُ في الناس بعد خروج رسول اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وسلم يُحزنني أني لا أرى إسوةً إلا رجلا مغموصا عليه النفاق (يعني متهمًا به) أو رجلًا ممن عذر اللّه من الضعفاء، ولم يذكرني رسول اللّه حتى بلغ تبوكًا، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك؟ قال رجل من بني سَلمة: يا رسول اللّه، حسبه بُرداه والنظرُ في عطفيه (يعني في جانبَيه، والمراد: إعجابه بنفسه وَزِيِّه)، فقال له مَعاذ بن جبل: بئس ما قلت، واللّه يا رسول اللّه، ما علمنا عليه إلا خيرًا، فسكت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضًا (يعني لابس بياض) يزول به السراب (يعني يظهر ويتحرك، والسراب ما يظهر في العراء والحر كأنه ماء) فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : كن أبا خَيثمة، فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون، قال كعب: فلما بلغني أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد توجه قافلا (يعني راجعا) من تبوك، حضرني بَثِّي (يعني حُزني) فطفقتُ أتذكر الكذب وأقول: بِمَ أخرج

من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك كل ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد أظل قادمًا (يعني قَرُبَ وصوله) زاحَ عني الباطلِ (يعني زال) حتى عرفتُ أني لن أنجو منه بشيء أبدًا، فأجمعتُ صدقه (يعني عزمتُ على الصدق) وأصبح رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قادمًا، وكان إذا قَدم من سَفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلما فعل ذلك، جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه، ويَحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقَبل منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووَكَل سرائرَهم إلى اللّه، حتى جئتُ، فلما سلمتُ تبسّم تبسم المغضب ثم قال: تعالَ، فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن ابتعتَ ظهرك؟ قلت: يا رسول اللّه إني واللّه لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لرأيتُ أني سأخرج من سَخَطه بعذر، ولقد أعطيتُ جَدَلا (يعني براعةً وفصاحةً وقوة في المناظرة) ولكني واللّه لقد علمتُ لئن حدثتك اليومَ حديثَ كذب تَرضى به عني، ليوشكن (يعني يُسرعن) اللّه أن يُسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجَد عليّ فيه (يعني تغضب) إني لأرجو فيه عُقبَى اللّه (يعني خيرًا ونَجاة) واللّه ما كان لي عذرٌ، واللّه ما كنت قط أقوى، ولا أيسرَ مني حين تخلفتُ عنك، قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: أما هذا فقد صَدقَ، فقُم حتى يقضي اللّه فيك، فقمتُ، وثار رجال من بني سلمة فاتّبعوني فقالوا لي: واللّه ما علمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، لقد عجزتَ في أن تكون اعتذرتَ إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بما اعتذر إليه المخلّفون، فقد كان كافيك ذنبك استغفارُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لك، قال: فواللّه ما زالوا يؤنبونني (يعني يلومونني أشدَّ اللوم) حتى أردتُّ أن أرجع إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأكذّبَ نفسي، قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثل ما قلتَ، فقيل لهما ما قيل لك، قلت: مَن هما؟ قالوا: مُرارةُ بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي، قال: فذكروا لي رجلين صالحين، قد شهدا بدرا، فيهما إسوة، قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي، قال: فاجتَنَبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت لي في نفسي الأرضُ، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا (يعني خضعا) وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدَهم (يعني أصغرهم وأقواهم)، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأسَلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاة نَظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوَه أعرضَ عني، حتى إذا

طال ذلك علي من جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسورتُ (يعني علوتُ السّور) جدارَ حائط (بستان) أبي قتادةٍ ـ وهو ابن عمي ـ وأحب الناس إلي، فسلمت عليهَ فواللّه ما رد عليَّ السلامَ، فقلت له: يا أبا قتادة أنشدُك اللّه، هل تعلم أني أحبُّ اللّه ورَسوله؟ قال: فسكتُ، فعدتُ فناشدته، فسكت، فعدتُ فناشدته فسَكت فقال: اللّه ورسُوله أعلم، ففاضت عيناي، وتوليتُ حتى تسورت الجدار، فبينما أنا أمشي في سوق المدينة إذا نَبطي من نَبط أهل الشام (يعني العَجَم الفلاحين) ممن قدم بالطعام يبيعُه بالمدينة يقول: من يدل على كعب بن مالك؟ قال: فطفق الناسُ يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدَفع إلي كتابًا من مَلك غسّان، وكنت كاتبا، فقرأته فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبَك قد جَفَاك، ولم يجعلك اللّه بدار هَوَان ولا مَضيَعة (يعني أن لا يضيع حقك في أرضك) فالحق بنا نُواسك، قال: فقلت حين قرأتها: وهذه أيضا من البلاء، فتيامَمتُ (قصدَت) بها التنور (الفرن) فسجرتُها بها (أحرقتها) حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، استلبث الوحي (يعني تأخر) إذا رسول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يأتيني فقال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا بل اعتزلها فلا تقربها، قال: فأرسل إلى صاحبيَّ بمثل هذا، قال: فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي اللّه في هذا الأمر، قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقالت له: يا رسول اللّه، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربنك، فقالت: إنه واللّه ما به حركة إلى شيء، واللّه ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لي بعضُ أهلي: لو استأذنتَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمه، قال: فقلت: لا أستأذن فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وما يُدريني ماذا يقول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إذا استأذنتُه وأنا رجل شاب، قال: فلبثت بذلك عشرَ ليال، فكمُل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا، قال: ثم صليت صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا، فبينما أنا جالس على الحال التي ذكرَ اللّه عز وجل منا، قد ضاقت عليِ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحُبت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفى على سَلع (اسم جبل) يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك أبشر، قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أن قد جاء فَرج، قال: فآذن رسوَل اللّه (يعني أعلن) بتوبة اللّه علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناسُ يبشروننا، فذهب قبَل صاحبيّ مبشرون. ورَكَض رجل إليَّ فرسًا، وسَعَى ساع من أسلم (يعني قبيلة) قبَلي، وأوفى الجبل، فكان الصوتُ أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت

صوتَه بشرني، نزعتُ له ثوبيَّ فكسوتُهما إياه ببشارته، واللّه ما أملك غيرَهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستُهما، فانطلقتُ أتأمم (أقصد) رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يتلقاني الناسُ فوجًا فوجًا، يهنئونني بالتوبة ويقولون: لتهنك توبةُ اللّه عليك، حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم جالس في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيد اللّه يهرول حتى صافحني وهنأني، واللّه ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها له، قال كعب: فلما سلمتُ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: وهو يَبرُق وجهُه من السرور ويقول: أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك، قال فقلت: أمن عندك يا رسول اللّه أم من عند اللّه؟ فقال: لا بل من عند اللّه، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم إذا استنار وجهه، كأن وجهه قطعةُ قمَر، قال: وكنا نعرف ذلك، قال: فلما جلست بين يديه قلت: يا رسول اللّه، إن من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى اللّه وإلى رسوله، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: أمسك بعضَ مالك، فهو خير لك، قال: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت: يا رسول اللّه، إن اللّه إنما أنجاني بالصدق. وإن من توبتي أن لا أحدّث إلا صدقًا ما بقيتُ، قال: فواللّه ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه اللّه (يعني أنعم عليه) في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني اللّه به، واللّه ما تعمدت كذبة منذ قلت لرسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني اللّه فيما بقي، قال فأنزل اللّه عز وجل: «(لقد تاب اللّه على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعدما كاد تزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن اللّه هو التواب الرحيم، يا أيها الذين آمنوا اتقوا اللّه وكونوا مع الصادقين)» ﴿التوبة، آية: 117..119﴾ وقال كعب: واللّه ما أنعم اللّه علي من نعمة قطُّ بعد إذ هداني للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن لا أكون كذبتُه فأهلك، كما هلك الذين كذبوا. إن اللّه قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، وقال اللّه: «(سيحلفون باللّه لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم إنّهم رجس ومأواهم جهنم، جزاء بما كانوا يكسبون، يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن اللّه لا يرضى عن القوم الفاسقين) ﴿التوبة، آية: 95-96﴾ قال كعب: كنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبل منهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين حلفوا له، فبايَعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم أمرنا حتى قضى اللّه فيه،

فبذلك قال اللّه عز وجل: «(وعلى الثلاثة الذين خلفوا)» وليس الذي ذكر اللّه مما خلفنا تخلّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاءه أمرنا (يعني تأخيره) عمن حَلَفَ له، واعتذر إليه، فقبل منه[1].

وخرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يوم الخَميس وكان يحب أن يخرج يوم الخميس، وَوَزَّعَ صلى اللّه عليه وآله وسلم الرايات على عدد من الصحابة، واللواء الأعظم أعطاه أبا بكر الصديق رضي اللّه عنه وتردد على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كثير من المنافقين يعتذرون ويحلفون على أعذارهم كاذبين، فكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقبل منهم علانيتَهِم كما تقدم، وعاتبه ربه على ذلك فقال تعالى: «(عفا اللّه عنك لم أذنتَ حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين)» ﴿التوبة، آية: 43﴾. ومن طرائف الاعتذار الكاذب: اعتذار الجد بن قيس، فقد جاء أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال له: يا جَد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر، فقال: يا رسول اللّه، أو تأذن لي ولا تفتني، فواللّه لقَد عرفَ قومي أنه ما من رجل أشد عُجبًا بالنساء مني، وإني أخشَى إن رأيتُ نساءَ بني الأصفر أن لا أصبر، فأعرض عنه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: لقد أذنتُ لك (يعني في التخلف) وفيه نزل قوله تعالى: «(ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنم لمحيطة بالكافرين)» ﴿التوبة، آية: 49﴾[2]. وعندما أبطأ بعير أبي ذر الغفاري رضي اللّه عنه لم ينتظره، وقد خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمون، بل حَمَلَ زادَه وخرج ماشيا في أثرهم، وعندما نزل رسول اللّه بأحد المنازل، رئي أبو ذر على بُعد يمشي وحده، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: كن أبا ذر، فعندما وَصَل كان أبا ذر، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: رحم اللّه أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده. وكذلك كان، فعندما أنكر على عثمان ابن عفان رضي اللّه عنه في خلافته، نفاه إلى الربَذة فمَكث بها، ومرض، واحتضر، ولم يكن معه إلا امرأته وغلامه، فأوصاهما أن يغسلاه ويكفناه ويضعاه على الطريق ليدفنه المارَّة. واتفق أن مر في يومه ابنُ مسعود رضي اللّه عنه مع جماعة من العراقيين معتمرين، وكادت إبلهم تطأ الجنازة، فأخبرهم غلامُه أنه أبو ذر صاحبُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، واستعانهم على دَفنه، فبكى ابنُ مسعود وقال: صدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إذ قال له: تمشي وحدك، وتموت وحدك، وتبعث وحدك[3]. ويروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم خطب في تبوك في المسلمين

---

(1) : رواه البخاري - المغازي رقم: 4309.
(2) : رواه الطبري في تفسيره (287/14) بأسانيد مرسلة وله طرق عند غيره.
(3) : رواه الحاكم في المستدرك (50/3) وصححه وسكت عنه الذهبي، ورواه أحمد (الفتح الرباني) (374/22) وحسنه ابن كثير في البداية (10/5).

خطبة طويلة، ولكنها لا تصح.

ووقعت أحداث في أثناء الأيام العشرين التي أقامها الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم والمسلمون في تَبوك منتظرين الرومَ دونِ أنِ يقدم أحد لا منهم ولا من الأعراب أو العرب المنتصرين، بل قذف اللّه في قلوبهم الرعب، فقعدوا، وقبَل صلى اللّه عليه وآله وسلم من أمراء القُرى والمدن: الصلح على الجزية، منهم: أُكَيدر بن عبد الملك الكندي ملك دُومة الجندَل، حيث أرسل إليه النبيَ صلى اللّه عليه وآلَه وسلم خالد بن الوليد في سرية من أربعمائة وعشرين فارسًا. ووصف صلى اللّه عليه وآله وسلم لخالد هيئَته التي يجده عليها، فوجده خالد كذلك يصيد البقر خارج حصنه، وعليه قباء من حرير، تعجب المسلمون من حسنه، فأهداه لما قدم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن معاذ في الجنةِ أحسنُ من هذا[1]، وكان من ديباج منسوجًا بالذهب، ولما كان لبس ذلك حرامًا، دفعها النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم هدية إلى عمر رضي اللّه عنه، فكساها عثمان بن حَكيم بمكة. وكان مشركًا، وكذلك وصلت إلى النبي هدية من أيلة (تسمى الآن العَقَبة بالأردُن) واسمه يُحنّة بن رؤبة، وهي بغلة بيضاء وبُرُد، وصالحه على الجزية، كما صالح غير هؤلاء من أهل تلك النواحي على الجزية[2]. وتخلف رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ذات ليلةٍ عن صلاة الفجر لحاجة، فلما وصل إلى المكان، وجد المسلمون قدَّموا عبد الرحمن بن عوف إمامًا، ودَخلوا في الصلاة فائتم به صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى أكمل صلاتَه[3]. وقفل صلى اللّه عليه وآله وسلم راجعًا منتصرًا غانمًا، وشكى المسلمون إلى الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم ما بظهرهم (يعني الإبل) من الجهد، فتحَين بهم مَضيقًا (يعني سار بهم في مكان ضيق) وقال: مروا باسم اللّه، فمر الناس والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ينفخ بظهرهم ويدعو ويقول: اللهم احملهم عليها في سبيلك، إنك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابسِ، في البَر والبحر[4]. قال فَضالة بن عبيد الأنصاري فما بلغنا المدينة حتى جعلت تنازعنا أزمتَها (يعني تغلبنا بسرعتها) وقال: هذه دعوة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على القوي والضعيف، فما بال الرطب واليابس، فلما قدمنا الشام، غزونا غزوة قُبرُس في البحر زمنَ معاوية، فلما رأيت السفن وما يُدخل فيها، عرفتُ دعوة النبي صلى اللّه عليه وآله

(1) : رواه الترمذي ـ المناقب رقم: 3782، وابن هشام (432/4) وهو في الإصابة لابن حجر (413/1) وهو حسن بطرقه.
(2) : ابن هشام (230/3)
(3) : رواه مالك في الموطأ (157/1) ورواه مسلم (230/1).
(4) : رواه أحمد في المسند (20/69) بسند جيد.

وسلم (يعني قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم في دعائه: وعلى الرطب واليابس في البَر والبحر.

ومر المسلمون في طريقهم بالحجْر، وهي في ديار ثمود التي أهلك اللّه أصحَابَها عندما عقروا النَاقة، وعتوا أمر ربهم، فأخذتهم الصيحة، وقَلبت دُورَهم عاليَها سافلها، وأمطرهم اللّه حجارةً من سجين (يسمى الحجر اليومَ بمدائنِ صالح، قربَ المعَلا بين المدينة وتبوك). وما زالَ آثار العذاب ماثلا يبعث الرهبة والأسى في النفوس، وقد سارع المسلمون إلى دخول تلك البيوت المنحوتة في الحجارة المقلوبة، فنهاهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقال: لا تدخلوا مساكنَ الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبَكم ما أصابَهم، إلا أن تكونوا باكين، ثم قنّع رأسَه، وأسرع السَيَر حتى أجازَ الوادي[1]، ونهاهم صلى اللّه عليه وآله وسلم عن شرب ماء بئرها أو الوضوء منها، وأمر أن يعلّفوا إبلهم ما عَجَنوه من مائها، وقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: لا تسألوا الآيات، (يعني: لا تقترحوا المعجزات) فقد سألها قوم صالح فكانت ترد من هذا الفج وتصدُر من هذا الفَج (يشير إلى ناقة صالح) فعتوا عن أمر ربهم فعقروها، وكانت تشربُ ماءَها يومًا، ويشربون لبنَها يومًا، فعقروها فأخذتهم صيحة، أهمد اللّه مَن تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحدًا كان في حرم اللّه، قيل: من هو يا رسول اللّه؟ قال: هو أبو رِغال. فلما خرج من الحَرَم أصابه ما أصاب قومَه[2].

وفي طريق العودة، حاول جماعة من المنافقين: اغتيالَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بتنفير دابته في رأس ثنية صعبة، وهم ملثمون في الليل لتطرحه، فشعر صلى اللّه عليه وآله وسلم بمؤامرتهم، وأمر بإبعادهم[3]، وبدت من المنافقين يومئذ أقوال تنم عما في قلوبهم من كفر وضغينة، منها: أن رجلا معروف النفاق، أقبل عليه المسلمون وقد أمْطروا بدعوة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم كما مر، وقالوا لهَ طمعًا في إقناعه بصدق رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: ويحك، هل بعد هذا شيء؟ فقال: سحابة مارة[4] وضلت ناقة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وعنده عمارة بن حزم، وكان عقبيًا بدريًا، وفي رحله: زيد بن اللُّصيت فقال: أليس محمد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمارة وهو عنده: إن رجلا قال: هذا محمد يخبركم أنه نبي، ويزعم أنه يخبركم بأمر السماء، وهو لا يدري أين ناقته، وإني واللّه لا أعلم إلا ما

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4067.
(2) : رواه أحمد في المسند (296/4) بسند صحيح.
(3) : رواه مسلم رقم: 2144.
(4) : رواه ابن هشام (528/2) ودلائل البيهقي (232/5) بسند حسن.

علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شِعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا فجاؤوا بها، ورجع عمارة إلى رَحله، وأخبر القوم بقول رسول الله عن الناقة، وقول المنافق، فأخبر رجل أن الذي قال ذلك هو زيد، فأقبل عمارة يَجَأ في عنقه (يطعنه في عنقه) ويقول: إليَّ عبادَ الله، إن في رَحلي لداهية (مصيبة) وما أشعر، أخرج عدوَّ الله من رَحلي فلا تصحبني[1].

ومن الآيات التي وقعت: ما حدث به أبو حميد الساعدي، أنهم أتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على وادي القرى، فدخلوا حديقة امرأة، فأمر صلى الله عليه وآله وسلم بخرص تَمرها، فخرُص وقال للمرأة: أحصيها حتى نرجع إليك إن شاءِ الله عز وجل، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: ستهُب عليكم الليلةِ ريح شديدة، فلا يقُم فيها أحد منكم، ومن كان له بعير فليشُدَّ عقاله. فهبت الريح فقام رجل فحملته الريح حتى ألقتْه بجبل طيءَ، وجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ابن العَلْمَاء صاحب إيليا (بيت المقدس) وقام صلى الله عليه وآله وسلم في مسيره هذا من الليل يصلي، فاجتمع وراءه رجال من أصحابه يحرسُونه، حتى إذا صلى وانصرف إليهم قال لهم: لقد أعطيتُ الليلة خمسًا ما أعطيهن أحد قبلي. أما أنا فأرسلتُ إلى الناس كلهم عامة، وكان قبلي إنما يرسل إلى قومه، ونصرتُ على العدو بالرعب، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئوا منه رُعبا، وأحلت لي الغنائمُ آكلها، وكان من قبلي يعظمون أكلها كانوا يُحرقونها، وجُعلت لي الأرض مساجدَ وطهورًا، أينما أدركتني الصلاة تمسحتُ وصليت، وكان مَن قَبلي يعظمون ذلك، إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيَعهم، والخامسة هي ما هي؟ قيل لي سل: فإن كلَّ نبي قد سأل، فأخرت مسألتي إلى يوم القيامة، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلا الله[2].

ومما حدث في هذه الغزوة: أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قمت من جوف الليل وأنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، فأتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين قد مات، وإذا هم قد حفروا له ورسول الله في حفرته، وأبو بكر وعمر يُدليانه، وإذا هو يقول: أدنيا إليَّ أخاكما فدلياه إليه فلما هيأه لشقه، قال: اللهم إني قد أمسيتُ راضياً عنه فارْضَ عنه. قال ابن مسعود: يا ليتني كنتُ صاحبَ الحفرة. قال ابن هشام: وإنما سُمي ذا البجادين لأنه كان يريد الإسلام فمنعه قومه، وضيقوا عليه حتى خرَج من بينهم وليس عليه إلا بجاد -وهو

---

(1) : رواه ابن هشام (522/2) والبيهقي في الدلائل (232/5) بسند صحيح.
(2) : رواه أحمد في المسند (222/2) بسند صحيح.

كساء غليظ- فشقه اثنين، ائتزر بواحد، وارتدى بآخر، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فسُمّي ذا البجادين[1].

وورِدت روايتان تفيدان أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعث رسولا ثانيًا بعد دحية الكلبي كما سبق، وكان هذه المرة من تبوك إلى قيصر، فقالَ صلى الله عليه وآله وسلم: من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة؟ فقال رجل من القوم: وإن لم يُقتلِ؟ قال: وإن لم يُقتل، فانطلق الرجل به، فوافق قيصرَ وهو يأتي بيت المقدس، قد جُعل له بساط لا يمشي عليه غيرُه (سبقت الإشارة إلى هذا) فرمى بالكتاب على البساط وتنحى، فلما انتهى القيصرُ إلى الكتاب، أخذه ثم دعا رأس الجاثَليق (رأس الأساقفة) وأمره فقال: ما علمي في هذا الكتاب إلا كعلمك، فنادى قيصر: من صاحب هذا الكتاب؟ فهو آمن، فجاء الرجل فقال له: إذا قدمت (يعني حمص) فائتني، فلما قدِم أتاه، فأمر قيصر بأبواب قصره فغُلقت، ثم أمر مناديًا فنادى: ألا إن قيصرَ تَبع محمدا، وترك النصرانية، فأقبل جنده وقد تسلحوا حتى أطافوا بقصره، فقال لرسول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: قد ترى إني خائف على مملكتي، ثم أمر مناديًا فنادى: ألا إن قيصر قد رضي عنكم، وإنما اختبركم لينظر كيف صبرُكم على دينكم، فارجعوا، فانصرفوا، وكتب قيصر إلى رسول الله: إني مسلم، وبعث إليه بدنانير، فقال صلى الله عليه وآله وسلم حين قرأ الكتاب: كذب عدو الله ليس بمسلم، وهو على النصرانية، وقسَم الدنانير[2]. وفي رواية أحمد، وردت هذه السفارة بأبسط من هذه، عن سعيد بن أبي راشد قال: لقيتُ التَّنُوخي رسول هرقل إلى رسول الله بحمص، وكان جارًا لي شيخًا كبيرًا قد بلغ الفنَد (يعني الهَرَم) فقلت: ألا تخبرني عن رسالة هرقل إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورسالته صلى الله عليه وآله وسلم إلى هرقل؟ قال: لي، لما قدم رسول الله تبوك، بعث دحية الكلبي إلى هرقل، فلما وافاه بكتابه، دَعَا قسيسي الروم وبطارقَتَها، ثم أغلق عليهِ وعليهم بابًا فقال: قد نزل هذا الرجل حيث رأيتم، وقد أرسل إليَّ يدعوني إلى ثلاث خصال: الأولى، أن أتبعه على دينه، الثانية، أو أعطيه مالنا على أرضنا -والأرض أرضنا-، الثالثة، أو نلقي إليه الحرب، والله لقد عرفتم فيما تقرأون من الكتب: ليأخذن ما تحت قدمي، فهلم نتبعْه على دينه، أو نعطيه مالنا على أرضنا؟ فنخروا نخرة (صاحوا صيحة رجل واحد غاضبين) حتى خرجوا من برانسهم، وقالوا: تدعونا إلى أن ندع النصرانية، أو نكون عبيدًا لأعرابي جاء من الحجاز. فلما ظن أنهم إن خرجوا من عنده أفسدوا عليه الروم،

---

(1) : رواه ابن هشام (528/2) وذكره ابن حجر في الإصابة (230/2) نقلا عن ابن منده بسند جيد.
(2) : موارد الظمآن للهيثمي رقم: 1228.

رَفأهم (يعني سكّنهم ودعا لهم) وقال: إنما قلت لكم لأعلم صلابتكم على أمركم، ثم دعا رجلاً من عرب تُجيب كان على نصارى العرب فقال: ادع لي رجلا حافظا للحديث، عربي اللسان، أبعثه إلى هذا الرجل بجواب كتابه، فجاء بي فَدَفَع إليّ هرقل كتابًا، وقال: اذهب بكتابي إلى هذا الرجل، فما ضيعتَ من حديثه، فاحفظ لي منه ثلاث خصال: الأولى، انظر هل يذكر صحيفته التي كتب إلي بشيء؟ الثانية، وانظر إذا قرأ كتابي هل يذكر الليل؟ الثالثة، وانظر في ظهره هل به شيء يَريبك؟ قال: فانطلقت بكتابه حتى جئت تبوك، فإذا هو جالس بين ظهراني أصحابه محتبيًا على الماء، فقلت: أين صاحبكم؟ قيل: ها هو ذا، فأقبلتُ أمشي حتى جلست بين يديه، فناولتُه كتابي، فوضعه في حجره ثم قال: مَن أنت؟ قلت: أنا أحد تَنوخ، قال: هل لك في الإسلام الحنيفية، مِلَّة أبيك إبراهيم؟ قلت: إني رسول قوم، وعلى دين قوم، لا أرجع عنه حتى أرجع إليهم، فضحك وقال: «(إنك لا تهدي مَن أحببت، ولكن اللّه يهدي من يشاء، وهو أعلم بالمهتدين)» ﴿القصص، آية: 56﴾ يا أخا تَنُوخ، إني كتبتُ بكتاب إلى كسرى فمزقه، واللّه مُمزقُ ملكه، وكتبتُ إلى النجاشي (وهو غير أصحمة الذي أسلم ومات، وصلى عليه النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم) بصحيفة فأحرقها، واللّه ممزقه وممزق ملكه، وكتبت إلى صاحبك بصحيفة فأمسكها، فلن يزال الناس يجدون منه بأسًا ما دام في العيش خير، قلت: (أي: التنوخي السفير) هذه إحدى الثلاث التي أوصاني بها صاحبي، وأخذت سهما من جعبتي فكتبتُها في جلد سيفي، ثم إنه ناول الصحيفة رجلا عن يساره، قلت: من صاحب كتابكم الذي يقرأ لكم؟ قالوا: معاوية. فإذا في كتاب صاحبي: تدعوني إلى جنة عَرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: سبحان اللّه، وأين الليل إذا جاء النهار؟ قال: فأخذت سَهمًا من جعبتي فكتبتُه في جلد سيفي، فلما أن فرغ من قراءة كتابي قال: إن لك حقا، وإنك رسوَل، فلو وجدت عندنا جائزة جوزناك بها، إنا سَفْر مُرملون، قال: فناده رجل من الناس: أنا أجوّزه، فَفَتَح رَحله وأتى بحُلة صفَورية فوضعها في حجري، قلتُ: مَن صاحب الجائزة؟ قالوا: عثمان، ثم قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: أيكم يُنزل هذا الرجل؟ فقال فتى من الأنصار: أنا، فقام وقمت معه حتى إذا خرجتُ ناداني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: تعال يا أخا تَنوخ، فأقبلت حتى إذا كنت بين يديه، حَل حبوتَه عن ظهره (ألقى بُرده عنه) وقال: هاهنا أمض لما أمرتَ به، فجُلتُ في ظهره، فإذا أنا بخاتم في موضع غضون الكتف مثل المحجمة الضخمة (آلة الحجامة التي يجمع بها الدم)[1].

(1) : رواه أبو يعلى في المسند رقم: 1597، وعبد اللّه بن أحمد في زوائد سند أبيه (441/3) بسند جيد.

ولم يفتأ المنافقون يكيدون كلما سنحت لهم فرصة. ويستهزئون برسول اللّه والمسلمين والإسلام. قال عبد اللّهِ ابن عمر: قال رجل في تبوك يومًا في مجلس: ما رأينا مثل قُرائنا هؤلاء لا أرغبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنة، ولا أجبنَ عند اللقاء، فقال له رجل: كذبتَ، ولكنك منافق، ولأخبرن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأخبره ونزل فيه قرآن. قال عبد اللّه: فأنا رأيتُه متعلقًا بناقة رسول اللّه والحجارة تُنكيه، وهو يقول: يا رسول اللّه، إنما كنا نخوض ونلعب، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: أباللّه وآياته ورسوله كنتم تستهزئون[1]، وقال مَحشي بن حُمير: وددت أني أقاضي على أن يُضرَب كل رجل منكم (يعني المنافقين) على أن ينجو من أن ينزل فينا القرآن، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمار: أدرك القومَ فإنهم قد احترقوا، فسَلْهم عما قالوا، فإن هم أنكروا وكتموا، فقل: بلى قد قلتم كذا وكذا. فأدرَكهم فقال لهم، فجاؤوا يعتذِرون، فأنزل اللّه تعالى: «(لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم، إن يُعفَ عن طائفة منكم تُعذّب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)» ﴿التوبة، آية: 66﴾ فكان الذي عفا اللّه عنه: مَحشي ابن عُمير، فتسمى عبد الرحمن، وسأل اللّه أن يُقتل شهيدًا، وألا يُعلم بمَقتَله، فقُتل باليمامة، لا يُعلم مقتَله، ولا مَن قَتَله، ولا يرى له أثر ولا عين[2]. وللمنافقين مواقف وأخبار سوى هذه، لا نطيل بها. ثم أقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم من غزوة تَبوك بعد أن أمضى بها عشرين يومًا يقصر الصلاة[3]، وحين أشرف على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أُحُد جبل يحبنا ونحبه[4]. وقدم صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينة، فتلقاه الناس والصبيان فرحين مسرورين على ثنية الوداع، (ويُروى أن النساء والولائد كن يُنَشدن:

طلع البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعـــا للّه داع

ولكن ذلك لايصح رغم شُهرته، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في أحداث الهجرة)[5]، فأمّ صلى اللّه عليه وآله وسلم المسجد وصلى به ركعتين، وجلس للناس كما تقدم في حديث كعب بن مالك.

فوائد وعبر وأحكام من غزوة تبوك

ويستفاد من أحداث هذه الغزوة الكبرى وما تخللها من مواقف،

---

(1) : رواه ابن أبي حاتم في التفسير (63/4) وهو حسن بشاهده.
(2) : رواه إبن أبي حاتم حيث أشير. وسنده حسن.
(3) : رواه أبو داود (رقم: 1046) وغيره في الصلاة، وهو صحيح.
(4) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4070.
(5) : انظر: فتح الباري في شرح حديث رقم: 4426.

وما نزل في شأنها من القرآن: فوائد، وعبر، ومسائل.

منها: فضل البذل في سبيل اللّه، وتجهيز المجاهدين، ولم يثبت أن رسول اللّه فرض على الناس شيئًا. وإنما رغّبهم ووعدهم الجنة لذلك، فتسابق الناس للإنفاق والإيثار بمحض اختيارهم وإيمانهم. وقد أخطأ البوطي في فقه سيرته في الاستدلال بهذا على أن للحكام أن يفرضوا على شعوبهم المال للغزو وإذا لم يف بيت المال بسد الحاجة، ولكنه أحسن في انتقادٍ من يسيء إلى عثمان رضي اللّه عنه بنقد سياسته في الحكم، انسياقًا مع أكاذيب الروافض، وشبهات المستشرقين، وقد قال صلى اللّه عليه وآله وسلم له بعدما بذل في سبيل اللّه ما لم يبذله غيره: (ما ضر عثمانَ ما فعل بعد اليوم) كما تقدم. كما أجاد البوطي في الرد على الصوفية الذين احتجوا بزيادة في حديث إنفاق أبي بكر، وجوابه على سؤال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم له: ماذا أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيتُ لهم اللّه ورسولَه[1]. وهذه الزيادة: أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال له: إن اللّه راض عنك، فهل أنت راض عنه؟ فاستفزه السرور وقام يرقص أمام رسول اللّه ويقول: كيف لا أرضى عن اللّه؟ وهي زيادة لا أصل لها، إلا أن المتصوفة احتجوا بها على مشروعية الرقص، على عادتهم في الاحتجاج بكل ما هَبَّ ودب. وقد أطال البوطي في الرد عليهم، إلا أنه لم يشأ أن يترك حقّه بدون دخن، فأشار إلى أن الناس سيعجبون من موقفه هذا من الصوفية الموافق للوهابية (أعني السلفيين) وهو المشهور بعدائهم لهم ومحاربتهم، فَزَعَم أنه يلزم الحق، وما ينتجه البحث العلمي دون تعصب ولا تحيز. والواقع خلافُ ذلك تماما.

ومنها: ائتمام النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بعبدالرحمن بن عوف في صلاة الفجر، وقد أراد ابن عوف أن يتأخر لما لمح رسول اللّه فأشار إليه: أن لا يفعل، وصلى خلفه[2]، وهذا يدل على جوازة إمامة المفضول بالفاضل.

ومنها: سؤال معاذ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عن عمل يدخله الجنة وهم في طريق العودة، فأجابه صلى اللّه عليه وآله وسلم بأن رأس هذا الأمر الشهادة، وقوامه الصلاة والزكاة، وذروة سنامه الجهاد[3].

ومنها: أن النبي جمع الظهر والعصر والمغرب والعشاء[4]، وأقام عشرين ليلة يقصر الصلاة كما تقدم.

ومنها: وقد سئل عن سُترة المصلي فقال: بأنها مثل مؤخرة

---

(1) : رواه أبو داود (رقم: 1429) والترمذي (رقم: 3608) ـ المغازي ـ بسند فيه ضعف.
(2) : رواه مسلم (رقم: 410).
(3) : رواه أحمد في المسند (245/5) وهو حسن.
(4) : رواه مالك في الموطأ ـ الصلاة رقم: 298.

الرحل[1].

ومنها: شربه صلى اللّه عليه وآله وسلم ماء بتبوك من قِربة جِلد مدبوغ[2] مما يدل على طهارة جلد الميتة بالدباغ.

ومنها: إهدار دية ثنية الرجل العاض عند انتزاع المعضوض يده، فسقطت الثنية.

ومنها: جواز الهَجر فوق ثلاث لسبب شرعي.

ومنها: قصر الصلاة عشرين يومًا، وفيه رد على من مَنَع ذلك زاعمًا أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم لم ينو الإقامة أكثر من أربعة أيام، وهذا حكم على ضمير النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وجرأة قبيحة عليه. والحق: أن صلاة الرباعية ركعتين في مطلق السفر، قصُر أو طال واجب، للأحاديث المستفيضة في ذلك: أن اللّه شرعها ركعتين في السفر، فزيد في صلاة الحضر وأقرت صلاةُ السفر، وما دام المسافر لم يتوطن مكانًا، ولم يزل عنه اسمُ السفر، فواجبه: القصر حتى يعود إلى مقره، ولو دام سفرُه شهورًا وأعوامًا، وظل الصحابة يقصرون الصلاة ستة أشهر في فتوحاتهم في خراسان.

ومنها: أن المارّ بديار العذاب، لا ينبغي له المقام بها، بل يجب عليه الإسراعُ بالخروج منها متقنعًا باكيًا أو متباكيًا، كي لا يصيبه ما أصابهم، كما لا يُنتفع بشيء منها حتى الماء إلا ماء بئر الناقة. كما فعل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأمر به عند مروره بديار ثمود، وكما فعل ببطن مُحسّر بين منًى وعرفات، لأنه المكان الذي أهلك اللّه فيه الفيل وأصحَابه[3]، وكذلك يفعل الحاج كما قال ابن عاشر في المرشد المعين: . . . وأسرعن في بطن وادي النار.

ومنها: مصارحة الإمام لرعيته بالأمر الذي يضر إخفاؤه وسَتُره، ليتأهبوا، في حين أنه يجوز له الإخفاء والتورية إذا أمن ما يُخاف، كما فعل صلى اللّه عليه وآله وسلم في إعلام الصحابة بوجهته: تبوك، بينما كان يُورّي في غيرها.

ومنها: وجوب النفير إذا استَنفر الإمام الناسَ كما قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: وإذا استُنفرتم فانفروا. قال ابن القيم: وهو أحد مواطنَ ثلاث، يتعين فيها الجهاد، ولا يجوز التخلف، والموطن الثاني: إذا دَهَم العدو البَلد. والثالث: الحضور بين الصفين.

ومنها: منقبة كبرى لعثمان رضي اللّه عنه تُضاف إلى مناقبه إذ تبرع بألف دينار ذهبًا، إلى عدد كبير من الإبل بأحلاسها وأقتابها في سبيل اللّه، مما استوجب به قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم له: ما ضر عثمانَ ما فعل بعد اليوم. وهي بشرى له بغفران

---

(1) : رواه النسائي ـ الصلاة رقم: 738.
(2) : رواه أبو داود ـ اللباس رقم: 3596.
(3) : زاد المعاد (560/3).

ذنوبه مستقبلاً، كما قيل في أهل بدر: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم.

ومنها: استخلاف الإمام مَن يقوم بعده بشؤون البلد والمتخلفين من المعذورين، كما فعل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فاستخلف علي بن أبي طالب، ومحمد ابن سلمة رضي اللّه عنهما[1]. وفي استخلاف علي، منقبة له كريمة، تضمنها قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم له: أما ترضَى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى.

ومنها: إحراز المستضعفين ثوابَ المجاهدين، إذا حسُنت نيتهم، وحَبَسهم العذر، لقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن بالمدينة أقواما إلخ.

ومنها: جواز إعلان الرجل إهمالَه وتقصيرَه في الطاعة والمشروع بدافع الندم، كما يجوز تمدحه بما فيه من خير وفضل إذا سلم من الفخر والسمعة، كما فعل كعب ابن مالك رضي اللّه عنه.

ومنها: قَبول الإمام ظاهرَ الناس، ووكُول سريرتهم إلى اللّه، ومشروعيةُ سؤاله عمن تخلف عن واجد بدون عذر، لحثه على الرجوع والتوبة، ومشروعية سجود الشكر عند تجدد نعمة، أو سماع ما يسُر، كما فعل كعب، وكما ثبت عن الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم عندما بلغه خبرُ إسلام قبيلة هَمْدَان على يد علي رضي اللّه عنه وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم إذا أتاه أمر يسره سجد شاكرًا للّه كما قال أبو بكر رضي اللّه عنه[2]، وسجد أبو بكر الصديق رضي اللّه عنه لما بلغه مقتل مُسيلمةٍ الكذاب[3]، كما سجد علي رضي اللّه عنه لما وجد ذا الثدية مقتولا بين الخوارج[4]. وفي هذا رد على الإمام مالك القائل بكراهة سجود الشكر.

ومنها: مشروعية الصدقة عند التوبة، كما فعل كعب.

ومنها: مشروعية فرض الجزية وأخذها من أهل الكتاب إذا صولحوا عليها، كما فعل متنصرة العرب بعد قعود الروم وتخلفهم عن القتال بتبوك.

ومنها: أخذ العبرة من موقف كعب لما بلغه كتاب ملك غسان، يعرض عليه الحماية، فما كان منه إلا أن رمى به في التنور وأحرقه لقوة إيمانه، وثباته، وتشبته بالصدق، وانتظاره رحمة اللّه وعفوه.

ومنها: جواز طلب أموال الكفار المحاربين، وجواز الغزو في الشهر الحرام.

ومنها: أن نصرة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم والخروج

---

(1) : زاد المعاد (222/3).
(2) : رواه أبو داود ـ الجهاد رقم: 2393.
(3) : رواه البيهقي في السنن الكبير (371/2) وهو صحيح.
(4) : رواه أحمد في المسند (848/2) وهو صحيح.

معه فرض عين على الأنصار بالمدينة، وفاء ببيعتهم في العقبة، والتزامهم حماية النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم، تلك الحال التي أفصحوا عنها وهم يرتجزون عند حفر الخندق قائلين:

نحن الذين بايعوا محمدا ... على الجهاد ما بقينا أبدا

ويؤيد هذا قوله تعالى: «(ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول اللّه...)» ﴿التوبة، آية: 120﴾.

ومنها: أن العاجز عن الخروج بنفسه أو بماله لا حرج عليه.

ومنها: ترك قتل المنافقين.

ومنها: شؤم المعصية، وعظم وقعها في النفوس الطيبة، كما حصل للثلاثة الذين خُلفوا، قال الحسن البصري رحمه اللّه: يا سبحان اللّه، ما أكل هؤلاء الثلاثة مالا حرامًا، ولا سفكوا دمًا حرامًا، ولا أفسدوا في الأرض، وأصابهم ما سمعتم، وضاقت عليهم الأرض بما رحُبت، فكيف لمن يواقع الفواحشَ والكبائر، ويستفاد من قصتهم أيضا: جواز الحلف للتأكد من غير استحلاف، والتورية عن المقصد، ورد الغيبة، والتوقف عن وطء الزوجة مدة. وأن المؤمن ينبغي أن يبادر إلى انتهاز فرص الطاعة ولا يُؤخر، ليلا تفوت ويُحرَمَ خيرَها، كما يجوز له أن يتمنى ما فاته من خير، وأن يطعن على غيره بما يغلب على اجتهاده وظنه حميةً للّه ورسوله، وجواز الرد على الطاعن إذا علم خطأ ظنه ووهمه.

ومنها: استحباب قدوم المسافر على الوضوء، والبدء بالمسجد قبل البيت للصلاة، وجلوسه للزائرين، والسلام على القادم وتلقيه، وبكاء العاصي ندمًا على ما فاته.

ومنها: ترك السلام على من أذنب، ويمن الصدق وبركته، وشؤم الكذب وسوء عاقبته، إلى غير ذلك من الفوائد والمسائل التي استوفى أكثرها الحافظ ابن حجر في الفتح[1].

عدد المغازي والبعوث والسرايا

وبهذه انتهت غزوات النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم البالغة سبعا وعشرين غزوة والبعوث والسرايا البالغة ستين[2]، وعلى ضعف في كثير من أخبارها ورواياتها، ولم يقع قتال في عدد منها. وقد حققت غزوة تبوك أهدافها، وكان لها أبلغ الأثر في نفوس الروم، ومتنصرة العرب والأعراب، ودان بها شمال الجزيرة للإسلام، وأعدّ النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عُدته لنشر الإسلام خارج الجزيرة، وهيأ جيشا كبيرًا برئاسة أسامة بن زيد رضي اللّه عنه وشاء اللّه أن يتوفى نبيه صلى اللّه عليه وآله وسلم قبل إنفاذ الجيش لفتح الشام،

---

(1) : فتح الباري 123/8.
(2) : زاد المعاد (222/3..).

فأصر أبو بكر رضي اللّه عنه، على تنفيذ ما بدأه الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، وما إن فرغ من إخضاع المرتدين في حروب الردة، حتى سيّر جيش أسامة لتحقيق أهداف الدعوة الإسلامية، وإتمام الفتوحات الإسلامية، وتحرير البشر من نير الطغاة، ومهانة العبودية لغير رب العالمين.

وقد حقق بعض الباحثين في مقارنة طريفة بين الجهاد الإسلامي وفتوحاته وثمراته، وبين حروب الاستعمار الأوربي وويلاته فقال: قتلىَ المسلمين والمشركين في جزيرة العرب على العهد النبوي، لم يَتجاوز عددهم ألفًا وثمانية عشر قتيلًا في تلك المدة كلها، وتلك ثمرة تطبيق تعاليم الإسلام في الجهاد الذي كان للتأديب لا للتعْذيب، فقد حُقنت دماء لا تُحصى، وعصمت أعراض لا تعد من الانتهاك والفساد، وساد الأمن الجزيرة العربية، وتحققت النبوءة بسَفَر الظعينة وحدها من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، ومن القادسية رَاكبة بعيرَها حتى تَزور البيت، لا تخاف إلا اللّه، بعد أن ظلت الجزيرة قرونًا ميدانًا للحرب والغارات، وأخذ الثأرات، وانعدام الأمن، حتى لا يُمشى فيها إلا بخفارة ساهرة، وسلطة قاهرة. ولما تكالبت دول الاستعمار الأوربي على نَهب المستضعَفين، وغصب بلادهم، واستعباد أبنائهم، جعل اللّه بأسَهم بينهم شديدًا، فسارعوا إلى اختراع وسائل الدمار، وتفننوا في إعداد أسلحة الهلاك والخراب والبوار، فنشبت بينهم حربان عالميتان، ذكرت دائرة المعارف البريطانيةَ، أن عدد القتلى في الأولى بلغ ستة ملايين وأربعمائة ألف نفس، وفي الثانية: بين خمس وثلاثين مليونًا، إلى ستين مليونًا، عدا الجرحى والمفقودين والمشوَّهين[1]. ولم تخدم هاتان الحربان مصلحة إنسانية، ولا استفاد منها العالم في قليل ولا كثير وإنما زادتا في مآسي البشرية وويلاتها، وبقي الناس يعانون من آثارها القبيحة إلى الآن. هذا والقوم أهل دين واحد، هو دين السماحة والإيثار واليسر والرحمة، دين المسيح عليه السلام فيما يزعمون. فكيف يصدق الإنسان هذا ويجوّز نسبة هؤلاء إلى المسيح عليه السلام؟ بل هو -واللّه- بريء منهم براءَة الذئب من دم ابن يعقوب، ومن مخازيهم التي يبصق التاريخ عليه، ويحمر منها وجه الزمان خجلا: محاكم التفتيش في إسبانيا من أوربا. والاضطهاد الكنسي الذي كان يلاحق كل من خالف تعاليم الكنيسة الظالمة، ولو كان نصرانيًا، ولا سيما المسلمين واليهود في الأندلس، فكانوا يُقتَلون ويُحرقون لأدنى شبهة، وربما جمعوا منهم في محابس ودهاريز تحت أرض الكنائس، وتغلق عليهم فتكون مقابرهم، كما اكتشفت أخيرًا بإسبانيا. وقد بلغت ضحايا هذه المحاكم اثنى عشر مليونًا[2].

---

(1) : السيرة النبوية للندوي ص 459.
(2) : السيرة النبوية للندوي ص 459.

وبعد رجوع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من تبوك سالمًا غانمًا. يتقدمه صيت طيب، ملأ أرجاء الجزيرة، وتسامع به العرب، وتناقلوا أخبار ما تم من عقود الصلح بينه وبين رؤساء العرب على أداء الجزية، وما تقدمه من هدايا خوفًا وطمعًا، وما سبق من النصر المبين في حنين، وفتح مكة. ودعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ملوك الأرض من الفرس، والروم، والقبط، والحبش، وغيرهم إلى الدخول في الإسلام، واستجابة بعضهم، وأدب البعض في الرد، وتقديم الهدايا، كل هذا وغيره من توالي النصر والتأييد الإلاهي، كان له بليغ الأثر في نفوس العرب، فأزال الحواجز بينهم وبين الإسلام، وقلب قلوبهم من البغض والكراهية والنفور، إلى القبول والرغبة والحبور.

عام الوفود

فما أطل العام التاسع للهجرة حتى كانت وفود العرب من مختلف أنحاء الجزيرة، تؤم المدينة المنورة، راغبة في الإسلام، معلنة دخولها فيه، مصداقا لقوله تعالى: «(إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا...)» ﴿سورة النصر﴾. وسمى هذا العام عام الوفود. ولأول مرة في التاريخ تتوحد الجزيرة تحت راية الإسلام السياسية. وقد بلغت هذه الوفود أكثر من ستين، بل جاوز بعضهم المائة، تناولها بالتفصيل: مؤلفو السير والمغازي، لا سيما ابن سعد، وابن إسحاق، إلا أن الملاحظ أن أغلب أخبار هذه الوفود بلا أسانيد، وقليل من رواياتها مراسيل، أو من طريق المتروكين كالواقدي، وهشام الكلبي، فلنذكر منها ما يمكن قبوله.

وفد ثقيف

فمنها: وفد ثقيف، وقد تقدم خبره، وأنهم اشترطوا إسقاط الزكاة والجهاد عنهم، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل منهم، ولكنه قال في المجلس: سيتصدقون ويجاهدون إذا أسلموا كما مر[1]، وكذلك كان، وكان عثمان بن أبي العاص منهم أحرصَهم على معرفة الإسلام، وحفظ القرآن على فتاء سنه، فطلب من النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعله إمامَ قومه. فأجابه وقال: أنت إمامُهم، واقتد بأضعفهم واتخذ مؤذنًا لا يأخذ على آذانه أجرًا[2]، وشكى إلى النبي وسوسة الشيطان له في صلاته وقراءته، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: ذاك شيطان يقال له خَنزَب، فإذا أحسسته فتعوّذ بالله منه واتفل عن يسارك ثلاثًا، قال: ففعلتُ فأذهبه الله عني[3]. وفي

(1) : رواه أبو داود رقم: 3025.
(2) : رواه أحمد في المسند (217/4) وهو صحيح.
(3) : رواه مسلم رقم: 2203.

هذه الأثناء أي بعد قدوم النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينةَ من تبوك، توفي عبد اللّه بن أَبي بن سَلول زعيم المنافقين، وقد عاده صلى اللّه عليه وآله وسلم في مرض موته وقال له: قد كنتُ أنهاك عن حب يهود، فقال عبد اللّه: فقد أبغضهم أسعد بن زُرارة فَمَه؟ (يعني أن حبهم لا يضر، وبغضهم لا ينفع، وهذا من سوء فهمه). ولما مات أتاه ابنه فقال: يا رسول اللّه، إن عبد اللّه بن أبي قد مات، فأعطني قميصَك أكفنه فيه، فنزع صلى اللّه عليه وآله وسلم قميصه وأعطاه إياه[1].
وكان ذلك لِيَد له عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حيث كسا قميصَه عمَّهَ العباس لما أسر في غزوة بدر، وقد ألبسه النبي صلى اللّه علية وآله وسلم قميصَه بنفسه، بعد أن أخرجه من قبره، ونفث فيه من ريقه[2]، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم صلى عليه بطلب من ابنه عبدَ اللّه، وحاول عمر رضي اللّه عنه منعه، فأخذ بثوبه وقال: يا رسول اللّه، تصلي عليه وقد نهاك اللّه أن تصلي عليه؟ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إنما خيرني اللّه فقال: «(استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر اللّه لهم)» ﴿التوبة، آية: 8﴾ وسأزيد على سبعين، قال عمر: إنه منافق. فصلى عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأنزل اللّه تعالى: «(ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره)» ﴿التوبة، آية: 84﴾[3] وأقام صلى اللّه عليه وآله وسلم بقية رمضان، وشوال، وذو القعدة، ثم بعث إبا بكر رضي اللّه عنه أميرًا على الحج سنة تسع، وبعث إثره علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ليبلغ المشركين بعد نزول (براءة) وقال: لا يؤدي عني إلا رجل من أهل بيتي، وأمره أن يؤذن ف الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنًى: أن لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم عهد فهو له إلى مِدته، فقام علي رضي اللّه عنه بهذه المهمة، وقدما هو وأبو بكر المدينة على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم[4]. وبعث أبو بكر رضي اللّه عنه بصفته أمير الحج: مؤذنين يؤذنون بذلك في الموسم، لكثرة الناس، إتمامًا لنداء علي رضي اللّه عنه، وتعميمًا لمضمون البلاغ الإلاهي، فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان.

وفد بني تميم

وقد تقدمت الإشارة إلى بني تميم وبعض فضائلهم، وهذا عمران بن حصين رضي اللّه عنه تحدث عن وفدهم فقال: دخلت على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني

(1) : رواه أبو داود (رقم: 2690) في الجنائز بسند صحيح.
(2) : رواه البخاري رقم: 1191.
(3) : رواه البخاري (رقم: 4302) ـ الجنائز. ورغم صحة الحديث فقد رده الرافضي هاشم معروف بجهل لأنه يتعلق بعمر رضي اللّه عنه.
(4) : رواه الترمذي (رقم: 3016) ـ التفسير، وهو حسن بشواهده التي أوردها ابن كثير في تفسيره

تميم فقال: أقبلوا البشرى يا بني تَميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا مرتين، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: أقبلوا البشرى يا أهل اليمن، إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قبلنا يا رسول اللّه، قالا: جئنا نسألك عن هذا الأمر، قال: كان اللّه ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكَتَب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصَين، فانطلقتُ فإذا هي يقطع دونها السراب، فواللّه لوددت أني كنت تركتها[1].

وفد بني عامر

ووفد على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وفد بني عامر، قال عبد اللّه بن الشخير: فأتيناه فسلمنا عليه وقلنا: أنت سيدنا، وأنت أطول علينا طولاً، وأنت أفضل علينا فضلاً، وأنت الجفنة الغراء، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: قولوا قولكم ولا يستجرنَّكم الشيطان، أو قال: ولا يستهوينكم[2]. وكان منهم عامر بن الطَفيل الذي غَدَر بالمسلمين، وتولى كِبر قتل القراء السبعين في حادثة بئر مَعُونة، ولم يكتف بذلك، حتى خيّر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بين ثلاث: أن يكون له أهل المدَر، وللنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم أهل السهل، وأن يكون خليفته، وإلا فإنه يغزو النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بألف وألف، ألف أشقَرَ، وألف شقراء. ولما هدد الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم هذا التهديد الأرعن، ابتلاه اللّه بغُدة في رقبته طعن بها في بيت أم فلان: امرأة من بني فلان، فقال وهو يتململ منهَا: غدة كغدة البَكر في بيت امرأة؟ ائتوني بفرسي، فمات على ظهر فرسه[3].

وفد ضمام بن ثعلبة عن بني سعد

ووفد ضمام بن ثعلبة مبعوثاً من قومه بني سعد بن بكر، فقدم على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأناخ بعيره على باب المسجد، ثم عقله ودخل المسجد، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر، ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: أيكم ابن عبد المطلب، إني سائلك ومُغلظ في المسألة، فلا تجدنَّ في نفسك، قال: لا أجد في نفسي فَسَل ما بدا لك، قال: أنشُدك اللّه إلاهك وإله مَن كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك. آللّه بعثك إلينا رسولا؟ قال: نعم، قال: أنشُدك اللّه إلاهك وإله مَن كان قبلك، وإله مَن هو كائن بعدك. آللّه أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا

---

(1) : رواه البخاري في بدء الخلق رقم: 2953.
(2) : رواه أبو داود ـ الأدب. رقم: 4172.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي. رقم: 3782.

نشرك به شيئا، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك اللّه إلاهَك... آللّه أمرك أن نصلي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم، ثم جعل ضمام يذكر فرائض الإسلام فريضةً فريضة: الزكاة، والصيام، والحج، وشرائع الإسلام كلها، يناشده عند كل فريضة كما يناشده في التي قبلها، حتى إذا فرغ قال: فإني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأشهد أن محمداً رسول اللّه، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثم لا أزيد ولا أنقص، ثم انصرف راجعًا إلى بعيره؛ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم حين ولى: إن يصدقْ ذو العقيصتَين يدخل الجنة. فأتى إلى بعيره فأطلق عقاله، ثم خرج حتى قدم قومَه، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن قال: بئست اللاة والعُزى، قالوا: صَهْ يا ضمام، واتق البرصَ والجذام، اتق الجنون، قال: ويلكم إنهما واللّه لا يضران ولا ينفعان، إن اللّه عز وجل قد بعث رسولا، وأنزل عليه كتابا، استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد أن لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، إني قد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه، فواللّه ما أمسى من ذلك اليوم وفي حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلمًا. قال ابن عباس: فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة[1]. وحوار ضمام هذا يدل على انتشار الإسلام بين القبائل، ومعرفة بأحكامه وتعاليمه.

وفد عبد القيس

ثم وفد على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وفد عبد القيس الوفادة الثانية. وكانوا وفدوا المرة الأولى قبل الفتح، سنة خمس أو نحوها، وبشر النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بقدومهم فقال: سيطلع عليكم من ها هنا ركب هم خير أهل المشرق، فتوجه عمر نحوهم، فإذا هم ثلاثة عشر راكبًا فقال: مَن القوم، قالوا: من بني عبد القيس، قال: فما أقدمكم هذه البلاد أتجارة؟ قالوا: لا، قال: أما إن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قد ذكركم آنفا فقال خيرًا، ثم مشى معهم حتى أتوه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال عمر: هذا صاحبكم الذي تريدونه، فرمى القوم بأنفسهم من ركائبهم، فمنهم من مشى، ومنهم من هرول حتى أخذوه بيده صلى اللّه عليه وآله وسلم فقبلوها. وجاء الأشج واسمه: المنذر بن عائذ العصري -وكان تأخر لجمع متاع القوم، ولبس ثيابه- فأخذ بيد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقبَّلها، فقال له صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن فيك خلتين يحبهما اللّه ورسوله: الحلم والأناة، قلت: قديما كان أو حديثا؟ قال: قديما، قال: الحمد للّه الذي جبلني على خلتين أحبهما

(2) : رواه أحمد في المسند (264/1) وأبو داود (رقم: 411)، وهو حسن.

اللّه[1]. ثم التفت صلى اللّه عليه وآله وسلم إلى القوم وقال: من الوفد؟ قالوا: ربيعة، قال: مرحبًا بالقوم أو بالوفد غيرَ خزايا ولا ندامى (يعني: لم يُصبكم خزي ولا ندم، لإسراعكم إلى الإسلام)، قالوا: يا رسول اللّه. إنا نأتيك من شقة بعيدة، وإن بيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام. فمرنا بأمر فصل نخبر به مَن وراءنا. ندخل به الجنة. فأمرهم بأربع، ونهاهم عن أربع. أمرهم بالإيمان باللّه وحده، وقال: أتدرون ما الإيمان باللّه؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاةِ، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسا من المغنَم، ونهاهم عن الدُّباء والحنْتم والمزفت، وربما قال: النقِيرِ والمقيّر، وقال: احفظوه وأخبروا به مَن وراءكم[2] (والدُّبّاء والحنْتم الخ أوعية كانوا ينتبذون فيها، فيسرع إليها الإسكار، فنُهوا عنها) قالوا: يا نبي اللّه، وما علمك بالنقير، قال: بلى، جذع تنقرونه فتقذفون فِيه القطيعاء (نوع من التمر) ثم تصبون فيَه من الماء حتى إذا سَكنَ غليانُه شربتموه، حتى إن أحدكم ليضرب ابن عمه بالسيف، قال أبو سعيد الخدري راوي الحديث، وفي القوم رجل أصابته جراحة كذلك، قال: وكنت أخبئها حياء من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قالوا: ففيمَ نشرب يا رسول اللّه؟ قال: في أسقية الأدُم التي يلاث على أفواهها (يعني قراب الجلد المدبوغة التي تُربط أفواهُها) قالوا: يا رسول اللّه، إن أرضَنا كثيَرة الجرذان، ولا تبقى بها أسقية الأدم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: وإن أكلها الجرذان ثلاثًا[3]. وبسبب انشغال النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بهذا الوفد، ترك صلاة الركعتين بعد الظهر، فصلاهما بعد العصر قضاءً، كما قالت أم سلمة رضي اللّه عنها. وكانت أول جمعة جمعت بعد جمعة مسجد رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم جمعة عبد القيس، بقرية جواثي بالبحرين[4]. ومما حدث عند اجتماع الوفد به صلى اللّه عليه وآله وسلم: أن رجلا منهم يقال له: الزارع، طلب منه صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يدعو لخاله المصاب بالمس، فأمره صلى اللّه عليه وآله وسلم أن يأتيه به، فذهب الرجل وألبس خاله ثوبين وجاء به، فأخذ صلى اللّه عليه وآله وسلم من ردائه يرفعهما حتى رأينا بياض إبطه، ثم ضرب بظهره فقال: اخرج عدو اللّه (يخاطب الجني متقمصَ الرجل) فولى وجهه وهو ينظر بنظر رجل صحيح[5]. وهذه الوفادة الثانية لهذا الوفد، كانت عام الوفود عام تسع، وكان عددهم أربعين، وفيهم: الجارود بن عمرو العبدي الذي بايع النبي صلى

(1) : رواه البخاري في الأدب (رقم: 602)، والبيهقي في الدلائل (رقم: 2072)، وأصله صحيح.
(2) : رواه البخاري - الإيمان (رقم: 51).
(3) : رواه أحمد رقم: 10746. بإسناد فيه كلام يسير.
(4) : رواه البخاري - الجمعة رقم: 843.
(5) : رواه البخاري في الأدب المفرد، والطبراني في الكبير رقم: 5176، وهو حسن.

اللّه عليه وآله وسلم قائلا: إني إن تركت ديني ودخلت في دينك لا يعذبني اللّه في الآخرة؟ قال صلى اللّه عليه وآله وسلم: نعم. وسأل عن ضالة الإبل والماشية، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ضالة المسلم حرق النار (حُكمُ مَن أخذ إبلا أو ماشية ضالة ضائعة يمتلكها)[1]. وأسلم الجارود وأصحابه، وأدرك الردة فرَجَع من قومه من رَجَع، فقام فيهم خطيبًا وقال: أيها الناس، إني أشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأكفّر مَن لم يشهد. وهذا يدل على صلابته في دينه. ومما يُشعر بتعدد وفادة عبد القيس: أن النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كان مما قال لهم: مالي أرى ألوانكم تغيرت[2].

وفد مسيلمة وقومه بني حنيفة

ثم وفد على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بنو حنيفة، يرأسهم مُتنبيهم مسيلمة الكذاب، وهم جموع كثيرة، فنزلوا بدار رملة بنت الحارث، وكانت معدة للوفود، فأقبل إليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ومعه ثابت بن قيس بن شماس، وبيد الرسول قطعة جريد، ومسيلمة يقول: إن جعل لي محمد الأمرَ من بعده، تَبعتُه، فأجابه صلى اللّه عليه وآله وسلم: لو سألتَني هذه القطعةَ مَا أعطيتُكها، ولن تعدو أمرَ اللّه فيك، ولئن أدبرتَ ليعقرنك اللّه، وإني لأراك الذي أريتُ فيك ما أريتُ، ثم انصرف عنه، وسأل ابن عباس رضي اللّه عنه أبا هريرة رضي اللّه عنه عن قوله: أريتُ فيك ما أريتُ، فقال: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: بينما أنا نائم أتيتُ بخزائن الأرض، فوضع في كفي سواران من ذَهَب، فكبُروا علي، فأوحي إلي أن أنفُخهما، فنفختُهما فذهبا، فأولتهما: الكذابين اللذين أنا بينهما، صاحب صنعاء (وهو الأسود العَنسي) وصاحب اليمامة (وهو مسيلمة)[3]. وقد كتب هذا الساحر إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلَم يدعوه إلى ملته، وبعث بالكتاب مع رجلين، فلما قُرئ الكتاب على رسول اللّه قال للرسولين: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: واللّه لولا أن الرسل لا تقتل، لضربتُ أعناقكما[4]، وأتى حارث بن مضرب، عبد اللّه بن مسعود رضي اللّه عنه فقال: ما بيني وبين أحد من العرب جنَةٌ، وإني مررت بمسجد لبني حنيفة، فإذا هم يؤمنون بمسيلمة، فأرسل إليهم عبد اللّه فجيء بهم، فاستتابهم غيرَ ابن النواحة، قال له: سمعتُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول: لولا أنك رسول لضربتُ عنقك، فأنت اليوم لستَ برسول، فأمَر قرظة بن كعب

---

(1): رواه أحمد في المسند (80/5) وأبو يعلي (9/9) وغيرهما وله شواهد، انظر فتح الباري، باب وفد عبد القيس

(2) : رواه ابن حبان رقم: 7326، وانظر الفتح 184/12.

(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4026.

(4) : رواه أحمد في المسند (487/3) وأبو داود.

فضرب عنقه بالسوق[1]. ثم قال: من أراد أن ينظر إلى ابن النواحة قتيلا بالسوق. وقال أبو رجاء العطاردي: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخيرَ منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا، جمعنا جثوة من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليها، ثم طفنا به، فإذا دخل شهر رجب قلنا: منصل الألسنة، فلا ندع رمحًا فيه حديدة، ولا سهمًا في حديدة، إلا نزعناه وألقيناه شهر رجب، وقال أبو رجاء: كنت يوم بعث النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم غُلامًا أرعَى الإبل على أهلي، فلما سمعنا بخروجه، فررنا إلى النار: إلى مسيلمة الكذاب[2]، والمقصود: أن فتنة مسيلمة كانت عارمة، حتى سماه غلاة أصحابه: رحمان اليمامة، وألقى إليهم مما زعمه وحيًا، إلا أن ما يؤثر من ذلك لا يصح، كما أن نص كتابه إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ليس له سند معتبر. ومعلوم أنه قتل في خلافة الصديق رضي اللّه عنه. كما أن الأسود العنسي، ويسميه المؤرخون: عَبْهَلة، قُتل قبل وفاة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بيوم وليلة، وجاء الخبر بذلك صبيحة دفنه صلى اللّه عليه وآله وسلم. وما ورد في سيرة ابن هشام، في خبر وفد بني حنيفة: أنه بقي في رحال قومه وأنهم أخبروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم به، فقال: إنه ليس بشركم، وإنه كان يحتج بهذه الكلمة لما ادّعى ما ادّعى، فلا يصح. وما ذكرناه هو الصحيح.

وفد الأشعريين

ووفد الأشعريون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفيهم أبو موسى، وسبق أن وفد مع قدوم جعفر بن أبي طالب رضي اللّه عنه من الحبشة، ويظهر أنه عاد إلى قومه، فجاء بهم، وبشر صلى اللّه عليه وآله وسلم بهم فقال: يقدم عليكم أقوام هم أرق منكم قلوبا، أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدةً وألين قلوبًا، الإيمان يمانٍ، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنَم[3]. وقال جبير بن مطعم رضي اللّه عنه: بينما نحن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بطريق مكة، إذ قال: يطلع عليكم أهل اليمن، كأنهم السحاب، هم خيار مَن في الأرض، فقال رجل من الأنصار: ولا نحن يا رسول اللّه، فسكت ثلاث مرات، وفي الثالثة قال كلمة ضعيفة: إلا أنتم[4]. ولما دنوا من المدينة أخذوا يرتجزون:

غدا نلقى الأحبة ... محمدًا وحزبَه

ومن الحديث قبولهم البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم في حديث

(1) : رواه أبو داود ـ الجهاد (رقم: 2381)، وهو حسن.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4027.
(3) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4037.
(4) : رواه أحمد في المسند (84/4) وهو حسن.

وفد بني تميم، ومما يتضمن مدحهم قوله صلى اللّه عليه وآله وسلم: الإيمان هاهنا ـ وأشار إلى اليمن ـ وغلظ القلب في الفدادين (أصحاب الإبل) عند أصول أذناب الإبل، من حيث يطلع قرنا الشيطان: ربيعة ومضر[1].

وفد مُزينة

وقدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفد مزينة في أربعمائة، فأمرهم رسول اللّه ونهاهم، فقال بعضهم: يا رسول اللّه ما لنا طعام نتزوده؟ فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم لعمر: زَوِّدْهم، فقال: ما عندي إلا فاضلة من تمر وما أراها تغني عنهم شيئًا، فقال: انطلق فزوِّدهم، فانطلق إلى عَلية له فإذا فيها تمر مثل البَكر الأورق (الجمل الأسمر، يعني في الكثرة والجودة) فقال: خذوا، فأخذوا حاجتهم. قال النعمان بن مُقرِّن: كنت أنا في آخر القوم، فالتفتُّ وما أفقد موضع تمرة وقد احتَمل منه أربعمائة رجل[2] (وهذا من معجزاته صلى اللّه عليه وآله وسلم في تكثير الطعام والبركة فيه).

وفد دَوس

ووفد الطفيل بن عمرو إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، وكان قدم عليه بمكة[3]، فقال: إن دوسا قد هلكت، عصت وأبت، فادع اللّه عليهم، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: اللهم اهْد دَوسا وائت بهم، هذا صحيح، أما خبره المفصل بمكة: فرواه ابن إسحاق بدونَ سند. ودَوس قوم أبي هريرة رضي اللّه عنه، وقد قال: لما قدمتُ على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قلت في الطريق: (الطويل)

ويا ليلةً من طولها وعَنائها

على أنها دارة الكفر نجّت

وأَبَق غلام لي في الطريق، فلما قدمت على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وبايعته، فبينما أنا عنده إذ طلع الغلام، فقال لي النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم: يا أبا هريرة، هذا غلامك، فقلت: هو لوجه اللّه، فأعتقتُه[4].

وفد نجران

وقدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وفد نصارَى نَجران، يرأسهم صاحبا نجران: العاقب والسيد، وأرادا المبَاهلة (الملاعنة) فلما رأيا إجابة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال أحدهما لصاحبه:

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4036.
(2) : رواه أحمد في المسند (445/5) وهو حسن.
(3) : رواه مسلم (108/1).
(4) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4042.

لا تفعل، فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لا نفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، قالا: إنا نعطيك ما سألتَنا (يعني الجزية)، وابعث معنا رجلا أمينًا، ولا تبعث معنا إلا أمينًا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لأبعثنَّ معكم رجلا أمينًا حقَّ أمين، فاستشرف له أصحابُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: قم يا أبا عبيدة بنَ الجراح، فلما قام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هذا أمين هذه الأمة[1].

ومما ثبت في أهل نجران: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث إليهم المغيرة بن شُعبة، فلما بلغهم قالوا له: إنكم تقرأون: (يا أخت هارون) وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدم المغيرة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سأله عن ذلك فقال: إنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم[2]. رما جاء في سيرة ابن إسحاق، وطبقات ابن سعد، ومغازي الواقدي من التفاصيل حول هذا الوفد، فإنها ـ مع الأسف) بدون أسانيد، أو معلّقة.

وفد كِندة

ووفد على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وفد كندة. قال الأشعث بن قيس: أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسَلم في وفد كندة، ولا يروني إلا أفضلهم، فقلت: يا رسول الله، ألستُم منا؟ فقال: نحن بنو النضر بن كنانة، لا نقفو أمّنا ولا ننتفي من أبينا، فكان ابن قيس يقول: لا أوتي برجل نفى رجلا من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ[3]. وسأل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الأشعث: هل لك من ولد؟ قال: غلام ولد لي في مخرجي إليك من ابنة جمد، ولوددتّ أن مكانه شبع القوم، قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا تقولن ذلك، فإن فيهم قرة عين، وأجرًا إذا قبضوا، ثم ولئن قلتُ ذلك: إنهم لمجبَنة محَزنة، إنهم لمجبنة محزنة[4].

وفد بني محارب

ثم قدم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طارق ابن عبد الله وأصحابُه المدينة ليمتاروا، قال طارق في سياق القصة: رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مر بسوق ذي المجاز، وأنا في بياعة لي، فمر وعليه حلة حمراء، فسمعتُه يقول: يا أيها الناس، قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا، ورجل يتبعه يرميه بالحجارة قد أدمى كعبه وهو يقول: يا أيها الناس لا تطيعوا هذا فإنه كذاب، فقلت:

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4029.
(2) : رواه مسلم (1684/3).
(3) : رواه ابن ماجة ـ الحدود (رقم: 2602) ـ بسند قوي.
(4) : رواه أحمد (رقم: 20838) والحاكم في المستدرك (239/4) وصححه وسكت عنه الذهبي.

مَن هذا؟ فقيل: هذا غلام من بني عبد المطلب (وهذا كان قبل الهجرة) قال طارق: فلما أظهر اللّه الإسلام، خرجنا من الربَّذة، ومعنا ظعنة (امرأة) لنا، حتى نزلنا قريبًا من المدينة، فبينما نحن قعود، إذ أتانا رجل عليه ثوبان، فسلم علينا فقال: من أين القوم؟ فقلنا: من الربَّذة، ومعنا جمل أحمر، فقال: تبيعوني هذا الجمل؟ فقلنا: نعم، فقال: بكم، فقلنا: بكذا وكذا صاعًا من تمر، قال: أخذته وما استقصَى، فأخذ بخطام الجمَل فذهب به، حتى توارى في حيطان المدينة، فقال بعضناَ لبعض: أتعرفون الرجل؟ فلم يكن منا أحد يعرفه، فَلاَمَ القومُ بعضُهم بعضا فقالوا: تعطون جَملكم مَن لا تعرفون؟ فقالت الظعينة: فلا تَلاوَمُوا فلقد رأينا وجهَ رجل لا يغدر بكم، ما رأيتُ شيئًا أشبَهَ بالقمر ليلة البدر من وجهه. فلما كان العشي،أتانا رجل فقال: السلام عليكم ورحمةُ اللّه وبركاته، أنتم الذين جئتم من الربَّذة؟ قلنا: نعم، قال: أنا رسول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم إليكم، وهو يأمركم أن تأكلوا من هذا التمر حتى تشبعوا، وتكتالوا حتى تستوفوا، فأكلنا من التمر حتى شبعنا، واكتلنا حتى استوفينا، ثم قدمنا المدينةَ من الغد، فإذا رسولُ اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قائم يخطب الناس على المنبر، فسمعتُه يقول: يد المعطي العليا، وابدأ بمَن تعول: أمَّك، أباكِ، وأختك وأخاك، وأدناك أدناك، وثَم رجل من الأنصار فقال: يا رسول اللّه، هؤلاء بنو ثعلبةَ بن يربوع، الذين قتلوا فلانًا في الجاهلية، فخذ لنا بثأرنا، فرَفَعَ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يديه حتى رأيت بيا ضَ إبطيْه فقال: لا تجني أم ولد على ولد، ولا تجني أم ولد على ولد[1].

وفد بني أسد

وقدم على النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وفد بني أسد، وتكلموا فأبانوا فقالوا: يا رسول اللّه، قاتلتك مضر كلها ولم نقاتلك، ولسنا بأقلهم عددًا، ولا أقلهم شركة، وصلنَا رَحمك، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لأبي بكر وعمر رضي اللّه عنهما حيث سمع كلامهم: أيتكلمون هكذا؟ قالا: يا رسول اللّه،إن فقههم لقليل، وإن الشيطان لينطق على لسانهم[2]، وفيهم نزلت: «(يمنون عليك أن أسلموا، قل لا تمنوا علي إسلامكم بل اللّه يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين)» ﴿الحجرات، آية: 17﴾.

وفود جرير البَجَلي وقومه

وقدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينةَ جرير بن عبد اللّه البَجَلي في قومه بُجَيلة، قال: لما دنوت من المدينة، أنختُ

---

(1) : رواه الحاكم في المستدرك (611/2) وصححه وأقر. والنسائي وابن ماجة قطعا منه، وهو صحيح.
(2) : رواه أبو يعلى في مسنده رقم: 2309 بسند صحيح.

راحلتي، ثم حللت عَيبئي ثم لبست حلتي، ثم دخلتِ فإذا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يخطب، فرماني الناس بالحَدَق (بعيونهم) فقلت لجليسي: يا عبد اللّه، هل ذكرني رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم؟ قال: نعم ذَكَرك بأحسن الذكر، بينما هو يخطب إذ عرض لك في خطبته فقال: يدخل عليكم من هذا الباب، أو من هذا الفَج من خير ذي يَمَن، ألا إن على وجهه مسحة مَلك، قال جرير: فحمدت اللّه عز وجل على ما أبلاني، وقال: ما حجبني عنه رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم[1].

وقد بعثه صلى اللّه عليه وآله وسلم لهَدم صَنَم ذي الخلصة في اليمَن في سَرية، فلنستمع إليه يحكي قصته المثيرة، قال: قال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: ألا تريحني من ذي الخلصَة؟ فقلت: بَلى، فانطلقتُ في خمسين ومائة فارس من أحمَس، وكانوا أصحابَ خيل، وكنت لا أثبُتُ على خيل، فذكرتُ ذلك للنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فضَرَب يده على صدري وقال: اللهم ثَبِّته، واجعله هاديًا مهديًا، قال: فما وقعتُ عن فرس بعد، قال: وكان ذو الخلصَة بيتًا باليمن لخثْعَم وبُجَيلة. فيه نَصب يُعبد يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرقَّها بالنار وكسّرها. ولما قدم جرير اليَمن كان بها رجل يستقسم بالأزلام، فقيل له: إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ها هنا، فإن قَدَر عليك ضَرَب عنقك، فبينما هو يضرب بها، إذ وقف عليه جرير فقال: لتكسرَنَّها، ولتشهَدَن أن لا إله إلا اللّه، أو لأضربن عنقك، قال: فكسرها وشهد، ثم بعث جرير رجلا من أحمس، يكنى أبا أرطاة إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يبشره بذلك، فلما أتى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم قال: يا رسول اللّه والذي بعثك بالحق، ما جئت حتى تركتها كأنها جَمل أجرب قال: فبَرَّك النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم على خَيل أحمس ورجالها خمسَ مرات[2].

وفادة فروة بن مُسَيك

ووفد على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: فَرْوة بن مُسيك المرادي مفارقًا لملوك كندة، فأسلم، وأمّره النبي على قومه، فقال: يا رسول اللّه. ألا أقاتل من أدبر من قومي بمن أقبل منهم؟ فأذن لي في مقاتلتهم، قال: فلما خرجتُ من عنده، سأل عني: ما فعل الغُطيفي؟ فأخبر أني قد سرتُ، فأرسل في أثري فردني فأتيتُه وهو في نفر من أصحابه، فقال: ادعُ القوم، فمن أسلم منهم، فاقبل منه، ومن لم يُسلم فلا تعجل حتى أحدث إليك، قال: وأنزل في سبأ ما أنزل[3].

(1) : رواه أحمد في المسند (356/4) بسند صحيح، وغيرُه.
(2) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4009.
(3) : الترمذي ـ التفسير (رقم: 3146) ـ وله بقية، وحسنه، وصححه الألباني.

وفادة تميم الداري

وقدم المدينة: تميم الداري، وكان رجلاً نصرانيًا. فجاء فبايع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وأسلم، وحدث بخبر الجسَّاسة والدجالِ، فجمع النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم الناسَ، وحدثهم بخبر تميم، وقال: حدثني حديثًا وافقَ الذي كنتُ أحدثكم عن المسيح الدجال، ثم ذكر قصته الطويلة وهي صحيحة رواها مسلم وغيره في الفتن.

وفادة الحكَم بن حَزْن

كما قدم على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الحَكَم بن حَزْن الكُلفي التميمي سابع سبعة أو تاسع تسعة، فأذن لهم فدخلوا عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال الحكم: يا رسول اللّه، أتيناك لتدعوَ لنا بخير، فدعا لهم صلى اللّه عليه وآله وسلم بخير، ولبثوا أياما عنده. وشهدوا الجمعة، ورأوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم يخطب متوكئًا على قوس أو عصا، فحَمِدَ اللّه وأثنى عليه، كلمات طيبات خَفيفات مباركات، وسمعوه يَقول: يا أيها الناس، إن تفعلوا ولن تطيقوا كل ما أمرتم به، لكن سددوا وأبشروا[1].

وهناك وفود أخرى كثيرة، أفاضت كتبُ السيرة في بسط أخبارها وقصصها، وقد أشرتُ قبلُ إلى أنها لاتصح، ورغم ذلك فقد رأيتُ ابنَ القيم رحمه اللّه في (الزاد) يذكر بعضها كوفد صُداء، ويستنبط مما جرى له أحكاما فقهية رغم ضعف خبره، وهذا عجيب منه، ومن أمثلها: وفادة عبد الرحمن بن أبي عقيل مع قومه من ثقيف، وفاتنا ذكره سابقا، قال عبد الرحمن: انطلقت في وفد (في رواية ابن أبي شيبة: وفد ثقيف) إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأتيناه، فأنخنا بالباب، وما في الناس أبغض إلينا من رجل نلج عليه، فما خرجنا وفي الناس أحب إلينا من رجل دخلنا عليه، فقال قائل منا: يا رسول اللّه، ألا سألت ربك مُلكا كملك سليمان بن داود؟ فضحك صلى اللّه عليه وآله وسلم ثم قال: لعل لصاحبكم عند اللّه تعالى أفضل من ملك سليمان، إن اللّه تعالى لم يبعثَ نبيًا إلا أعطاه دعوة، فمنهم من اتخذها دنيا فأعطيها، ومنهم مَن دَعا بها على قومه إذ عصوه فأهلكوا بها، وإن اللّه عز وجل قد أعطاني دعوة، فاختبأتُها شفاعة عند ربي لأمتي يوم القيامة[2].

ولو لم يكن في خبر هذه الوفود وما تخللها من أوامرَ ووصايا، علاوة على ما يؤخذ منها من فقه وأحكام، إلا دلالتها الواضحة على انتشار أمر الإسلام، ورغبة الناس في الدخول فيه، وتوحيد

(1) : رواه أحمد في المسند (212/4) وحسنه الحافظ.
(2) : انظر: المطالب العالية (120/5) قال البوصيري: رواته ثقات.

الجزيرة العربية تحت لوائه، وبروزِ طلائع الدولة الإسلامية الفتية التي سُرعان ما بسطت نفوذَها شرقًا وغربًا، وانطلقت من مدينتها النبوية الجيوشُ الإيمانية لإعلاء كلمة اللّه، وفتح القلوب والأمصار، ورفع راية التوحيد، ففي أقلَّ من خمسين سنة، كانت كلمة اللّه تُدوي في ثلثي العالم القديم، وهو أجلى مظهَر لوفاء اللّه بوعده بالنصر، ودخول الناس أفواجًا في دين اللّه. وقد رأينا فيها حسنَ استقبال الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم لوفوده، وإقباله عليهم، وإكرامهم، وإجابة أسئلتهم، وتعليمهم أمور دينهم، وجلوسه معهم في مسجده، مما يدل على جواز دخول الكفار للمساجد لغرض مشروع، وقد استقبل صلى اللّه عليه وآله وسلم فيه المشركين، فأهل الكتاب أولى بالجواز، وقد مضى أنه استقبل وفدَ نجران وهم نصارى في المسجد، والحكم عام إلا في المسجد الحرام فلا يجوز.

إرسال الرسل للدعوة

وفي هذه الفترة وقبل حجة الوداع: أرسل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم رُسلا وبعوثًا للدعوة، فأرسل علي ابن أبي طالب، وخالد بن الوليد رضي اللّه عنهما إلى اليمن، وكتب إليهم معهما يدعوهم إلى الإسلام في جمع منهم البراء بن عازب رضي اللّه عنه قال البراء: فلما دنونا من القوم، خرجوا لنا فصلى بنا علي، ثم صفنا صفًا واحدًا، ثم تقدم بين أيدينا، وقرأ عليهم كتاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فأسلمت همْدَان جميعًا، فكتب علي رضي اللّه عنه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بإسلامهم، فلما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الكتابَ خر ساجدًا، ثم رفع رأسه فقال: السلام على هَمْدان، السلام على هَمْدان[1]. وبعث بعد ذلك معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي اللّه عنهما إلى اليمَن أيضا، قال أبو موسى: أقبلتُ إلى النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم ومعي رجلان من الأشعريين، أحدهما عن يميني، والآخر عن شمالي، وكلاهما سأل العمل، والنبي صلى اللّه عليه وآله وسلم يستاك، فقال: ما تقول يا أبا موسى، أو يا عبد اللّه بنَ قيس؟ قلت: والذي بعثك بالحق ما أطلعاني على ما في أنفسهما، وما شعرت أنهما يطلبان العمل، وكأني أنظر إلى سواكه تحت شفته قلصت، قال: لن نستعمل -أو لا نستعمل على عملنا من أراده، ولكن اذهب أنت يا أبا موسى، أو يا عبد اللّه بنَ قيس، فبعثه على اليمَن، ثم أتبعه معاذ بن جبل رضي اللّه عنه قال: فلما قدم عليه معاذ قال: انزل، وألقى له وسادة. وإذا رجل عنده مُوثَق، قال: ما هذا، قال: كان يهوديا فأسلم، ثم رَجَع إلى دينه دين السوء، قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء اللّه ورسوله، قال: نعم، اجَلس قال: لا أجلس حتى يُقتل، قضاء اللّه ورسوله ثلاَث

(1) رواه البيهقي في الكبرى (2/369) وأصله في البخاري (رقم: 4002).

مرات، فأمر به فقُتل، ثم تذاكرا قيامَ الليل، فقال معاذ: أما أنا فأنام، وأقوم، أو أقوم وأنام، فأرجو في نومتي ما أرجو في قومتي، وبعثهما صلى اللّه عليه وآله وسلم مرة أخرى فقال لهما: يَسّرا ولا تُعَسرا، وبَشّرا ولا تنفرا، وتَطاوعَا، فقال أبو موسى: يا نبيَّ اللّه إن أرضنا فيها شراب من الشعير: المزَر، وشراب من العسل: البتع، فقال: كل مسكر حرام، فانطلقا، فقال معاذ لأبي موسى: كيف تقرأ القرآن، قال: قائمًا، وقاعدًا، وعلى راحلتي، وأتفوقه تفوقًا، وأوصى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حين أتبع أبا موسى معاذا فقال: إنك ستأتي قومًا من أهل الكتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه، فإن هم أطاعوا بذلك، فأخبرهم أن اللّه قد فرض عليهم خمسَ صَلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا بذلك، فأخبرهم أن اللّه قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائمَ أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين اللّه حجاب[1]. وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم يوصيه ماشيًا، ومعاذ راكب، فلما فرغ قال: يا معاذ إنك عسى أن لا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمر بمسجدي وقبري، فبكى معاذ رضي اللّه عنه خاشعًا لفراق النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال له: لا تبك يا معاذ، البكاء -أو إن البكاء- من الشيطان[2].

ودخل العام العاشر للهجرة، وفيه فرض الحج، فحج النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم فيه حجة الوداع[3]، ودّع الناسَ فيها ولم يحج بعدها، وتسمى حجة البلاغ، وحجة الإسلام. ولما أعلن صلى اللّه عليه وآله وسلم عزمَه على الحج، قدم المدينة جموع من المؤمنين راغبين في الحج معه صلى اللّه عليه وآله وسلم مؤتمين به، مترسمين خُطاه، وخرج من المدينة لخمس بقين من ذي القعدة، بعدما ترجّل وادّهن ولبس إزاره ورداءه، هو وأصحابه، وبات بذي الحُليْفة، ولما أصبح ركب راحلتَه، فلما اسْتَوتْ به أهلَّ، وساق جابر بن عبد اللّه رضي اللّه عنه حديث حجته صلى اللّه عليه وآله وسلم وما تخللها من أحداث ومواقف، وخطبة الوداع. مستقصًى مفصلا، وهو في الصحيح، وقد أفرده الناس بالتأليف، لتضمنه مناسك الحج وأعماله وقوله صلى اللّه عليه وآله وسلم فيه: لتأخذوا عني مناسككم، علاوة على ما أخذ منه من فوائد، وأحكام، ومسائل. وقد جمع شيخنا أبو عبد الرحمن ناصر الدين الألباني رحمه اللّه وطيب ثراه: ألفاظه، ورواياته في رسالة لطيفة جامعة، زينها بهوامش جد نافعة، وذيلها بقائمة بدَع الحج والعُمرة. ومن أراد الوقوف على هذا فعليه بها. وهي

---

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4000.

(2) : رواه أحمد في المسند (235/5) وهو جيد.

(3) : انظر: زاد المعاد 394/3، ورواه ابن إسحاق بسند حسن.

ميسورة متَداوَلة، ولما كان النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم بمكةَ قدم علي بن أبي طالب وأبو موسى رضي اللّه عنه من اليمن، فسأل النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم عليًا بِمَ أهللت؟ قال: بما أهل به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقال: لولا أني معي الهَدي، لأحللتُ (يعني أنه صلى اللّه عليه وآله وسلم أهلَّ قارنًا بين الحج والعمرة، وكان أمرَ أصحابه الذين أهلوا بالإفراد، أعني بالحج وحده، أن يفسخوا نيتَهم، ويجعلوها عُمرة، وأخبر صلى اللّه عليه وآله وسلم أن هذا العمل عامّ مستمر، وقال: دخلتْ العمرةُ في الحج إلى يوم القيامة. ورغم ثبوت هذا في عدة أحاديث، فما زال الناسُ –ولا سيما المالكية- يحُجُّون بالإفراد، ولا أدري ما هذا؟ ورجع صلى اللّه عليه وآله وسلم بعد الفراغ من الحج أواخر ذي الحجة من العام العاشر، وفي أواخر صفر من العام التالي، دعا صلى اللّه عليه وآله وسلم الناسَ إلى جهاد الروم بالبلقاء، وفلسطين، وجهز جيشًا كبيرًا عدته ثلاثة آلاف، فيه كبار المهاجرين والأنصار، ومنهم: عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه وأمر عليهم أسامة بن زيد رضي اللّه عنه فطعن بعض الناس في إمارته لصغر سنه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: إن تطعنوا في إمارته، فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قِبل، وأيم اللّه إن كان لخليقًا للإمارة، وإن كان لمن أحب الناس إليَّ بعده[1].

ابتداء مرض الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم وموته

وبعد الشروع في تجهيز هذا الجيش بيومين، بدأ مرض رسول اللّهِ صلى اللّه عليه وآله وسلم فرجع إلى المدينة. والجيش معسكر بالجرف، ولم ينفذ إلا بعد وفاته صلى اللّه عليه وآله وسلم أنفذَه أبو بكر الصديق خليفته من بعده رضي اللّه عنه. وبعد عودته صلى اللّه عليه وآله وسلم من حجة الوداع بنحو ثلاثة أشهر، عاوده المرض الذي بدأ به العام السابع بعد فتح خيبر، إثِر تناوله من الشاة المسمومة التي قدمتها له زينب زوجُ سلام بن مشكم اليهودية. ورغم أنه لَفَظها وأخبر أنَّ الذراعَ أخبرتْه بأنها مسمَومة، إلا أن أثر لوكه بدأ عليه، وكان يقول صلى اللّه عليه وآله وسلم في مرض موته: ما زالت أكلة خيبر تعاودني، والآن قطعت أبهَري[2].

وكان بدء الشكوى الأخيرة ببيت أم المؤمنين ميمونة، واستمر مرضه عشرة أيام، ومات يوم الإثنين ثاني عشر ربيع الأول سنة إحدى عشرة من الهجرة ورجح الحافظ ابنِ حجر: أن الوفاة كانت ثاني ربيع الأول، وأن الناس زادوا (عَشر) خطأ. وجرى العمِل على هذا الخطأ. والعجب: أن الحافظ اعتمد في ترجيحه قول أبي مخِنَف لوط مع علمه بأنه غير ثقة. واستأذن رسولَ اللّه

(1) : رواه البخاري ـ المغازي رقم: 4109.
(2) : رواه البخاري ـ الفتح (131/8).

أزواجَه أن يُمرَّض في بيت عائشة رضي اللّه عنها فأذنَّ له، وكانت رضي اللّه عنها رفيقةً به، تمسح بيده عليه لبركتها. وتقرأ عليه المعوذتين[1]. وزار صلى اللّه عليه وآله وسلم في مرضه: البقيعَ، واستغفر لأهله، قال أبو مويهبة مولى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم : بعثني رسول اللّه من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة. إني قد أمرتُ أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنى لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتنُ كقطع الليل المظلم، يتبع آخرُها أولَها، الآخرة شر من الأولى، ثم أقبل علي فقال: يا أبا مويهبة. إني قد أوتيتُ مفاتيح خزائن الأرض، والخلد فيها ثم الجنة، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيحَ خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا واللّه يا أبا مويهبة، لقد اخترتُ لقاء ربي والجنة، ثم استغفر لأهل البقيع وانصرف، فبدأ برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وجَعُه الذي قبضَه اللّه فيه[2]. وصلى رسول اللّه على شهداء أحد بعد ثماني سنين كالمودِع لهم وللأحياء، وصعد المنبر فخطب وقال: إني بين أيديكم، وإني فرَطكم على الحوض، وإن عَرضه كما بين أيْلة إلى الجحفة، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا، وإني عليكم شهيد، وإني لستُ أخشى عليكم أن تشركوا بعدي، ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هَلَك من كان قبلكم. قال عقبة بن عامر: فكانت آخر ما رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم على المنبر[3]. وينبغي أن يعلم: أن كلام رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم موجه للمخاطبين يومئذ من أصحابه، لأنه أنذر بافتراق أمته على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار، إلا الجماعة التي على هَدْية وهدي أصحابه، وإن الشرك سيعود إلى أمته، ويفشو حتى تضطربَ آليات نساء دَوس حَول ذي الخلصة، وهو الصنم الذي أحرقه وهدّمه جرير بن عبد اللّه كما تقدم، واشتد به مرضُه بعد عودته من البقيع. قالت عائشة رضي اللّه عنها: فوجدني وأنا أجدُ صُداعاً وأقول: وارَأساه، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: بل أنا واللّه يا عائشة، وارَأسَاه، ثم قال: ما ضرك لو متِّ قبلي، فقمتُ عليك وكفنتك وصليتُ عليك ودفنتك، فقالت: واللّه كأنني بكَ لو قد فعَلتَ ذلك، لقد رجعتَ إلَى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسم رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، وتتامّ به وجعُه[4]، قالت: وما رأيت رجلا أشد عليه الوجَع من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله

---

(1) : رواه البخاري ـ الفتح (131/ش8).
(2) : رواه الحاكم في المستدرك (55/3) وصححه وأقر.
(3) : رواه البخاري ـ الجنائز رقم: 3736.
(4) : رواه ابن إسحاق بسند صحيح.

وسلم[1]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: دخلتُ عليه صلى الله عليه وآله وسلم وهو يُوعَك، فمسستُه بيدي فقلت: يا رسول الله، إنك لتُوعك وعْكا شديدًا، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أجل، إني أوعك كما يوعك رجلان منكم، فقلت: ذلك أن لك أجرين، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أجل، ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حط الله به سيآته كما تُحط الشجرة ورَقَها[2]. وخرج صلى الله عليه وآله وسلم إلى بيت عائشة محمولا بين علي بن أبي طالب وعمه العباس رضي الله عنهما، تُخط رجلاه في الأرض، واشتدت حرارتُه فقال: أريقوا عليَّ من سَبع قرَب، لم تُحلل أو كيتُهُن، لعلي أعهَد إلى الناس، فأجلس صلى الله عليه وآله وسلم في مخضَب لحفصة أم المؤمنين رضَي الله عنها وأريقت عليه القرَب، حتى أشار إليهم: أن حَسْبُكم[3]، ثم خرج صلى الله عليه وآله وسلم عاصبًا رأسه بخرقة، وقد وجَد خفة، وجلس على المنبر، وخَطب فقال: إن الله خير عبدًا بين الدنَيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، وهنا بكى أبو بكر رضي الله عنه. قال أبو سعيد: فقلت في نفسي: ما يُبكي هذا الشيخ؟ إن يكن الله خيرَّ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله، فكان رسول الله هو العبد، وكان أبو بكر رضي الله عنه أعلمنا، فقال له صلى الله عليه وآله وسلم: يا أبا بكر، لا تبك، إن من أمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله: أبا بكر، ولو كنتُ متخذا خليلا لاتخذتَّ أبا بكر، ولكن إخوة الإسلام ومودته، لا يبقَينَّ في باب المسجد باب إلا سُدَّ إلا بابَ أبي بكر[4]، وكان مما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته هذه: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد (يحذِّرُ مما صنعوا)[5]، وقال: لا تتخذوا قبري وثنا يُعبد. وعَرَض صلى الله عليه وآله وسلم نفسَه للقصاص فقال: من كنتُ جلدتَّ له ظهرًا فهذا ظهري ليستقد منه، ثم نزل فصلى الظهر، ثم عاد لمنبره لمواصلة الحديث والوصية، فقال رجل: إن لي عندك ثلاثة دراهم، فقال: أعطه يا فضل، وقال آخر: إنه غل ثلاثة دراهم، فقال: خذها يا فضل[6]، وأوصَى بالأنصار خيرًا فقال: أوصيكم بالأنصار خيرا، فإنهم كَرشي وعَيبَتي، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا منَ محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم، إن الناس يكثرون وتقل الأنصار، حتى يكونوا بمنزلة الملح في الطعام، فمن ولي منكم شيئًا يضر فيه أحدًا، أو ينفعه، فليقبل

---

(1) : رواه البخاري في مرضه صلى الله عليه وآله وسلم رقم: 5214.
(2) : رواه البخاري في مرضه صلى الله عليه وآله وسلم. رقم: 5215.
(3) : رواه البخاري رقم: 4088.
(4) : رواه البخاري ـ الصلاة رقم: 446.
(5) : رواه مالك في الموطأ رقم: 1387. والشيخان في مواضع (البخاري: -1244-1301 417... ومسلم: 823-826).
(6) : رواه البخاري ـ الفتح رقم: 3799.

من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم.

وفي الخميس، قبل الوفاة بأربعة أيام، قال ابن عباس رضي الله عنهما عن هذا اليوم: يومُ الخميس، وما يومُ الخميس، بكى ابن عباس حتى بلَّ دمعُه الحصَى وقال: اشتد وجعُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال في جمع فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هلم أكتُبْ لكم كتابًا لن تِضلوا بعدِي، أو لا تَضلون بعده، فقال عمر رضي الله عنه: إن رسول الله قد غلب عليه الوَجَع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فتنازعوا وما ينبغي عند نبي تنازع، حتى قالوا: أهَجَر؟ استفهموه، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: دعوني، فالذي أنا فيه خيرٌ، أوصيكم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، أجيزوا الوفد بنحو ما كنتُ أجيزهم، قال: وسكت عن الثالثة، ثم قال لهم: قوموا، ولعل الثالثة قوله: الله الله، الصلاة وما ملكت أيمانكم وما يكاد يفيض[1]، وقال بعد ذلك: أحسنوا الظن بالله عز وجل[2]، وكان ابن عباس رضي الله عنهما يقول: إن الرزية كلَّ الرزية، ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وبين أن يكتُب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولَغَطِهم.

وقد استغل الشيعة والروافض هذا القول من عمر وابن عباس رضي الله عنهما أسوأ استغلال، فنفّسوا عن حقدهم البالغ للفاروق رضي الله عنه، وطعنوا عليه واتهموه بمحاوَلة صرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الكتاب، لأنه - فيما يزعمون - كان سيُوصي مؤكدًا بالخلافة لعلي رضي الله عنه. ومعلوم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم معصوم، فلو كان أراد الوصية به واجبًا لازمًا لما سَكت والتبليغ آكَد الواجبات عليه. وقد أوصاهم ساعتئذ مشافهة بإخراج المشركين من جزيرة العرب، وإجازة الوفود، وكان الصحابة يراجعونه أحيانًا ما لم يجْزمْ بالأمر. وسأل صلى الله عليه وآله وسلم ليلة: أصلى الناس؟ وكانوا ينتظرون خروجَه للعشاء، فقيل: لا، وهم ينتظرونك، فقال: ضعوا لي ماء في المخضَب، فاغتسل فذهب لينوء (يقوم) فأغمي عليه، ثم أفاق وسأل، فقيل له كالمرة الأولى، فأراد أن يقوم فأغمي عليه فأفاق، وقد ثقُل جدًا، وقال: مروا أبا بكر فليصلِّ بالناس، وجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فأرسل إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال، وكان رجلا رقيقا: يا عمرُ صَل بالناس، فقال عمر رضي الله عنه: أنت أحق بذلك، فصلى أبو بكر، وقالت ابنته عائشة رضي الله عنها تعتذر عن أبيها: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقُم مقامك لا يُسمعُ الناسَ، فلو أمرتَ عمر؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: مروا أبا بكر فليصل بالناس، وقالت عائشة لحفصة رضي الله عنهما: قولي له ما قلتُ، فقال صلى الله عليه وآله

(1) : رواه ابن ماجة رقم: 2689. وهو صحيح.
(2) : رواه البيهقي في دلائل النبوة رقم: 3133 وذكره الذهبي في السيرة ، وصححه.

وسلم: إنكن لأنتن صواحبُ يوسُف، مروا أبا بكر فليصل بالناس. وكانت عائشة تخشى أن يتشاءم الناس بأبيها، إذ يقوم مقام الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم في مرضه، فأرادت أن يعدل عنه، ولم يكن أبو بكر رضي اللّه عنه حاضرًا فدعى عبد اللّه بن زَمعة عمر ليصلي بالناس، فعندما سمع صلى اللّه عليه وآله وسلم صوتَه قال: يأبَى اللّه ذلك والمسلمون، مرتين، فبعث إلى أبي بكر فصلَّى، وفي هذه إشارة إلى خلافة أبي بكر من بعده صلى اللّه عليه وآله وسلم مع إشارات أخرى، وإلى هذا أشار الصحابة في سقيفة بني ساعدة بقولهم: رضيه رسول اللّه لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا، ووجد صلى اللّه عليه وآله وسلم في اليوم التَّالي خفةً فخرج ورجلاه تخطان في الأرض لصلاة الظهر، وعندما رآه أبو بكر، أراد أن يتأخر، فأومأ إليه صلى اللّه عليه وآله وسلم بأن لا يتأخر، وقال: أجلساني إلى جنبه، فجعل أبو بكر يصلي وهو يأتم بصلاته صلى اللّه عليه وآله وسلم والناس يأتمون بأبي بكر[1]. واجتمع نساؤه صلى اللّه عليه وآله وسلم عنده، فجاءت فاطمة رضي للّه عنها تمشي كأن مشيتها مشية رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فقال: مرحبا بابنتي، وأجلسها عن يمينه، ثم أسر إليها حديثًا فبكت، ثم سارّها فضحكت، قالت عائشة رضي اللّه عنها فسألتها عن ذلك، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فقلت: ما رأيتُ كاليوم فرحًا أقربَ من حزن، فقلت لها حين بكت: أخصك رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم بحديث دوننا ثم تبكين؟ وسألتهَا عما قال لها، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حتى إذا قبض صلى اللّه عليه وآله وسلم سألتها فقالت: إنه كان حدثني أن جبريل كان يعارضه بالقرآن كل عام مرة. وأنه عارَضَه به في العام مرتين. ولا أراني إلا قد حَضَر أجلي، وإنك أول أهلي لحوقًا بي، ونعم السلفُ أنَا لك، فبكيت لذلك، ثم إنه سارّني فقال: ألا ترضين أن تكوني سيدةَ نسَاء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة، فضحكت لذلك[2]. ولما رأت فاطمة رضي اللّه عنها ما بأبيها من الوجع قالت: واكربَ أباه، فقال لها صلى اللّه عليه وآله وسلم: ليس على أبيك كرب بعدَ اليوم[3]. وأعتق صلى اللّه عليه وآله وسلم غلمانه، وتَصدق بما عنده من دنانير، وكانت سبعة أو تسعة وقال: لا نُورَث، ما تركنا صدقة، لا يقتسم ورثتي دينارًا. ما تركتُ بعد نفقة نسائي، ومؤنة عاملي فهو صدقة. ولم يخلف صلى اللّه عليه وآله وسلم إلا بغلته التي كان يركبها وسلاحَه وأرضًا (بفَدَك)، جعلها لابن السبيل صدقة[4]. ودخل

(1) : رواه البخاري رقم: 646.
(2) : رواه البخاري ـ الأنبياء رقم: 3353. ومسلم ـ الفضائل رقم: 4487.
(3) : رواه البخاري مرض النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم رقم: 4103.
(4) : رواه البخاري رقم: 6232.

عليه أصحابه يعودونه فصلى بهم جالسًا، فصلوا بصلاته قيامًا، فأشار إليهم أن اجلسوا، فجلسوا، فلما انصرف قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا صلى جالسًا فصلوا جلوسًا[1]، ولُدَّ رسول اللّه (أي صب في جنب فمه اللَّدود، وهو الدواء) وهو يشير أن لا يفعلوا، فلما أفاق قال: ألم أنهكنّ أن تلدّوني، فقلن كراهية للدواء، وإنما لدُّوه لظنهن أنه أصيب بذات الجنب، فقال صلى اللّه عليه وآله وسلم: ظننتم أن اللّه عز وجل سلطها عليَّ، ما كان اللّه ليسلطها علي، والذي نفسي بيده، لا يبقى أحد في البيت إلا لد إلا عَمي، فلدوا. قال أسامة رضي اللّه عنه: دخلتُ على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم وقد أُصْمِتَ فلم يتكلم، فجَعَل يضع يديه علي ويرفعهما، فأعرف أنه يدعوا لي[2].

وجاء اليوم الأخير، وعاد صلى اللّه عليه وآله وسلم يتكلم، فأكد وصاياه، ورفع الستارة وهو معصوب الرأس والناس صفوف خلف أبي بكر، فقال: أيها الناس. إنه لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُرى له، ألا وإني نهيتُ أن أقرأ القرآن راكعًا وساجدًا، فأما الركوع، فعظموا فيه الرب عز وجل، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء فقمن أن يستجابَ لكم، اللهم هل بلغت ثلاث مرات. وكان من آخر ما أوصي به صلى اللّه عليه وآله وسلم: الصلاةَ الصلاةَ، اتقوا اللّه فيما ملكت أيمانكم. واستمر يوصي بالصلاة حتى الغرغرة[3]، كما قال أنس رضي اللّه عنه. وبدأت اللحظات الحاسمة، وحضَرَت الوفاة، فجعل يلقي على وجهه طرفَ خَميصة له، فإذا اغتم كشَفها عن وجه وهو يقول: لعنة اللّه على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت عائشة يحذر مثل الذي صنعوا[4]. قال أبو عبيدة بن الجراح رضي اللّه عنه: آخر ما تكلم به النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم (يعني في الوصية): أخرجوا يهود أهل الحجاز، وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أن شرار الناسَ، الذين يتخذون قبور أنبيائهم مساجد[5]. (قلت بالمناسبة، كان المسلمون مع بالغ الأسف وما زالوا، ولا سيما في القرون الأخيرة، ممن عصوا هذه الوصاية الأخيرة فاتفقوا إلا مَن رحم ربك، على بناء المساجد والقباب على القبور، وأدخَل اللّه مَن لا يخشى من حكام العرب المسلمين: اليهودَ والنصارَى أرضَ الجزيرة، حتى بلغ اليهود خيبرَ، فصلوا هناك وقال قائلهم: أبلغوا محمدًا أننا عُدنا، وألف الناسُ رؤية العلَم الأمريكي وبجنبه عَلم مكتوب عليه: لا إله إلا اللّه، محمد رسول اللّه، وبينما وزير يهودي أمريكي يملي أوامرَه على مَن أذلهم

(1) : رواه البخاري رقم: 647.
(2) : رواه الترمذي ـ رقم: 3753. وهو صحيح.
(3) : رواه ابن ماجة ـ الوصايا. رقم: 2688-2689.
(4) : رواه البخاري ـ الصلاة. وقد تقدم.
(5) : رواه أحمد في المسند (195/1) وأبو يعلى رقم: 838 بسند صحيح.

اللّه، وأَصمَّهم وأعمَى أبصارهم، وإلى اللّه المشتكى). قالت عائشة رضي اللّه عنها: كان صلى اللّه عليه وآله وسلم يقول وهو صحيح: إنه لم يُقبض نبي قط حتى يَرى مقعده في الجنة، ثم يُخير، قالت: فلما نُزل برسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ورأسُه على فخدي، غُشي عليه ساعة ثم أفاقِ، فأشخص بصرَه إلى السقف ثم قال- وفي صوته بُحة: اللهم الرفيقَ الأعلى، قالت: فقلتُ إذًا لا يختارنا، وعرفتُ الحديث الذي حدثنا به وهو صحيح، تعني: إنه لم يقبض نبي الخ، قالت: وكان آخر كلمة تكلم بها صلى اللّه عليه وآله وسلم قوله: اللهم الرفيقَ الأعلى، وقالت: إن من نعم اللّه علي أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم توفي في بيتي، وفي يومي، وبين سَحري ونَحري، وإن اللّه جمع بين ريقي وريقه عند موته، وذلك أنه دخل علي عبد الرحمن (تعني أخاها) وبيده السواك، وأنا مسندة رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فرأيتُه ينظر إليه، وعرفتُ أنه يحب السواك، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه: أن نَعَم، فتناوله فاشتد عليه وقلت: أَلينُه لك؟ فأشار برأسه: أن نَعَم، فليّنته فَأَمَرَّهُ، وبين يديه ركوة فيها ماء، فجعل يُدخل يديه في الماء فيمسح بهما وجَهه ويقول: لا إله إلا اللّه،إن للموت سكرات، ثم نصَب يديه فجعل يقول: في الرفيق الأعلى، حتى قُبض ومالت يده[1]، ولحق بالرفيق الأعلى. وكان ذلك حين اشتد الضحى، فقالت فاطمة تنعاه: يا أبتاه، أجاب ربا دعاه، يا أبتاه مَن جنةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه إلى جبريل ننعاه[2]، واشتد الكرب وعَظم الخطب، وجاء عمر والمغيرة رضي اللّه عنهما فاستأذنا ودخلا، فنظر عمر إليه وقال: واغشياه ما أشد غشيَ رسول اللّه، وقاما، فلما بلغا الباب قال المغيرة: يا عمرُ، مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قال: كذبتَ، بل أنت رجل تحوسك فتنة، إن رسول اللّه لا يموت حتى يُفني اللّه عز وجل المنافقين، ثم جاء أبو بكر على فرس له من مسكنه بالسنح، قالت عائشة: فرفعتُ الحجاب، فنظر إليه وقال: إنا للّه وإنا إليه راجعون، مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ، ثم أتاه من قبل رأسه فحَدَر فاه، وقبّل جبهتَه ثم قال: وانَبِياه، ثم رَفَع رأسَه، ثم حَدَر فاه، وقبّل جبهتَه ثم قال: واصَفيّاه، ثم رَفع رأسه، وحدر فاه وقبل جبهتَه وقال: واخليلاه، مات رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، فخرج إلى المسجد. وعمر رضي اللّه عنه يخطب الناس ويقول: ما مات رسول اللّه[3] في كلام، فقال له أبو بكر: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أما بعد، مَن كان منكم يعبد محمدًا صلى اللّه عليه وآله وسلم فإن محمدًا قد مات، ومن كان منكم يعبد

---

(1) : رواه البخاري ـ المرض والوفاة رقم: 4094.
(2) : رواه البخاري ـ المرض والوفاة رقم: 4103.
(3) : رواه أحمد في المسند (270/6) وغيره، وهو حسن.

اللّه فإن اللّه حي لا يموت، قال اللّه تعالى: «(وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفإن مات أو قُتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر اللّه شيئا ويجزي اللّه الشاكرين)» ﴿آل عمران، آية: 144﴾ قال ابن عباس رضي اللّه عنهما: واللّه لكأن الناسَ لم يعلموا أن اللّه أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها منه الناس كلهم، فما أسمعُ بشرًا من الناس إلا يتلوها، وقال عندها عمر: واللّه ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقرت حتى ما تُقلني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض حين سمعتُهَ تلاها، وعلمت أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم قد مات، وفي رواية البخاري في الجنائز عن موقف أبي بكر: أنه دخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فتيمَّم (قصَد) رسول اللّه وهو مُغشى بثوب حبَرة، فكشف عن وجهه، ثم أكب عليه فقبَّله وبكى، ثم قال: بأبي أنتَ وأمي، واللّه لا يجمَع اللّه عليك موتتين، فأما الموتة التي كُتبت عليك فقد متها، وتُحمل الروايتان على تعدد الموقف، ولا مانع منه، قال أنس رضي اللّه عنه: لما كان اليوم الذي دَخَل رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم المدينة، أضاء منها كلَّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه، أظلم منها كل شيء، وما نفضنا عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم الأيدي وإنا لفي دَفنه، حتى أنكرنا قلوبنا[1]. وقبل تجهيز رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لدفنه وهو في بيته على فراشه مسجى ببرُدته، والباب مغلق عليه، اشتغل الناس بالخلافة، وتعيين الخليفة، ووقع خلاف ومناقشات، وأخذ ورد، في سقيفة بني ساعدة، إلى أن وقع الاتفاق بمبادرة عمر رضي اللّه عنه إلى بيعة أبي بكر، وكفى اللّه المسلمين شرَّ الفتنة، وتلاعب الأهواء والشيطان بهم، وبايع الناس البيعة العامة إثر ذلك. ولما قعد أبو بكر رضي اللّه عنه على المنبر ينظر في وجوه القوم فلم يَرَ عَليًا رضي اللّه عنه فسأل عنه، فقام ناس من الأنصار فأتوا به، فقال أبو بكر: ابنَ عم رسول اللّه وختنَه. أردت أن تشق عصا المسلمين؟ فقال: لا تثريب يا خليفَة رسول اللّه فبايَعه، ثم لم ير أبو بكر: الزبيرَ بنَ العوام رضي اللّه عنه فسألَ عنه حتى جاءوا به. فقال: ابنَ عمة رسول اللّه وحواريّه، أردتَّ أن تشق عصا المسلمين؟ وقال مثل قوله: لا تثريبَ يا خليفة رسول اللّه فبايعه[2]، ثم خطب أبو بكر رضي اللّه عنه خطبتَه السائرة، فحمد اللّه وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثم قال: أما بعد، أيها الناس، فإني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنتُ فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدقُ أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيحَ عليه حقه إن شاء اللّه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء اللّه، لا يدع قوم الجهادَ في سبيل

(1) : رواه الترمذي (588/5)
(2) : رواه الحاكم في المستدرك (76/3) وصححه وسكت عنه الذهبي.

اللّه إلا ضربهم اللّه بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمَّهم اللّه بالبلاء، أطيعوني ما أطعتُ اللّه ورسوله، فإذا عصيتُ اللّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم اللّه[1].

وعاد المسلمون إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم لتجهيزه، فتولَّى غسله ودفنه أربعة: علي، والعباس، والفضل، وصالح مولى رسول اللّه، ولحد لحدًا، ونصب عليه اللبن نَصبًا. قال علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه غسلتُ رسول اللّه فذهبتُ أنظر ما يكون من الميت، فلم أر شيئًا، وكان صلى اللّه عليه وآله وسلم طيبًا حيًا وميتًا، قالت عائشة رضي اللّه عنها: ولما أرادوا غسله صلى اللّه عليه وآله وسلم قالوا: واللّه ما ندري، أنجرد رسول اللّه من ثيابه كما نجرد موتانا، أم نغسله وعليه ثيابه؟ فلما اختلفوا، ألقى اللّه عز وجل النومَ حتى ما فيهم رجل إلا وذقنه في صدره، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت، لا يدرون من هو، أن اغسلوا النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم فغسلوه وعليه قميصه، يصبون الماء فوق القميص، ويدلكونه بالقميص دون أيديهم، فكانت عائشة رضي اللّه عنها تقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، ما غسله إلا نساؤه[2]. وكفن صلى اللّه عليه وآله وسلم في ثلاثة أثواب بيض سَحولية (نسبة إلى سَحول باليمن) من كُرْسف (قطن) ليس فيها قميص ولا عمامة[3]. فلما أرادوا الصلاة عليهً. سألوا أبا بكر رضي اللّه عنه فقال: نعم، قالوا: وكيف؟ قال: يدخل قوم فيصلون ثم يخرجون، حتى يدخل الناس، وسألوه: أيدفنُ رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم، قال: نعم، قالوا: أين، قال: في المكان الذي قبض اللّه فيه رُوحُه، فإن اللّه لم يقبض روحَه إلا في مكان طيب، فعلموا أن قد صدق[4]. وقال أبو بكر رضي اللّه عنه: سمعتُ من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم شيئًا ما نسيتُه، قال: ما قَبَضَ اللّه نبيا إلا في الموضع الذي يجب أن يدفَن فيه، ادفنوه في موضع فراشه. ونزل في قبره صلى اللّه عليه وآله وسلم علي، والعباس، والفَضل، وألقى شقران مولاه صلى اللّه عليه وآله وسلم قطيفة حمراء تحته صلى اللّه عليه وآله وسلم. وكان الدفن في ليلة الأربعاء، ولما فرغوا من دفنه، قالت فاطمة لأنس رضي اللّه عنه: أطابت نفوسُكم أن تحثوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم التراب؟[5] ومع شدة تعلق الصحابة به صلى اللّه عليه وآله وسلم وتفانيهم في حبه لم يُنَح عليه لأنه صلى اللّه عليه وآله وسلم نهى عن النياحة أشدَّ النهي، وما هي إلا عواطف الحب والإيمان، ودموع الوفاء والعرفان، والتأثر

(1) : رواه عبد الرزاق في المصنف (437/15) وهو صحيح. والحاكم في المستدرك (362/1).
(2) : رواه أبو داود في الجنائز رقم: 2733. بإسناد لابأس به.
(3) : رواه البخاري ـ الجنائز، رقم: 1185.
(4) : رواه الترمذي ـ الشمائل. رقم: 389.
(5) : رواه البخاري ـ المرض والوفاة رقم: 4103.

من فقد المكارم والإحسان، للّه در أبي القاسم العَزَفي إذ قال في (الدر المنظم): (البسيط)

يا سيدًا عظمت في الخلقِ رتبتُه
فأعجز الخلقَ إكبارًا وإجلالاَ

ما بعد فَقدك موجودٌ يُسرٍّ به
كنتَ الحياةَ وكنتَ الأهلَ والمالاَ

وقال أبو عبد اللّه ابن المناصف الأزدي الأندلسي المراكشي في المعلم الرابع في السيرة النبوية، والأعلام المحمدية، من أرجوزته الحافلة (الدرر السَّنية، في المعالم السُّنية) يرثي رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم ويبدي عواطفَه المشبوبة نحوه، وتحسره لفوات الحج، وزيارة القبر المقدس، والحرم النبوي الشريف:

هل لي إلى العزاء والتجلُّد
من مَسلك، أو مَوقف، أو مشهدِ؟

أم هل جميل الصبر والتأيد
في مثلها غير الجميل الأرشدِ؟

بل جَل في فَقد النبي أحمَد
رُزءٌ بَنِيَ الإسلام، فاجزَع و اجهَدِ

يا رَوعَ كل مؤمن موحد
مَن مَات ، أو حَيِيّ ، أو لم يُولدِ

هل هو في النفوس أن يُجَدّد
إلا مُصابُ مثلُه لم يُعهَدِ؟

يا عينُ جودي عَبرةً وأسعدي
واكتَحلي بالذعر كُحلَ الأرمَدِ

وصَوِّبي الدمعَ دمًا لا تجمُدي
أن تجزعي يا نفسُ أو تبلَّدِي

أو تهلكي من أسف أو تُفقدي
أو تتشظي قِطَع المقدَّدِ

لا تُنصفي، فزِد أسًى واستنفدي
حزنا على ما فاتنا مِن أسْعُد

بفقده لا قرّتْ عينُ الحُسّدِ
أما رسولُ اللّه مهما يُفقدِ

ففي النعيم الدائم المخلّد
و في جَوار اللّه ، أَعظِم باليدِ

ما شاء من عز ونُعمى أبَد
و إنما نَبكي لحظٍّ أنكدِ

من بُعده يا صاحِ فاكمُدْ واكْمد
موتُ[1] النبيّ المصطفى محمدِ

(1) : هذا مبتدأ، خبره: موت الجلال...

رسولِ رب العالمين المرشد[1]
مؤتِي الهُدى في يومِه وفي الغدِ
مُحيي عَميَّات القلوب الهُمَّد
مَوتُ الجلال والعُـلى و السّؤدَدِ
والبرِ والتقى[2] وفعلِ الرَّشَـد
بالنَفَسِ و الأهل إذًا و الوَلَـــدِ
والوالِدين وجميعِ العَـــدَد
نَفديه لو صَحَّ لنا أن نفتـدِي
يا خيرَ مَن نُهدى به ونَهتَدي
يا نَعمَ مَن سَن الهُدى لِنَهتَـدِي
يَا مَن أَزاحَ ظلمَ كل معتـــد
يا مَنَ به صلاحُ كلِّ مُفسِـــدِ
ويا رسولَ ربنا ، لا تبعُـــد
وَجهِيَ يَقِيكَ تُربَ ذاك المُلْحَدِ
نفسي الفِدا في مَصدَر أو مَورِد
يا ليتَنَي إذ كنتُ لمَّا أَشهَـــدِ
منكَ الحياةَ لائتِخار المَولـد
و فاتنيَ عِيانُ ذاك المشهَــــدِ
رُزقتُ مِن قبل الحِمام المرصَد
زيارة القبرِ الكريم الأمَجَــــدِ
و السعيَ في عِراصِه و المسجد
ألثُمَ آثارَ النبيّ الأسعَـــــــدِ
يا ربّ أنتَ عالم بمقصَـــدي
و غَائبي وشَاهِدي ومسنَـــدِي
حبُّ رسولِ اللّه أعلى عُـــدَدِي
خَالَطَ لَحمي وارتَقَى في كبدِي
يا رب حبًا في رضاك فاشهَـد
و اختَمِ لي اللهـــمَّ ربي وَ زِدِ
بحُبه وحُسن عُقبى المقتـدِي
واجعَل ليَّ النجاةَ يومَ الموعـدِ

بعض شمائله صلى الله عليه وآله وسلم وأزواجه وتركته

وأما صفة خَلقه صلى اللّه عليه وآله وسلم وخُلقه: فقد تكلفت بها كتبُ الشمائل، ومن أصحها (مختصر شمائل الترمذي) لشيخنا الألباني، وأجمعها: كتاب (الأنوار، في شمائل النبي المختار) للحسين بن مسعود البغوي، ولنتبرك بشذرة من ذلك حتى لا نُخلي

(1) : في نسخة: المرتدي: الثوب...
(2) : في نسخة: التقوى.

كتابنا منها. قال هند بن أبي هالة ابن خديجةَ أم المؤمنين رضي الله عنها وخال الحسن والحسين رضي الله عنهم يصف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان رجلاً وصّافًا: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متواصل الأحزان، دائمَ الفكرة، ليست له راحة، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه بأشداقِه، (يتكلم بملء فيه) ويتكلم بجوامع الكلم، كلامُه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة وإن دقت، لا يذم منها شيئًا، غير أنه لم يكن يذم ذَواقًا (مأكولا ومشروبا) ولا يمدحه، ولا تُغضبُه الدنيا ولا ما كان لها، فإذا تعدى الحق لم يقم لغَضَبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها. وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُل ضحكه التبسُّم، يَفتَرُّ عن مثل حَب الغمام (بياض أسنانه). ووصفه علي بن أبي طالب رضي الله عَنه وصفًا عاطرًا مستوعبًا، والبَراء بن عازب رضي الله عنه وغيرُهم من أصحابه صلى اللّهَ عليه وآله وسلم بما يطول ذكرُه.

وتركته صلى الله عليه وآله وسلم تتمثل في شيء قليل، لا يعدو مركوبًا وسلاحًا وأرضَ فَدك، ومماليك. وقد سبق أنه صلى الله عليه وآله وسلم أعتق رقيقَه، وقال مرارًا: نحن معاشر الأنبياء لا نُورث، ما تركناه صدقة[1]. إلا أننا ننبه إلى أن معظم ما رُوي في ذلك مدخول، فقد قال الذهبي في السيرة في باب سلاح النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودوابّه، وعُدته: أكثر هذا الباب كما ترى بلا إسناد، نَقله هكذا ابن فارس، وشيخُنا الدمياطي، والله أعلم هل هو صحيح أم لا. وكذلك أزواجه صلى الله عليه وآله وسلم مَن دَخَل بهن، أو عقد وخطب فقط، أو طلق قبل الدخول أو بعده، في ذلك أقوال وخلاف لا مُستنَدَ لأكثرها إلا ما اشتُهر أنه صلى الله عليه وآله وسلم توفي عن تسع، وهن مذكورات، وأخبارُهن مفصلة في كتب السير، والتاريخ، والمناقب، وقد أفردت بالتأليف، وقد أشار إلى أسمائهن بعضهم بالحروف الأولى من كلمات بيت واحد من بحر الطويل وهو:

خليلي سَبَى عَقلي هَوى حُسنِ زينَبا
زَها رَمزُ جَفنيْها صحيحًا مُهذبا

فالخاء لخديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وهي أولى أزواجه، تزوجها أيِّما، وكانت قبله تحت عتيق بن خالد المخزومي، وأولاده كلهم منها: ذكران: القاسم، وبه كان يُكنّى، والطاهر، ويقال: اسمه عبد الله، والبنات أربع: فاطمة، وهي أكبرهن، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وله إبراهيم من جاريته مارية بنت شمعون

(1) : رواه الترمذي في الشمائل رقم: 394.

القبطية، والذكور كلهن توفوا في حياته صلى اللّه عليه وآله وسلم أما البنات: فعشن، وأولاهن موتًا فاطمة رضي اللّه عنها. والسين، لسودة بنت زَمعة رضي اللّه عنها، وكانت قبله عند السكران بن عمر. والعين، لعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي اللّه عنها تزوجها وهي بنت سنتين وبَنى بها وهي بنت تسع، وماتت وهي ابنة ثمانَ عشرةَ سنة. والهاء، لهند بنت أبي أمية المكناة أمً سلمة رضي اللّه عنها. والحاء، لحفصة بنت عمر ابن الخطاب رضي اللّه عنهما، والزاي لزينب بنت جَحش، وتكنى أم الحكم رضي اللّه عنها. والزاي أيضا لزينب بنت خُزَيمة الهلالية المكناة: أم المساكين رضي اللّه عنها، وهذه توفيت قبله صلى اللّه عليه وآله وسلم. والراء، لرملة بنت أبي سفيان، وتكنى أم حبيبة، وكان خطبها له صلى اللّه عليه وآله وسلم النجاشي، وأصدقها أربعمائة دينار رضي اللّه عنها. والجيم، لجويرية بنت الحارث الخزاعية رضي اللّه عنها. والصاد، لصفية بنت حيي رضي اللّه عنها. والميم، لميمونة بنت الحارث الهلالية رضي اللّه عنهن وأرضاهن.

وقد آن الأوان لرُعاف اليراع أن يُمسك بعد أيام وساعات قضاها متقلبًا بين أنوار هذه الشذرات اللامعة، مُمتعًا عينه بنقوشها الرائعة، منوّر الفؤاد بترديد الصلاة والسلام عليه صلى اللّه عليه وآله وسلم بين الفَينة والأخرى، مستمطرًا رحمَة اللّه تعالى وعفوَه بتحقيق أحداث سيرته الكبرى، راجيًا من اللّه تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، ووسيلة للقرب من جَنَاب نبيه العظيم يوم التَّناد، والفصل بين العباد، آمين، وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين، وصلى اللّه وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

كلمة عن المصادر والمراجع

من المعلوم أن سيرة النبي صلى اللّه عليه وآله وسلم كُتب فيها مآت بل آلاف المصنفات، بمختلف الأساليب واللغات. إلاَّ أنه من الغريب المؤسف: أن تكون سمتُها الأولى الجمعَ والترتيبَ والتحليل، دون العنايةَ الواجبة بالمروِيات، ونقدها على ضوء أصول وقواعد علم الحديث. وكان اللاحق يقلد السابَق دون أثَر يذكَر إلا نادرًا، وحتى ما كُتب منها بأقلام جهابذة الحديث كابن عبد البر وابن حزم والذهبي وابن كثير ونحوهم لا يخرج عن هذا المسلك، ولم يَلفت نظرنا لأول مرة في هذا المجال إلا صنيع شيخنا الألباني في تخريِجه لأحاديث (فقه السيرة) للغزالي، وبعده بسنوات أصدر الدكتور أكرم ضياء العُمري كتابِه الممتع (السيرة النبوية الصحيحة، محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية) في مجلدين، كان - والحق يقال- رائدًا في بابه، على أنه مما يذكَر فيشكر لصاحبه: أنه كلف كوكبةً من نبغاء طلبتهِ بالجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية، بإفراد أبحاث علمية حول أبحاث السيرة والمغازي يطبقون أثناءَها قواعدَ البحث الحديثي في نقد الرجال وتمحيص الروايات، فتَم من ذلك الكثير تحت إشرافه، وبعد ذلك أصدر الدكتور مَهدي رزق اللّه أحمد كتاب (السيَرة النبوية، في ضوء المصادر الأصلية. دراسة تحليلية) في مجلد ضخم، وهو سائر على منهج سَلفه، ويلاحظ أنه اعتمده واستفاد منه، ونقل أحيانا عنه باللفظ دون أن يشير إلى ذلك، ثم أصدر الأستاذ إبراهيم العلي كتابه الجامع (صحيح السيرة النبوية) في مجلد، هذه الكتب الثلاثة جمعت عيون السيرة مع النقد والتصحيح، ولما وقفت عليها. وأنا مكلف بتدريسي المادة مع طلبة معهد الشاطبي بتطوان. عكفتُ على تلخيصها بقدر يفيد الطلبة دون تطويل، وحتى لا أتشبعَ بما ليس لي فإن مصادري هي هذه الكتب غالبًا غير أني كنتُ أرجع للتأكد والتوثيق إلى مصادرهم الميسورة، فإن أصبتُ فمن اللّه تعالى، وإن أخطأت فمن نفسي وجَهلي. واللّه المسؤول أن يجازي الإخوان المؤلفين المذكورين خير الجزاء على ما قدموا للأمة الإسلامية من خدمة جليلة، كانت تنقص علماءهم طيلة تاريخها حول أعظم وأهم موضوع ألا وهو سيرة نبينا عليه الصلاة والسلام.

مصادر هذه الشذرات

1) سيرة ابن هشام، طبعة الحلبي تحقيق محمد السقا ومن معه.
2) حماد بن إسحاق بن إسماعيل، تركة النبي صلى اللّه عليه وسلم والسبل التي وجهها فيها، تحقيق أكرم ضياء العمري.
3) أحمد ابن فارس، أوجز السيرة لخير البشر، طبع مصر.
4) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، طبع مكتبة العلوم والحكم بالمدينة النبوية.
5) مهدي رزق اللّه، السيرة النبوية من مصادرها الأصلية، طبع السعودية.
6) أبو حسن النَّدْوي، السيرة النبوية، طبع المكتبة العصرية، بيروت.
7) إبراهيم العلي، صحيح السيرة النبوية، دار النفائس، بيروت، ط الثانية.
8) محمد الغزالي، فقه السيرة، خرج أحاديثها الألباني، طبع مصر.
9) محمد رضا، محمد رسول اللّه، طبع مصر.

مع الرجوع أحيانا إلى مصادر هذه المصادر، كالكتب الستة وفتح الباري والفتح الرباني ودلائل النبوة للبيهقي ومجمع الزوائد وغيرها مما يذكر بهوامش هذا الكتاب.

وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين

فهرس مطالب
الشذرات الذهبية في السيرة النبوية